

الإسلام والمسيحية

وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى

دكتور
مؤلف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار الفكر الجامعي
٣٠ شارع سوئدي - الأزاريطة

اهداءات ٢٠٠٢

١.د/ أسامة محمود غنيم

الاستاذية

الاسلام والمسيحية
وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى

الإسلام والسياسة

وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى

إهداء إلى السادة الفاضلة
الاستاذة الدكتورة اسماء محمد
مع أطيب تمنياتي بالتوفيق والرفق
١٨/٧/١٩٨٧ - حبيب

دكتور
عبد الوهاب نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار الفكر الجامعي
٢ - شارع سوثير - الزاوية

الطبعة الأولى ١٩٨٦

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي
فَقَدْ نَكَّتُمْ

فهرس المحتويات

الصفحة	مقدمة
١ - ٣	
٥ - ٩٠	الموضوع الأول : العلاقات الاسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الاسلام ، في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى .
٩١ - ١٤٠	الموضوع الثاني : دراسة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى .
١٤١ - ١٩٧	الموضوع الثالث : دراسة في تاريخ الحركة الصليبية : مصادرها وعوامل قيامها .
١٩٩ - ٢٦٩	الموضوع الرابع : الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي .
٢٧١ - ٢٧٣	الخرائط
٢٧٥ - ٣٠١	فهرس أبجدي عام

مقدمة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه أربعة موضوعات متصلة ببعضها ، تتناول تاريخ العلاقات السياسية والحضارية بين العالم العربي الاسلامي والعالم الأوروبي المسيحي ، في جبهتيهما الشرقية والغربية ، خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ . الموضوع الأول عبارة عن بحث القيتة في الندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الذي عقدته الجامعة الاردنية وجامعة اليرموك في عمان بالأردن في الفترة الواقعة من ١٦ الى ٢٢ مارس ١٩٨٥ . وعنوانه « العلاقات الاسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الاسلام ، في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى » . وقد عالجت فيه بالتفصيل تاريخ تلك العلاقات اعتبارا من سنة ٥ هـ وحتى سنة ١٦ هـ (٦٢٦ - ٦٣٧ م) ، ملقيا الضوء على ماغض منها ، مع تحديد مكانها في الصراع الطويل الممتد بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى ، موثقا المادة بالمصادر الاصلية، من عربية وبيزنطية وأرمينية، الى جانب المراجع المتخصصة من عربية وغير عربية .

أما الموضوع الثاني وعنوانه « دراسة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » ، فقد بدأت في اعداده عندما انتدبت استاذًا زائرا للعمل بجامعة اليرموك بالأردن خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الجامعي ١٩٨٢/١٩٨٣ ، حيث أقيمت سلسلة من المحاضرات عن هذه الحضارة وخصائصها ومقوماتها وأصولها . وتقوم فكرة هذه الدراسة على أن الازدهار الحضاري الذي تمتع به العالم العربي الاسلامي في فترة من تاريخه ، كان يسير جنبا الى جنب مع قوته السياسية . والعكس صحيح . فعندما أصاب الشلل هذا العالم نتيجة المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كلا العالمين الاسلامي والمسيحي ، توقف الازهار الحضاري لتعقبه فترة من التدهور والانحلال . بمعنى أن القوة

السياسية والازدهار الحضارى فى العالم العربى الاسلامى ، كأننا يسيران جنبا الى جنب فى خطين متوازيين • وهذا نفس مايقال بالنسبة لفترات الضعف السياسى وما يصاحبها من انحسار حضارى • وقد ذيلت الدراسة بقائمة تضم عددا من المراجع المتخصصة من عربية وأجنبية ، أشرت اليها فى المتن •

وعنوان الموضوع الثالث « دراسة فى تاريخ الحركة الصليبية : مصادرها ، وعوامل قيامها » • أستهل القول بأن الحركة الصليبية هى موضوع تخصصى الدقيق منذ اعدادى لرسالتى الماجستير والدكتوراه ، وطوال عملى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية مدرسا ، فأستأذا مساعدا ، فأستأذا لتاريخ العصور الوسطى ، وحتى اليوم • وقد تضمنت هذه الدراسة العريضة الشاملة خلاصة عملى فى هذا المجال ، وتناولت فيها مسألتين : الأولى تتعلق بمصادر الحركة الصليبية ، من عربية وأجنبية وأهم الملاحظات عليها • والثانية استعرضت فيها أبرز العوامل والأسباب التى أدت الى قيام تلك الحركة، من رئيسية وثانوية، مباشرة وغير مباشرة • وأوضحت أن الحركة الصليبية لم تكن عفوية أو وليدة الصدفة ، وإنما لم تقم فجأة وبدون سابق انذار ، وإنما لم تكن نتيجة عامل بالذات دون عوامل أخرى • إنما كانت نتيجة عوامل عديدة متباينة متفاوتة التأثير ، ترجع جذورها الى ما قبل قيامها بعشرات بل بمئات من السنين • وأدت فى نهاية الأمر الى اندلاع شرارتها التى استمرت جذوتها مشتعلة ثلاثة قرون من الزمان ، هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادىة (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) ، واستمرت آثارها بعد ذلك حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث • وذيلت الدراسة بثبت ببعض المراجع المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية ، التى أشرت اليها فى النص • أما بقتية مصادر ومراجع تلك الحروف فيوجد بيان بها فى نهاية الموضوع الرابع •

والموضوع الرابع والأخير وعنوانه « الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي » فقد سبق صدوره في كتيب في طبعتين : الأولى طبعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦ ، والثانية طبعة بيروت سنة ١٩٨١ . وقد ضمته الى هذا الكتاب لصلته الوثيقة بفكرته وفلسفته ومنهجه . وهو مزيد عن الطبعتين سالفتي الذكر بما أدخلته عليه من اضافات ، ومنقح بما جددته فيه من صياغات . كما أنه موثق بمختلف المصادر والأصول المتعلقة بتاريخ الحركة الصليبية ، من عربية ولاينية وفرنسية قديمة وبيزنطية وأرمينية ، الى جانب المراجع المتخصصة من عربية وغير عربية .

والله ، سبحانه وتعالى ، أسأله التوفيق والسداد ،

الاسكندرية في يناير ١٩٨٦

جوزيف نسيم يوسف

الموضوع الاول

العلاقات الاسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الاسلام

في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى

الدولة البيزنطية وشبه جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام •

الغزوات والسرايا والبعوث الموجهة الى تخوم الشام في العهد النبوي •

الاحتكاك بين المسلمين والبيزنطيين في الشام زمن الخلفاء الراشدين
حتى وقعة اليرموك وفتح بيت المقدس •

الصراع الاسلامي البيزنطي في الشام وتخومه في صدر الاسلام ،
في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى •

الحواشي

المصادر والمراجع

لقى هذا البحث في الندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام
التي عقدت في عمان بالاردن مابين ١٦ — ٢٢ آذار (مارس) ١٩٨٥ .

تتناول هذه الدراسة ثلاث نقاط رئيسية : الاولى الغزوات والسرايا والبعوث التي اتجهت الى مشارف الشام في العهد النبوى ، والثانية الاحتكاك العسكرى المباشر بين المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام حتى وقعة اليرموك وفتح بيت المقدس . أما النقطة الثالثة فهي تحديد مكان الصراع الاسلامى البيزنطى في الشام وتخومه في هذا الوقت المبكر ، في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى . وقد استعرضنا في العنصرين الاول والثانى المصادمات والاحتكاكات بين المسلمين من ناحية ، والبيزنطيين ومحالفهم من متصرة العرب من ناحية أخرى ، بالقدر الذى يخدم موضع البحث . وبالنسبة للعنصر الثالث حرصنا على ابراز الخطوط العريضة الرئيسية التى تتعلق بتوازن القوى بين العالمين الاسلامى والمسيحى في العصر الوسيط ، دون الدخول في تفصيلات قد تقودنا الى متاهات تبعدنا عن المطلوب .

مقدمة

الدولة البيزنطية وشبه جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام :

اذا القينا نظرة على الدولة البيزنطية في القرن السادس الميلادى سوف نجد أن المحاولات اليائسة التى بذلها الامبراطور جستينيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) في شتيل اعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة ، والتى جند لها كل الامكانيات العسكرية والمادية والبشرية في دولته ، لم تؤت ثمارها . وكان هذا واضحا للعيان بعد موته ، وفي عز ايامه بصفة خاصة . اذ سرعان ما نهارت الامبراطورية التى كونها بعد موته بفترة وجيزة . وقد اقترنت السنوات الاخيرة من حكمه وحتى نهايته أسرته بالفقر والضعف والمجاعة ، وناعت الامبراطورية تحت عبء هذه التركة المثقلة بالمشاكل فى الداخل والخارج (١) .

وهكذا ، بانتهاء اسرة جستينيان عام ٦١٠ م كانت الكوارث تحيط

بالدولة من كل جانب • ففي الشرق كان الخطر الفارسي لايزال قائما • وفي الشمال كان الآفار يضغطون على حدود نهر الدانوب ، تدفعهم من وراءهم قبائل السلاف الاشد بربرية منهم • وفي الغرب نزل اللمبارديون في ايطاليا المفككة ، بينما سقطت اسبانيا في أيدي القوط الغربيين •

وعندما اعتلى هرقل العرش عام ٦١٠ م ليصبح أول امبراطور لئاسرة التي تحمل اسمه ، كانت الدولة قد افلست ، بينما تخالفت السلطة المركزية ، وغدت هذه التركة الخربة التي خلفها جستنيان وافراد أسرته بادية للعيان ، وبدأ كما لو ان أيام بيزنطة قد أصبحت معدودة حسبما يقول المؤرخان ن • ه • بينز N.H. Baynes و ه • ب • موس H.B. Moss (١) ، ووقف الاباطرة مكتوفى الايدي أمام هذا لانهييار • ويزيد الفريد بتلر A. Butler (٢) الامر وضوحا ، اذ يقول أنه الى جانب الاضطراب السياسى والخلل المالى ، كانت الامبراطورية تعاني من فساد خلقى ، فضلا عن انتشار الاوبئة والامراض فيها ، وحدوث الزلازل والمجاعات . يضاف الى ذلك تبرم الشعب في مدينة القسطنطينية وسخطه على اباطرته •

أما بلاد الشام ، وكانت اذ ذاك تابعة لبيزنطة ، فقد عانت كثيرا خلال هذه الفترة من الزمن • اذ قامت فيها الفتن والثورات الدينية ، وازداد العداء والصراع بين الملكانيين اصحاب الطبيعتين واليعاقبة اصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح • وذاق يعاقبة الشام الامرين على يد عمال بيزنطة عليها ، و كان شغلهم الشاغل هو فرض المزيد من الضرائب على الاهالى ، وجمع المال بثتى الطرق لارساله الى خزائن الامبراطورية في القسطنطينية . وباختصار ، كانت بلاد الشام نهبا للفوضى والفتن التي لانهاية لها ولا آخر : ولم تكن حالة بيزنطة تسمح لها بتدارك هذا الوضع المتردى •

كانت التركة التي تسلمها هرقل مثقلة بالمشاكل التي تنتظر منه حلا سريعا حاسمة . لقد تسلم امبراطورية في حالة شديدة من الفوضى والاضطراب ، وكان اصلاح الامور يبدو مستحيلا . وفي هذا يقول جورج استروجورسكى G. Ostrogorsky (٤) « كانت الامبراطورية حطاما عندما تسلم هرقل مقاليد الحكم فيها . . . كانت منهكة اقتصاديا وماليا . ولم يعد الجهاز الادارى العتيق يؤدي وظيفته . كذلك لم يعد النظام الحربى القائم على الجند المرتقة يقوم بمهمته ، نظرا لعدم وجود المال اللازم . فضلا عن ان المصادر القديمة للقوى البشرية لم يعد من السهل الحصول عليها أو الافادة منها . لقد اكتسح الاعداء المقاطعات الحيوية الرئيسية من الامبراطورية . اذ أقام السلاف والآفار فى البلقان ، بينما حصن الفرس انفسهم فى قلب آسيا الصغرى ، ولم يكن ثمة ما ينقذ الامبراطورية من هذا التردى سوى بعث الحياة فيها من جديد » .

وكان هرقل يأمل ان يقضى السنوات الاولى من حكمه فى القسطنطينية محاولا اعادة تنظيم الدولة من جديد . ولكن المشاكل التى واجهته منذ البداية لم تتح له الفرصة كي يتنفس الصعداء . وكانت أولاها المشكلة الفارسية التى ترجع جذورها الى التاريخ القديم منذ أيام الاسكندر المقدونى ، وتجددت فى العهد الرومانى المتأخر والبيزنطى المبكر . فخلال خمس سنوات (٦١١ — ٦١٥ م) كان الفرس قد استولوا على بلاد الشام ، وتوغلوا فى اراضى الدولة البيزنطية حتى بلغوا مدينة خلقيدونية الواقعة على شاطئ بحر مرمرة سنة ٦١٥ م . وقد رحب اهالى الشام بالفرس لانهم وجدوا فيهم مخلصين لهم من تير الحكم البيزنطى الذى كان عبئا ثقيلا على نفوسهم . ولكن هرقل فى حروبه المضادة ضد الفرس . تمكن من استعادة بلاد الشام الى حظيرة الامبراطورية سنة ٦٢٨ م ، ليمارس عماله الضغط عليها من جديد بعد فترة من الهدوء النسبى الذى عاشت فى ظلمة خلال الحكم الفارسى

لها ، لتعود الى سابق عهدها من الفوضى والاضطراب • ومما زاد الطين بلة ، أنه في محاولة منه لحل مشكلة انقسام المسيحية وتعدد مذاهبها التي أخفق أسلافه في حلها ، سعى الى كسب صداقة المونوفيسيين بالتوفيق اللاهوتي في المبادئ الدينية ، فخرج بمذهب جديد عرف بمذهب التوفيق أو التوحيد • وهدفه من ذلك هو التوحيد والتوفيق بين مختلف المذاهب المسيحية • ولكن هذه المحاولة لم تؤد الى أى وحدة دينية ، بل أدت — على العكس من ذلك — الى نزاع دينى شديد • فقد رفض يعاقبة الشام هذا المذهب • لقد ابقتهم متابعهم السياسية القائمة ، وحفدهم الدفين على تعاليم مجمع خلقيدونية المسكونى غير قانعين • وكان قد فات الاوان ، وافلت الزمام من قبضة بيزنطة (٥) • اذ كانت هناك قوة جديدة في طريقها الى الظهور ، وموطنها الاصلى شبه الجزيرة لتؤدى دورها على مسرح الاحداث ، ولتواجه الدولة البيزنطية في مرحلة ضعفها وانحلالها ، ونعنى بها الاسلام •

كانت شبه جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام تمثل صورة غير متناسقة • وكان غالبية سكانها من العرب الرحل ، قد انتظموا في قبائل متصارعة فيما بينها ، وقد تمسكت كل قبيلة بعاداتها وآلهتها واستقلالها • وكانت الحياة بسيطة يسودها الفقر بحكم طبيعة الصحراء الجافة القاسية ، اذا ما قورنت بما تتمتع به جارتها الدولة البيزنطية التي كانت تغمرها مختلف ألوان الترف ، على الرغم مما انتابها من ضعف وقتذاك • ولم يكن ثمة سبيل للتغلب على روح الفرقة والشقاق التي سادت بين تلك القبائل • ومع ذلك لم تكن حياة أولئك القوم كقوم رحل هي الطابع المميز الوحيد لمعيشتهم في شبه الجزيرة التي كانت اطرافها واقعة تحت المؤثرات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية لجارتها بيزنطة •

وكانت مكة هي الملتقى الرئيس لسكان الصحراء بالعالم الخارجى • كما كانت مركزا تجاريا هاما يمر به التجار تاركين منتجاتهم وأفكارهم

في نفس الوقت • وترتب على ذلك نمو التجارة فيها ، وتأثيرها بالعادات والتقاليد الاجنبية الوافدة من وراء الحدود • فتحوّل أسلوب الحياة لدى عرب مكة بشكل تدريجي عن أسلوب العرب الرحل • وهكذا أصبحت احدى المراكز الدينية الكبرى ، الى جانب كونها مركزا تجاريا هاما • ففيها توجد الكعبة والآلهة الاخرى ، واليها تحج كثير من القبائل العربية، كما تشدهم اليها بضائع التجار الذين يمرون بها أو يقيمون فيها • وهكذا ، أصبحت مكة مركزا للحياة في شبه الجزيرة العربية ، الى جانب اتجاهها السياسي لفرض زعامتها على أولئك العرب الرحل • وساعد تفاعل هذه القوى فيما بينها على انطلاق العرب التي مكنتهم من التغلب على قسوة الصحراء ، والقيام بدور بارز على مسرح الاحداث في حوض البحر المتوسط (١) •

الغزوات والسرايا والبعوث الموجهة الى تخوم الشام في العهد النبوي
مقدمات سبقت الاحتكاك العسكري المباشر بين المسلمين والبيزنطيين

في الشام

هكذا كانت الدولة البيزنطية تعاني من مشاكلها العديدة في الداخل والخارج • لقد خرجت من الحرب الفارسية وقد انهكها طول القتال ، وحل فيها الخراب والدمار ، وجف معينها من الرجال والمال ، وأصبحت في أشد حالات التعب والاعياء • وكانت في أمس الحاجة الى فترة ممتدة من السلام والهدوء ، حتى تسترد انفاسها المتقطعة ، وتستعيد قواها الخائرة • وفي ذلك الجين وقعت في شبه الجزيرة العربية احداث جسام كان لها أهميتها العالمية وآثارها البعيدة المدى في تطور التاريخ البشري ، اذ ظهر الاسلام يدعو الناس جميعا الى وحدانية الله ، والعرب الى الاتحاد والتآلف ونبذ الفرقة والخصام وترك عبادة الاصنام • ولم تمض بضعة سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ، ودانت

لها كافة القبائل العربية التي اصبحت ترى فيها رمز وحدتها ، وشعار مجدها ، وأمل مستقبلها •

وفي سبيل نشر الرسالة وتأمينها من جيران يتاخمونها الحدود ويناصيونها العداء ، وقعت أول اشتباكات حربية بين العرب المسلمين وجيرانهم من قبائل العرب المنتصرة أو المستعربة في مشارف الشام والمحالفة لبيزنطة ، مما أدى فيما بعد الى المواجهة العسكرية المباشرة بين المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام •

وجدير بالتنويه — قبل استعراض هذا الصراع — ان المؤرخين البيزنطيين المعاصرين لتلك الفترة من الزمن ، لم يحفظوا لنا تفاصيل الاشتباكات والمعارك التي وقعت بين المسلمين والبيزنطيين في صدر الاسلام • ولعلهم — على حد قول أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو شارل ارمان Ch. Oman ^(٧) — كانوا يكرهون فكرة سرد هذه الاحداث بسبب الهزائم المريعة التي لحقت بهم • وأقرب المصادر البيزنطية للفترة الزمنية موضوع الدراسة ، كتاب كل من ثيوفانيس Theophanes ومعاصرة البطريارك نقفور Nicephorus • لقد عاشا في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وتوقف أولهما في سرد احداثه عند سنة ٨١٣ م (١٩٨ هـ) ، بينما توقف الثاني عند سنة ٧٦٩ م (١٥٢ هـ) • وتناولوا الظروف التي واجهت بيزنطة أثر الهجوم العربي على ممتلكاتها الاقليمية • وهناك تشابه كبير بين ما سجله كل منهما بهذا الخصوص ، و ان كانت رواية ثيوفانيس أكثر وضوحا واستيفاء • ويعتبر الكتابان من المصادر الاصلية في التاريخ البيزنطي ، وفي تاريخ العلاقات المبيزنطية الاسلامية ، وبصفة خاصة فيما يتعلق باحداث القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري) • أما ما أورده عن احداث القرن السابع الميلادي (القرن الاول الهجري) ، فهو شديد التركيز والايجاز وليس فيه جديد •

ومن حسن الحظ أنه يوجد اثنان من المؤرخين الأرمن : أولهما يدعى سبيوس Sebēos صاحب « تاريخ هرقل » ، وقد عاش في القرن السابع الميلادي (القرن الاول الهجري) ، وثانيهما يسمى جيفوند Ghévonid صاحب كتاب « تاريخ حروب وفتوحات العرب في أرمينية » وقد عاش في القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري) . ويتضمن الكتابان اشارات قيمة تتعلق بأحداث الحملات العربية الاولى على الشام . وتعتبر رواية سبيوس رواية مؤرخ عاصر الاحداث التي كتب عنها ، أما فيما يتعلق بتلك التي لم يعاصرها ، أو التي يكن شاهد عيان لها ، فقد اعتمد في روايتها على من عايشوها . ولذلك يعتبر كتابه من المصادر الاساسية فيما نحن بصدده . اذ زودنا بمعلومات هامة ودقيقة عن بعض احداث القرن السابع الميلادي ، والتي كان مسرحها بلاد الشام . ونقل عنه من جاء بعده من المؤرخين الأرمن (٨) .

وأما جيفوند فهو عالم لاهوتي يحتل كتابه مكانة خاصة بين مصادر التاريخ الأرمني في العصر الوسيط . اذ انفرد بالقاء الضوء على تاريخ الشرق الأدنى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد (القرنان الاول والثاني الهجريان) . و كتابه يبدأ بذكر وفاة الرسول (ﷺ) ، ولكنه يمر مرورا سريعا على الاحداث التي تعرضت لها بلاد الشام زمن الخلفاء الراشدين . وقد توقف في مؤلفه عند احداث سنة ٧٨٨ م (١٧٢ هـ) . وهو وان لم يذكر المصادر التي استقى منها معلوماته ، خاصة في الفترة التي لم يكن معاصرا لها ، الا أن المدقق في كتابه يجد أنه اعتمد كثيرا على سبيوس فيما يتعلق بأحداث فتح العرب للشام (٩) .

هذا عن المصادر البيزنطية والأرمينية ، أما العرب فلم يكونوا من ناحيتهم قد بدأوا الكتابة بعد . ولذلك احيطت سنوات الفتح بسياج من الروايات المتعددة المتناقضة . ومن مؤرخي وجغرافيي القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) يجب أن نذكر على التوالي الواقدي،

وابن هشام ، وابن سعد ، وابن خياط ، والبلاذرى ، واليعقوبى .
وتعتبر مؤلفاتهم هى أقدم ما وصلنا عن الفترة الزمنية موضوع
الدوايسة . ومن مؤرخى القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى)
الطبرى ، والمسعودى ، ثم ابن عبد البر من القرن الخامس (ت ٤٦٣)
ومن اتى بعدهم فى القرون التالية . لقد تضمنت هذه المنابع العديد من
الروايات المختلفة المتعارضة المتعلقة بالحدث الواحد . كما ان المصدر
الواحد تضمن ، احيانا ، أكثر من رواية حول الواقعة الواحدة . كذلك
تضاربت الروايات حول تاريخ أهم الوقائع والاحداث ، كما اختلفت فيما
يتعلق ببعض فتوح مدن الشام ، الى جانب حدوث تقديم وتأخير فى
سرد بعض الاحداث ، الامر الذى يجعل المهمة صعبة أمام الباحثين
والدارسين . والواقع أن أى مؤرخ ، مهما اوتى من القدرة ، لا يستطيع
ان يسرد تاريخ الغزوات والسرايا والسنوات الاولى للفتح سردا
منتظما مسلسلا واضحا دقيقا ليس فيه أى اضطراب ، وكل سرد لهذا
التاريخ على اساس الانتظام التام يكون غير طبيعى ، لان العصر ذاته
كان مضطربا ، فضلا عن ندرة اصوله المعاصرة . كل هذا يتطلب تتبع
الاحداث ومراعاة تسلسلها الزمنى بشئ من الدقة والحذر قدر
الاستطاعة ، لتصبح نسيجا واحدا متصلا متجانسا ، بدءا بالغزوات
والسرايا والبعوث فى العهد النبوى ، وانتهاء بفتوح الشام زمن الخلفاء
الراشدين .

غزوة دومة الجندل (٢٥ ربيع الاول ٥ هـ / ٢٤ أغسطس ٦٢٦ م) :

لم يكن الامبراطور البيزنطى هرقل قد فرغ بعد من حروبه
المضادة ضد الفرس حتى بدأت أولى غزوات الرسول (ﷺ) . ذكر
المسعودى (١٠) ان دومة الجندل (١١) هى أولى غزواته ضد البيزنطيين ،
وصاحبها وقتذاك يدعى اكيدر بن عبد الملك الكندى ، وكان يعتنق
المسيحية ، ويدين بالطاعة للدولة البيزنطية (١٢) . وتتفق الروايات على

ان الغزوة جرت في ربيع الاول سنة ٥ هـ (اغسطس ٦٢٦ م) . وكان كل من ابن سعد (١٣) والنويرى (١٤) أكثر تحديدا ، عندما ذكرا ان رسول الله (ﷺ) خرج من المدينة قاصدا دومة الجندل في ٢٥ ربيع الاول ٥ هـ (الاحد ٢٤ أغسطس ٦٢٦ م) ، بعد ان استخلف على المدينة سباع بن عرفة الغفاري الكنانى (١٥) .

تعددت الروايات حول اسباب الغزوة . يقول ابن سعد (١٦) ان دومة الجندل كانت عامرة بالناس الذين كانوا يظلمون من يمر بهم من الضافطه (١٧) ، ويريدون الاقتراب من المدينة . ويزيد البلاذرى (١٨) الامر وضوحا ، فيقول « ان جمعا من قضاة ومن غسان تجمعوا وهموا بغزو الحجاز » . أما المسعودى (١٩) فيضع النقاط فوق الحروف ، مبينا ان اكيدر صاحب الدومة كان يعترض سفر الناس والتجار الى المدينة . لذا « اراد رسول الله (ﷺ) ان يدنو الى ادنى الشام ، وقيل له أن ذلك مما يفرع قيصر » (٢٠) ، أى هرقل .

على اية حال ، خرج الرسول (ﷺ) من المدينة في الف من المسلمين قاصدا الدومة . وكان يواصل السير ليلا ويكمن نهارا ، وربما يكون ذلك حتى لا ينتبه اليه العدو ، أو لشدة الحرارة في مثل هذا الوقت من العام . واصطحب معه دليلا من بنى عذرة يقال له مذكور يدلّه على الطريق (٢١) . فلما اقترب من الدومة تفرق أهلها . فهجم المسلمون على ماشيتهم وورعاتهم ، فأصابوا ما صابوا ، وهرب من هرب منهم في كل اتجاه . وكان صاحبها اكيدر من بين من لاذوا بالفرار . وعندما نزل الرسول (ﷺ) لم يجد أحدا ، فأقام بها عدة ايام . وتروى بعض المصادر أنه أخذ منهم رجل واحد فقط ، فسأله الرسول (ﷺ) عنهم ، فقال أنهم هربوا حيث سمعوا أنه أخذت منهم نعمهم . وقد عرض عليه الرسول الاسلام فأسلم . ثم قفل النبي بعد ذلك عائدا الى المدينة (٢٢) ، وكان ذلك في ١٩ ربيع الآخر سنة ٥ هـ (الاربعاء ١٨ سبتمبر ٦٢٦ م) (٢٣) .

ويمكن القول ان هذه الغزوة المبكرة التي قادها الرسول (ﷺ) بنفسه قد حققت اغراضها المرجوة منها .

سرية زيد بن حارثة الى بحسمى (جمادى الآخر ٦ هـ / اكتوبر - نوفمبر ٦٢٧ م) :

تتابعت الغزوات والسرايا ضد محالفي بيزنطة عند تخوم الشام . ففي جمادى الآخر سنة ٦ هـ (اكتوبر - نوفمبر ٦٢٧ م) ، أى بعد حوالى أربعة عشر شهرا من غزو دومة الجندل ، بعث الرسول (ﷺ) سرية بقيادة زيد بن حارثة الى قبيلتي لخم وجذام بحسمى التي تقع وراء وادى القرى مما يلى فلسطين من أرض الشام (٢٤) . وسببها ان اهلها تعرضوا لدحية بن خليفة الكلبى مبعوث رسول الله (ﷺ) الى الامبراطور البيزنطى . وقد اعمل فيهم زيد القتل والاسر ، ثم قفل عائدا الى المدينة (٢٥) . وواضح أن هذه السرية كانت عملية تأديبية ناجحة .

سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل (شعبان ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ - يناير ٦٢٨ م) :

وفي شعبان ٦ هـ (ديسمبر ٦٢٧ - يناير ٦٢٨ م) ، ارسل النبى (ﷺ) سرية أخرى بقيادة عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب الى دومة الجندل ، وكان بها قوم من كلب فأسلموا (٢٦) . هذا ، ولم تزدونا المصادر بأية تفاصيل عن هذه السرية ، أو النتائج التي حققتها . ولكن يتضح من نص اورده المسعودى (٢٧) عن الهزيمة التي لحقت بالبيزنطيين على يد الفرس ، ثم الحرب المضادة التي شنّها هرقل ضدهم ، ان ظروفهم آنذاك لم تكن تسمح لهم بمديد المساعدة الى قبيلة جذام أو الى أهل دومة الجندل ، مما يجعلنا نرجح ان السرية نجحت في تحقيق احدا هداها ، وهو دخول جماعة من كلب في الاسلام .

رسل النبي الى هرقل وغيره من الملوك (ربيع الاول ٧ هـ / يوليو —
اغسطس ٦٢٨ م) :

وبيئنا تخوم الشام تتعرض لسيل من الغزوات والسرايا ، أوفد
النبي (ﷺ) الرسل الى الامبراطور هرقل وغيره من الملوك • وقد
اختلفت الروايات حول تاريخ ارسال هذه السفارات • فقد ذكر
المسعودي (٢٨) تاريخين احدهما سنة ٦ هـ (فيما بين مايو ٦٢٧ وابريل
٦٢٨ م) قبل فتح الرسول (ﷺ) خير ، والثاني شهر ربيع الاول سنة
٧ هـ (يوليو — اغسطس ٦٢٨ م) • بينما حدد النويري (٢٩) تاريخ
مكتبة رسول الله (ﷺ) للملوك في المحرم سنة ٧ هـ (مايو — يونيو
٦٢٨ م) • أما البلاذري (٣٠) ، فأوضح ان التاريخ هو سنة ٧ هـ ، وذكر
أنه اثبت من سنة ٦ هـ • واما ابن هشام (٣١) فلم يحدد تاريخا ، ولكن
حديثه عن مبعوثي الرسول (ﷺ) الى الملوك يجيء استرسالا لما سبقه •
ويدل النص على أن ذلك تم بعد الحديبية ، أي سنة ٦ هـ •

ومهما يكن الاختلاف حول التاريخ ، فقد حددت المصادر أسماء
الرسل الذين أوفدهم النبي (ﷺ) الى الملوك • اذ بعث دحية بن خليفة
الكلبي الى هرقل ، وشجاع ابن ذهب الاسدي الى المنذر بن الحارث بن
ابي شمر الغساني (٣٢) عامل هرقل على دمشق واعمالها ، ورسولا ثالثا
الى جبلة ابن الأيهم ملك غسان ، كما بعث خالد بن الوليد الى اكيدر
ابن ابي الملك صاحب دومة الجندل • وزود الرسل بكتب يدعو فيها أولئك
الملوك الى الاسلام (٣٣) •

وجدير بالاشارة هنا تلك المقابلة التي تمت بين ابي سفيان
والامبراطور هرقل ، والحديث الذي دار بينهما بشأن النبي (ﷺ) •
وكان ابو سفيان في بيزنطة في تجارة له ، وقد بلغه ان بنى أمية من
كنانة يقاتلون حلفاء رسول الله من خزاعة ، وانهم اوجعوهم قتلا •

وعندما التقى بامبراطور الروم ، أخذ هرقل يستفسر منه عن النبي (ﷺ) وعما يأمرهم به وينهاهم عنه • ودار بينهما حوار طويل انهاء قرههـل بقوله بأن الرسول (ﷺ) رجل صالح ، وطلب من ابى سفيان ان يتبعه هو وقومه والا يقاتلوه ، والا ي نهجوا نهج اليهود الذين قاتلوا انبياءهم • وانتهى الامر بعودة ابى سفيان الى مكة (٣٤) • هذا ، ولم تحدد الروايات تاريخ هذه المقابلة • ولكن يبدو من نص الطبرى (٣٥) انها تمت بعد تسلم هرقل كتاب النبي ، ويعزز ذلك تسلسل الاحداث • فبعد ان تسلم هرقل رسالة النبي وقابل مبعوثه ، اراد ان يستشف الاخبار عنه من هنا وهناك • فكان طبيعيا عند التقائه بابى سفيان أن يعرف منه اخبار الرسول (ﷺ) •

لعلنا نخلص مما سبق ان هرقل ، وقد خرج متهاككا من حروبه الطويلة مع الفرس ، وبعد سماعه بأخبار الرسول (ﷺ) ، سعى الى تجميع المعلومات عنه ، وان رسول النبي وكتابه اليه يدلان — بما لا يدع مجالا للشك — ان الهدف هو نشر الاسلام في البلاد المجاورة ، وفي مقدمتها بطبيعة الحال الدولة البيزنطية وجيرانها ومحالفيها من متصرة العرب في اعالي الشام ، وأن الغزوات التي قادها الرسول (ﷺ) والسرايا التي بعث بها الى تخوم الشام مبكرا اعتبارا من القرن الخامس الهجرى (٦٢٦م) ، ما هي الا تمهيدات هدفها الاستطلاع وجس النبض قبل الاحتكاك العسكرى المباشر بين المسلمين والبيزنطيين ، والذي كانت بلاد الشام أول مسرح له • ثم ان المقابلة التي تمت بين هرقل وابى سفيان ، تكشف بطريق غير مباشر عن تخوف الامبراطور البيزنطى من المتغيرات التي استجدت على مسرح الاحداث •

سرية كعب بن عمير الغفارى الى ذات اطلاق (ربيع الاول ٨ هـ /
يوليو — اغسطس ٦٢٩ م) :

كانت السرية (٣٦) التالية لسرية دومة الجندل هى تلك التى ارسلها
رسول الله (ﷺ) بقيادة كعب بن عمير الغفارى الى ذات اطلاق (٣٧) ،
ويقال لها أيضا ذات أباطح (٣٨) • وهى من وراء وادى القرى بين تبوك
واذريعات من بلاد دمشق من أرض الشام (٣٩) • وكان أهلها من
قضاة ، وزعيمهم رجل يقال له سدوس (٤٠) • وبلغ عدد أفرادها خمسة
عشر رجلا • وعندما بلغوا ذات اطلاق وجدوا جمعا من أهلها ، فدعواهم
الى الاسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوا رجال السرية بالنبال •
واشتد القتال بين الطرفين حتى قتل رجال السرية كلهم فيما عدا واحدا
أفلت بعد أن أصيب بجراح • وتحامل على نفسه ليلا حتى بلغ المدينة ،
واخبر رسول الله (ﷺ) بما حل بالسرية (٤١) ، فتأثر لذلك • « وهم
بالبعث اليهم ، فبلغه انهم قد ساروا الى مواضع اخر ، فتركهم (٤٢) » •
وواضح ان هذه السرية منيت بالهزيمة •

سرية مؤتة (جمادى الاول ٨ هـ / اغسطس — سبتمبر ٦٢٩ م) :

تتابعت بعد ذلك الغزوات والسرايا ، وكانت السرية التالية هى
سرية مؤتة • وقد ذكرها فريق من المؤرخين المسلمين القدامى تحت
اسم « غزوة » ربما لكثرة عدد من اشترك فيها ، بينما اشار اليها البعض
تحت اسم « سرية » • وفريق ثالث تحت اسم « يوم مؤتة »
و « قصة مؤتة » • (٤٤) ولم يشترك رسول الله (ﷺ) بشخصه فيها ،
اذ كان فى المدينة وقتها (٤٥) • وقد أمر عليها زيد بن حارثة الكلبى •
وكانت وجهتها مؤتة ، وهى من ناحية البلقاء من اعمال دمشق من
الشام (٤٦) ، وأهلها يومئذ من الروم ومنتصرة العرب من الغساسنة
الموالين لهم (٤٧) • ولا خلاف حول تاريخها ، فقد اتفقت الروايات على
أنها كانت فى جمادى الاول سنة ٨ هـ (اغسطس — سبتمبر ٦٢٩ م) (٤٨) •

ولا تلقى المصادر ضوءا كافيا على الاسباب التي دعت الرسول (ﷺ) الى بعث هذه السرية ، وان كان السعدي (٤٩) قد ذكر أنها كانت تستهدف غزو البيزنطيين . ووضع النقاط فوق الحروف قائلا أن اقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل رسول الله الحارث بن عمر الازدي الى صاحب بصرى كان سببها . وهذا يدل بطريق غير مباشر ان تلك السرية ، وما سبقها من غزوات وسرايا وجهت الى تخوم الشام ، كانت مقدمات هدفها الدولة البيزنطية نفسها ، بالاضافة الى الهدف الاسمي وهو نشر الاسلام في تلك الجهات . وقد بلغ عدد رجال هذه السرية حوالي ثلاثة الاف رجل ، بينما أنفذ الامبراطور هرقل ، وكان وقتئذ مقيما في انطاكية بعد انتصاره على الفرس ، مائه الف مقاتل للقائهم . وقد يكون في هذا العدد بعض المبالغة ، الا أنه يدل على ضخامة عدد القوات البيزنطية . وأما متنتصرة العرب من غسان وقضاعة وغيرهم ، فكان عليهم شرحبيل ابن عمرو الغساني (٥٠) . واما المسلمون فقد جعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يدعى قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الانصار يسمى عباية بن مالك ، وفي رواية أخرى عباده بن مالك .

وبدأ القتال بين الفريقين ، وقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله (ﷺ) حتى هلك ، فأخذها جعفر بن أبي طالب ، وعندما اشتد القتال ترجل عن جواده ، وواصل القتال وهو يحمل اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل عن ثلاثة وثلاثين عاما . ويقال ان احد الجنود البيزنطيين ضربه بسيفه فقطعه نصفين . ويقال أيضا أنه وجد به اثنان وسبعون جراحة ، مابين ضربة بسيف وطعنه برمح .

على أية حال ، حمل الراية بعد جعفر ، عبد الله بن رواحه الانصارى وكان ممتطيا جواده . وقاتل بعض الوقت ، ثم ترجل وواصل

القتال حتى استشهد • حينئذ اتفق المسلمون على خالد بن الوليد بن المغيرة الذي أخذ الراية وتصدى لجموع البيزنطيين دون جدوى •

ويمكن القول ان هذه السرية لم تحقق هدفها • اذ وقع عدد كبير من المسلمين بين قتيل وجريح ، وان كان خالد قد قفل عائداً الى المدينة بمن تبقى من قواته ليخبر رسول الله (ﷺ) بما حل بهم ، فغمره الحزن على ما حدث (٥١) • وأوضح كل من الواقدي وابن هشام ان النصر لم يكن حليف المسلمين في هذه الموقعة • وأخذ رسول الله (ﷺ) ينعى شهداء مؤته وهو في المدينة رجلاً رجلاً (٥٢) • وعدد ابن هشام اسماء بعض شهداء مؤته من قريش ، وبنى هاشم ، وبنى عدي بن كعب ، وبنى مالك بن حشل ، من الامصار ، وبنى الحرث بن الخزرج ، وبنى غنم بن ملك بن النجار ، وبنى مازن بن النجار ، وبنى مالك بن افضى • وكتب الشعراء يصفون الموقعة ويرثون شهداءها ، نذكر منهم — على سبيل المثال — غيس بن المسحر ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك (٥٣) •

سرية عمرو بن العاص الى ذات السلاسل (جمادى الآخرة ٨ هـ / سبتمبر — اكتوبر ٦٢٩ م) :

استهدفت هذه السرية ذات السلاسل من أرض بنى عذرة وراء وادي القرى (٥٤) • واتقفت الروايات على أنها وقعت في جمادى الآخرة سنة ٨ هـ (سبتمبر — اكتوبر ٦٢٩ م) (٥٥) • و اميرها هو عمرو بن العاص (٥٦) ، وكانت رايته سوداء اللون ، « وبعثه (النبي) يستتفر العرب الى الشام (٥٧) » • ويبدو أنه ووجه بمقاومة شديدة ، فأرسل يطلب المدد من رسول الله (ﷺ) • فوجه اليه ابا عبيده بن الجراح ، وسرواات المهاجرين والامصار • أما العدو فكان يتألف من جموع الروم ومنتصرة العرب (٥٨) ، من قضاة ، وعاملة ، ولخم ، وجذام (٥٩) •

وتقاتل الفريقان ، والحق المسلمون الهزيمة بأعدائهم ، وتمكنوا من تشتيتهم ، وقتلوا من رجالهم عددا كبيرا ، بينما أصيب كثير منهم بجراح (٦٠) .

غزوة تبوك (رجب سنة ٩ هـ / أكتوبر — نوفمبر ٦٣٠ م) :

قال الواقدي (٦١) ان هذه الغزوة استهدفت بلاد الشام . أما ابن هشام (٦٢) فكان أكثر وضوحا عندما أكد ان هدفها هو التهيؤ لغزو الروم . ووضع البلاذري (٦٣) النقاط فوق الحروف عندما قال « ان هرقل ومن اجتمع اليه من لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغيرهم ، اظهروا انهم يريدون غزو رسول الله (ﷺ) » . وقد اختيرت قرية تبوك (٦٤) مما يلي دمشق من ارض الشام مسرحا لها ، وبين تبوك والمدينة تسعون فرسخا ، وكان النبي (ﷺ) مقيما في المدينة وقتها (ذو الحجة — رجب ٩ هـ / مارس ٦٢٩ — نوفمبر ٦٣٠ م) بعد رجوعه اليها من غزوة الطائف (٦٥) . وقد عرف جيش هذه الغزوة باسم « جيش العسرة » ، بسبب قسوة الحر ، وشدة الجذب الذي اصاب شبه الجزيرة وقتها ، فضلا عن بعد المسافة ، وكثرة رجال العدو . ولذلك اعلن الرسول (ﷺ) عنو جهته حتى يتهيا الجند للمعركة ، خلافا لعادته عندما كان يستعد لمعركة ضد العدو ، فكان لا يكشف عن مقصده ، ضمانا لنجاحها (٦٦) .

وقد واجهت رسول الله (ﷺ) بعض الصعاب وهو يعد لهذه المعركة . ففضلا عما تقدم ، اخذ البعض يتعالون بمختلف الحجج والاعذار للتوصل من الاشتراك في الغزوة ، ومن بينها شكوى البعض من ضيق ذات اليد ، الامر الذي لايسمح لهم باعداد لوازمهم . فأمر الرسول (ﷺ) بأن يتكفل الاغنياء بتجهيز الفقراء (٦٧) بالانفاق عليهم والحملاان في سبيل الله (٦٨) . وتكشف المصادر العربية عن الادعاءات الصادرة عن المنافقين والمتخوفين والبكائين والمتخلفين وغيرهم ، والذين

نزلت فيهم آيات عديدة (٦٩) • وهى تكشف عما لاقاه النبى (ﷺ) من متاعب اثناء اعداده لهذه الغزوة •

على أية حال ، كانت الغزوة فى رجب سنة ٩ هـ (اكتوبر — نوفمبر ٦٣٠ م) (٧٠) • وبلغ عدد افرادها ثلاثين الفا ، والخيـل عشرة الاف ، والابل اثنى عشر الف بعير • واختلفت الروايات فيمن استخلفه الرسول (ﷺ) بالمدينة • فمن قائل انه على بن الى طالب ، ومن يقول انه ابن ام مكتوم ، ومن يقول أنه محمد ابن سلمة الانصارى ، ويقال ايضا سباع بن عرفطة (٧١) • ولانعرف على وجه التحديد من فيهم انابه الرسول (ﷺ) على المدينة اثناء غربته •

وبعد ان تمت الاستعدادات ، خرج الجيش من المدينة متوجها الى تبوك • وقد اقام الرسول (ﷺ) بها مدة شهرين حيث نزل عليه القرآن الكريم يعيب من تخلف باعتبارهم من المنافقين • كما وفد عليه اثناء اقامته بتبوك اسقف ايلة (٧٢) وصاحبها ويدعى يحنه ابن روبة • فصالحه على ان يؤدى كل بالغ فيها دينارا فى السنة • كذلك قدم عليه اهل أذرح (٧٣) ففسأ لوه الصلح مقابل دفع الجزية ، فوافق وكتب لهم كتابا بذلك (٧٤) •

قفل الرسول (ﷺ) بعد ذلك عائدا الى المدينة (٥٧) • وواضح أنه لم يحدث أى احتكاك عسكرى بين المسلمين والعدو فى تبوك • فقد صممت المصادر العربية عن ذلك (٧٦) • وكانت تلك الغزوة هى آخر غزوات النبى (ﷺ) •

سرية خالد بن الوليد الى دومة الجندل (رجب ٩ هـ / اكتوبر — نوفمبر ٦٣٠ م) :

واثناء اقامة الرسول (ﷺ) بتبوك ، بعث فى رجب ٩ هـ (اكتوبر — نوفمبر ٦٣٠ م) سرية على رأسها خالد بن الوليد المخزومى الى اكيدر

ابن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل * وكانت قد تعرضت قبل ذلك لهجومين : أولهما الغزوة التي قادها النبي (ﷺ) بنفسه في ٢٥ ربيع الاول ٥ هـ (٢٤ أغسطس ٦٢٦ م) ، وثانيهما السرية التي قادها عبد الرحمن بن عوف في شعبان ٦ هـ (ديسمبر ٦٢٧ — يناير ٦٢٨ م) * وتوجه خالد الى الدومة ، وحصل على غنائم ، واسراخا الأكيدر ، ويقال أنه قتل اخا آخر له يسمى مصادا ، وأخذ قباء ديباح كان عليه منسوجا يذهب * وكتب الرسول (ﷺ) لأكيدر ولاهل دومة الجندل كتابا (٧٧) *

سرية أسامة بن زيد الى يبنى وازدود (سنة ١٠ هـ / ٦٣١ م) :

وبعث الرسول في سنة ١٠ هـ (٦٣١ م) (٧٨) بسرية على رأسها أسامة بن زيد الى يبنى وازدود من ارض فلسطين من بلاد الشام (٧٩) * وكانت هذه هي آخر سرية خرجت بالفعل في عهد الرسول (ﷺ) * وفي صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢ م) ، وكان الرسول (ﷺ) بعد حجة الوداع قد عاد الى المدينة واقام بها بقية ذى الحجة سنة ١٠ هـ (مارس ٦٣٢ م) وشهرى المحرم وصفر من سنة ١١ هـ (ابريل — مايو ٦٣٢ م) (٨٠) ، ندب قبل انتقاله الى جوار ربه أسامة بن زيد الى بلاد البلقاء (٨١) واذرعات (٨٢) والداروم (٨٣) ومؤته من أرض دمشق من الشام ، للثأر لابيه زيد بن حارثة الذي استشهد في مؤته سنة ٨ هـ (٦٢٩ م) (٨٤) * وكان معه عمر بن الخطاب ، والزبير بن العوام ، وابو عبيدة بن الجراح * واختلفت الاقوال بشأن ابي بكر ان كان في هذا البعث أم لا * واخذوا يستعدون لملاقاة العدو ، وكان رسول الله (ﷺ) يحثهم في فترة مرضه بتجهيز جيش أسامة (٨٥) *

وهذه السرية هي آخر ما اعده الرسول (ﷺ) من سرايا في اتجاه الشام ، ولم تخرج في حياته ، وانما وجهت زمن الخليفة ابي بكر الصديق *

وفي ١٣ ربيع الاول ١١ هـ (٨ يونيو ٦٢٣ م) ، انتقل الرسول الى جوار ربه (٨٦) . واذا القينا نظرة طائر على الغزوات التي قادها بنفسه ، والسرايا والبعوث التي أوفدها الى القسطنطينية وتخوم الشام ، ابتداء بغزوة دومة الجندل في اعالي الشام في ربيع الاول ٥ هـ (اغسطس ٦٢٦م) وانتهاء بسرية اسامة بن زيد بن حارثة الى يبنى وازدود بفلسطين سنة ١٠ هـ (٦٣١ م) ، سوف نجد أنها لم تكن معارك حاسمة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح . لقد كانت مجرد هجمات سريعة خاطفة تعود بعدها القوات الاسلامية محملة بالمغانم والاسرى وبمعلومات عن الاعداء . كما كانت مقدمات تستهدف جس النبض والاستطلاع لمعرفة مدى قوة الدولة البيزنطية الحليف القوي للمستعربة أو متصرة العرب في تخوم الشام . ويعزز ذلك الرسالة التي وجهها الرسول (ﷺ) الى هرقل وغيره من حكام الشام النصارى التابعين أو المواليين له . وكذلك اللقاء الذي تم بين هرقل وابى سفيان والحديث الذي دار بينهما وما يكشف عنه . فضلا عما ذكرته المصادر العربية من ان هذه الغزوات والسرايا كانت تستهدف ، في المرتبة الاولى ، غزو بيزنطة والاستعداد لذلك . وكانت الدولة البيزنطية — من ناحيتها — تحاول التعرف على الاهداف الحقيقية لهذه الغزوات والسرايا . لقد كانت على علم بظهور الدين الاسلامي في الجزيرة العربية ، والهجمات التي تعرض لها اعالي الشام المتاخم لحدودها . ويذكر ابن هشام (٨٧) — نقلا عن ابن اسحاق — ان مروة بن عمرو بن النافرة الجذامي بعث الى محمد (ﷺ) رسولا باسلامه ، وكان عامل بيزنطة على معان وما حولها من أرض الشام ، وانه لما بلغ بيزنطة ذلك قبضوا عليه وسجنوه عندهم ، ثم قتلوه . وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على ان المشاعر كانت معبأة من كلا الجانبين على طرفي الحدود . فكان طبيعيا ان يكون اقليم الشام التابع لبيزنطة ، هو أول مسرح للقتال العنيف بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الخلفاء الراشدين ، فيما عرف بحركة الفتوحات الاسلامية الاولى .

وييلور أحد المرخين الغربيين الحديثين، وهو ريتشارد ساليغان (٨٨)،
ما سبق، بقوله أنه عندما توفي الرسول (ﷺ) كان قد أصبح رسولا
وزعيما لمجتمع من القبائل العربية القوية المتحالفة التي أرست وحدتها
على أساس الولاء للرسول (ﷺ) وتقبل دين واحد • وكان هذا نقطة
البداية لمواجهة العالم الخارجى •

الاحتكاك بين المسلمين والبيزنطيين في الشام زمن الخلفاء الراشدين حتى وقعة اليرموك وفتح بيت المقدس

كان من نتائج الغزوات والسرايا التي تعرض لها اعالي الشام
في العهد النبوي، ان ظهرت قوة جديدة على مسرح الاحداث يحسب
لها الف حساب، تتمثل في الدين الجديد واتباعه • وكانت الغزوات
والسرايا تستهدف نشر الاسلام وتأمينه، والتعرف في ذات الوقت على
قوة الدولة البيزنطية التي اصبح المسلمون على وشك الاحتكاك بها
احتكاكا مباشرا حسبما اسلفنا • وعلى هذا لا يمكن الفصل بين نشر
الرسالة وتأمينها من جيران يتاخمونها ويعادونها، وبين الاحتكاك المباشر
والمتوقع بين المسلمين والدولة البيزنطية • ومن الطبيعي ان تكون بلاد
الشام، التي كانت تعتبر من أهم اقاليم هذه الدولة، هي أول مسرح
للصراع بينهما •

ولم يكن اختيار وقت الفتح في صالح بيزنطة • ذلك ان هرقل
سدّد الدين الكبير الذي كان قد تعهد بدفعه الى الكنيسة البيزنطية اثناء
حروبه المضادة ضد الفرس التي خرج منها منهوك القوى • كما ادى
هذا الى استنزاف موارد الدولة وافقارها، حتى لقد اضطر الامبراطور
الى فرض ضرائب جديدة على أهالى الولايات المستتاعة من الحكم
الرومانى، وفي مقدمتهم أهالى الشام، والى تسريح عدد كبير من
جنوده رغبة في الاقتصاد قدر الاستطاعة • ولا خلاف ان الشام التي

تقضت حوالى اثنى عشر عاما تحت الحكم الفارسى ، لم تعد الى حالتها الاولى بعد فتحها من جديد وعودتها الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية . اذ كانت المنازعات الدينية المتفاقمة والمتأزمة ، الى جانب الانقسامات المذهبية والمشاكل الاقتصادية ، قد ادت الى تفككها وتمزيقها فقد كثر فى هذا الاقليم اتباع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وهم اليعاقبة ، وتنفسوا الصعداء بعض الشئ مدة الحكم الفارسى بسبب تخلصهم من الضغط البيزنطى . ولذلك قاوموا بكل شدة محاولات الامبراطور هرقل لفرض مذهب التوحيد أو التوفيق الذى نادى به ، حتى اذا جاء الفتح العربى رفضوا باصرار مساعدة الجيش الامبراطورى ، فى الوقت الذى امدوا فيه للعرب المسلمين يد المساعدة (٨٩) .

وفى ضوء ما هو متاح تحت ايدينا من معلومات وردت فى ثنايا المصادر (٩٠) ، يمكن تتبع مراحل هذه الحروب بشئ من التركيز قدر الاستطاعة دون الدخول فى متاهات تفاصيلها المعروفة ، مكتفين بابرار ما يمكن استخلاصه منها مما يخدم موضوع البحث .

حملة اسامة بن زيد الى البلقاء واذرعات والداروم ومؤته (آخر ربيع الاول ١١ هـ / الخميس ٢٠ يونيو ٦٣٢ م) :

كنا قد ذكرنا انه فى صفر ١١ هـ (ما يو ٦٣٢ م) كان الرسول (ﷺ) قبل انتقاله الى جوارربه ، قد جهز حملة بقيادة اسامة بن زيد بن حارثة وجهتها البلقاء واذرعات والداروم ومؤته من ارض دمشق من الشام ، لتخويف البيزنطيين من ناحية ، وتأديب الغساسنة وهم العرب المنتصرة لمواقفهم العدائية من ناحية أخرى ، وقتلهم عددا من المسلمين من بينهم زيد والد اسامة من ناحية ثالثة . ولكن وفاة رسول الله (ﷺ) حالت دون خروج الحملة .

وبعد اتمام البيعة لابي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١١) —
١٣ هـ / ٦٣٢ — ٦٣٤ م) ، اصر على انفاذ حملة اسامة ، على الرغم
من محاولات الصحابة المتكررة لتعطيلها أو ارجائها مطالبة تارة بتغيير
اسامة من مركز القيادة لحدثة سنه ، وتارة أخرى بظهور حركة الردة
بين العرب مما قد يؤدي الى تفرق جماعة المسلمين عنه ، وما يترتب على
ذلك من آثار • ولكن ابا بكر رفض كل هذه الحجج ، مصرا على ارسال
الحملة بقيادة اسامة • وكان ذلك في آخر شهر ربيع الاول سنة ١١ هـ
(الخميس ٢٠ يونيو ٦٣٢ م) (٩١) •

وهكذا خرج أبو بكر يودع اسامة من الجرف حيث كان يعسكر هو
وجنده ، بعد ان اوصاهم بما يجب أن يكون عليه سلوك الجند اثناء
الحرب • وخرج اسامة في ثلاثة آلاف من الجند متخذا طريق ذى المروة
والوادي حتى وصل الى قبائل قضاة فأغار عليها وعلى بطون من جذام
ولخم وبنى آيل من قرى مؤتة • فأعمل السيف فيمن تعرض لجيشه ،
وحصل على بعض الغنائم • وعندما شاهد العرب المتنصرة جيش اسامة
متجها الى اطراف الشام الجنوبية كفوا عما كانوا يستعدون له (٩٢) •

وفي تلك الاثناء كانت حركة الردة قد تفاقمت ، ولم يكن بوسع
ابي بكر ارسال الجند للقضاء عليها في مهدها بسبب انشغال جيشه في
الشام • فكان يحاول اقناع أهل الردة حوالى ثلاثة اشهر الى أن رجع
جيش اسامة ، فلم يتوان عن محاربتهم (٩٣) •

وبعد ان استتب الامر لابي بكر ، رأى توسيع عملية الفتح لتشمل
حدود الامبراطورية البيزنطية • فعقد مجلسا من كبار رجال الصحابة
وعلى رأسهم عمر وعثمان وعلى ليعرض عليهم موضوع غزو البيزنطيين
بأرض الشام • وبعد التداول ومناقشة الامر من كافة نواحيه ، وافقوا
على ذلك • وخرج أبو بكر الى عامة المسلمين داعيا اياهم الى « جهاد

الروم بأرض الشام » ، والاستعداد لذلك • ثم بعث بالكتب الى اليمن يستنفر اهلها لفتح الشام ، فاستجابت القبائل اليمنية ، وتتابعت مسرعة الى المدينة تلبية لنداء الجهاد (٩٤) •

وقعة مرج الصفر (١٩ جمادى الاولى ١٣ هـ / ٢١ يوليو ٦٣٤ م) :

وكان الخليفة ابو بكر قد جعل خالد بن سعيد بن العاصى ، قائدا على الجيش بدلا من عمر بن الخطاب الذى قام بعزله • وامره ان ينزل بتيماء ، وهى بايدة فى اطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى ، ودعوة من حوله للانضمام اليه • فلما حل بها انضمت اليه جموع كثيرة • ولما وصلت اخبارهم الى الدولة البيزنطية ، استنفرت متنصرة العرب المقيمين على اطراف الشام الجنوبية • فتوافدت جموع من لخم وجذام وغسان وغيرهم ، وعسكر الامبراطور البيزنطى فى مكان غير بعيد من القوات الاسلامية • وكتب خالد بن سعيد الى ابى بكر بأخبار تجمعات البيزنطيين وحلفائهم من المستعربة ، فأمره بالتقدم نحوهم مع توخى الحذر • وتقدم خالد بمن معه من المقاتلين ، ونزلوا على معسكر متنصرة العرب الذين تفرقوا تاركين معسكرهم مكشوفاً • وواصل خالد وقواته تقدمهم حتى أصبحوا على مقربة من تجمعات البيزنطيين • ودارت معركة انهزم فيها البيزنطيون ، ولأذ قائداهم بالفرار هو ومن تبقى من رجاله على قيد الحياة ، ووصلوا مدينة دمشق •

ولكن هذا النصر الذى حققه خالد بن سعيد اعقبته هزيمة قاسية على يد البيزنطيين • فعندما ارسل الى ابى بكر يشره بالنصر ويطلب منه ارسال المزيد من القوات ، استجاب لطلبه وبعث اليه بالمدد • فأسرع خالد وجيشه بالهجوم على البيزنطيين ، وشق طريقه الى مرج الصفر شرقى بحيرة طبرية • ولكن الجيش البيزنطى التف حوله ، وقطع عليه هو ومن معه خط الرجعة ، واعمل فيهم السيف • فلأذ خالد بن سعيد بالفرار الى ذى المروة بالقرب من المدينة تاركاً جيشه تحت رحمة

البيزنطيين وسيوفهم • ولكن الجيش الاسلامي تكمن من الانسحاب بعد كبير عناء ، حيث عسكر على مقربة من الشام • وكانت هذه الواقعة يوم الخميس ١٩ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢١ يوليو ٦٣٤ م) (٩٥) •

الجيش الاربعة التي اعدّها ابو بكر لفتح الشام :

وعندما علم ابو بكر بما حدث كتب اليه معنفا لهروبه من المعركة • ثم عزله وعين محله يزيد بن أبي سفيان قائدا على الجيش الذي بلغ تعدادہ حوالي سبعة آلاف مقاتل • وبذلك كان قائد أول جيش اسلامي يتجه الى الشام لفتحها • وخرج أبو بكر في صحبة يزيد وجنده لوداعهم ، كما فعل من قبل مع اسامة وجيشه • وزودهم — كعادته — بنصائحه في كيفية التعامل مع العدو • كما ارشدهم الى الطريق الذي يسلكونه لتحقيق الهدف دون الوقوع في كمائن العدو • وكان الطريق الذي سلكوه هو تبوك — البلقاء — دمشق • ولحق معاوية ومن معه بجيش اخيه يزيد ، تنفيذا لتعليمات الخليفة • وبعد ذلك ، وجه ابو بكر شرحبيل ابن حسنة بجيش بلغ تعدادہ سبعة آلاف مقاتل الى الاردن عبر طريق تبوك ، وذلك بعد ثلاثة أيام من مسير يزيد بن أبي سفيان •

ثم ارسل ابو بكر جيشا ثالثا قوامه سبعة آلاف جندي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح الى حمص ، وحدد له طريق الجابية ، وهو طريق الحج والتجارة الذي يربط المدينة بدمشق • أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمرو بن العاص ، وقوامه تسعة آلاف مقاتل ، ووجهة الخليفة الى العربية بأرض فلسطين ، وعين له طريق ايلة رأسا الى فلسطين (٩٦) • وزود قواته بنصائحه في الاغارة على العدو لاقلاقه ، وعدم التوغل في أرضه حتى لاينقض عليه العدو من الخلف • كما أمرهم بعدم قتل الاطفال والشيوخ والنساء • ويدل هذا على بعد نظر أبي بكر في وضع خطة الفتوحات وتكتيكاتها ، واسلوب مقاتلة العدو ، مما يبين استيعابه الواضح للفنون العسكرية ، فضلا عن تحليه بالجانب الانساني (٩٧) •

وفي تلك الاثناء استدعى ابو بكر قائده خالد بن الوليد من العراق،

وامره بالتوجه هو ونصف القوات التي تحت أمرته وعددها حوائى تسعة آلاف ، الى الشام • وجعل امارة الجيوش كلها في الشام اليه ، لحنكته وخبرته في فنون الحرب والقتال التي تكشفت اثناء انتصاراته على الفرس في العراق • وبدأ مسيرته في شهر ربيع الآخر ١٣ هـ (يونيو ٦٣٤ م) • وكان عليه اختيار طريق وعرة مقفرة جدباء حتى ينزل خلف الجيش البيزنطى ويتمكن من نجدة الجيش الاسلامى ، وحتى لا يقطع البيزنطيون الطريق بينه وبين بقية الجيوش الاسلامية (٩٨) • وبمساعدة دليل يسمى رافع بن عميرة الطائى ، تمكن خالد من اختراق تلك القفار مارا بعدة مواقع الى أن بلغ بصرى ثغر الشام الشرقى • وكان جانب من جند المسلمين قد سبقه اليها ، ومن بينهم شرحبيل وقواته • وبدأ المسلمون في ضرب الحصار حولها • وقد صمدت المدينة في البداية لقوة دفاعاتها وتحصيناتها ، ولصمود البيزنطيين ، ودفاع اهليها عنها • ولكنها اضطرت آخر الامر الى طلب الصلح حقنا للدماء ، فأجابهم خالد اليه مقابل دفع الجزية (٩٩) •

وقعة اجنادين (١٨ جمادى الاولى ١٣ هـ / ٢٠ يوليو ٦٣٤ م) :

واصل خالد بن الوليد وجيوشه سيرهم من بصرى الى العربية بفلسطين ، ومنها الى اجنادين ، تلك البلدة الواقعة بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين • وكانت قوات ضخمة من الجيش البيزنطى قد نزلت عليها بلغ عددها مائة الف مقاتل ، وتحصنت بداخلها • هذا ، بينما بلغت جيوش المسلمين حوالى عشرين الفا وقليل ثلاثين الفا • وقد يكون في اعداد الجيش بعض المبالغة ، !لا أنها تدل على كثافة قوات الفريقين في المعركة •

على أى حال ، قام خالد بتنظيم قواته ، واخذ يتنقل بينها موجهها اليها النصيح والمشورة ، مطالباً اياها بعدم التعجل في انهاء القتال ، هادفاً انهاك قوى العدو ، واطالة فترة القتال قدر الاستطاعة • وقد

نجحت الخطة ، واثمرت بالحق هزيمة شديدة بالجيش البيزنطى الذى ذهبت اعداد كبيرة منه بين قتيل واسير وجريح . أما من تبعوا على قيد الحياة بعد المعركة ، فقد ولوا هاربين الى القدس ودمشق وقيسارية للنجاة بأنفسهم . ووصلت اخبار الهزيمة الى الامبراطور البيزنطى ، وكان وقتها مقيما فى القدس يتابع المعركة ، فتركها الى حمص ليواصل منها القتال ضد المسلمين . وارسل خالد بن الوليد بالبشرى الى الخليفة ابى بكر ، وهو على فراش الموت . وقد استمرت موقعة اجنادين طوال يوم ١٨ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢٠ يوليو ٦٣٤ م) (١٠٠) .

فتح فحل (٢٨ ذى القعدة ١٣ هـ / ٢٣ يناير ٦٣٥ م) ومرج الصفر (المحرم ١٤ هـ / مارس ٦٣٥ م) :

تولى الخلافة بعد وفاة ابى بكر الصديق امير المؤمنين عمر بن الخطاب (١٣ — ٢٣ هـ / ٦٣٤ — ٦٤٤ م) ، وكان قد عقد العزم على اتمام فتوح الشام . وكانت أول خطوة أقدم عليها هى عزل خالد بن الوليد عن امارة جيوش الشام ، واحل محله ابا عبيدة من الجراح ليكون قائدا على الشام كله (١٠١) . وقد اختلفت آراء المؤرخين القدامى حول تحديد وقت عزل خالد ، وعما اذا كان ذلك اثناء مسير الجيوش الاسلامية الى دمشق ، ام اثناء حصارها لها ، ام بعد فتحها . كذلك ثار الخلاف بين اولئك المؤرخين حول اسباب تنحية عمر له ، وعما اذا كان ذلك لخشيته منه ، أم لسعيه فى تولى على بن ابى طالب بعد وفاة الرسول (ﷺ) ، ام لغير هذا وذاك من الاسباب (١٠٢) .

ومهما قيل فى هذا الشأن ، فقد سار أبو عبيدة وجنده حتى بلغوا مرج الصفر ، وهو موضع بين دمشق والجولان ، بينما تجمع الجيش البيزنطى فى منطقة فحل بأرض الاردن ، وهرقل آنذاك مقيم بحمص التى جعلها مركزا حربيا لجيوشه ، ومنها كان يبعث بالمدد الى أهل دمشق . وبعث أبو عبيدة الى الخليفة عمر يسأله بأيهما يبدأ : بدمشق

أم بفحل • وكان رد أمير المؤمنين يدل على المام بالخدع والتكتيكات الحربية ، اذ اشار على قائده بمناوئة العدو بقسم من الجيش ليشغله عنه ، بينما يتجه هو الى جهة أخرى بمعظم الجيش لفتحها •

وتنفيذا لتعليمات عمر بن الخطاب ، بعث ابو عبيدة بعشرة من قواده مع كل قائد الف جندى ، والقائد الاعلى لهم شرحبيل بن حسنة ، ووجههم الى فحل حيث تجمعت بها القوات البيزنطية • ودارت بين الجانبين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين ودخولهم فحل • هذا ، بينما لحقت بالبيزنطيين هزيمة قاسية ، وذهب الآلاف منهم بين قتيل وجريح ، واسرعت فلولهم الباقية بالهرب الى دمشق • وكان هذا النصر يوم الاثنين ٢٨ ذى القعدة ١٣ هـ (٢٣ يناير ٦٣٥ م) ، بعد حصار دام قرابة أربعة أشهر (١٠٣) •

ومن فحل واصل المسلمون طريقهم الى مرج الصفر التى بلغوها فى المحرم ١٤ هـ (مارس ٦٣٥ م) • وتمكنوا بعد قتال عنيف من فتحها ، وبذلك اصبح الطريق ممهدا أمامهم لفتح دمشق (١٠٤) •

فتح دمشق (١٥ رجب ١٤ هـ / ٤ سبتمبر ٦٣٥ م) :

كانت خطة ابى عبيدة بن الجراح ان يبعث الى دمشق بجيوشه لحصارها وتطويقها من كل جانب • فأرسل فرقة بقيادة ذى الكلاع الحميرى نزلت دمشق من جهة حمص لمنع المدد الذى كان هرقل يرسله اليها ، ولقطع الاتصال بينها وبين القيادة البيزنطية فى حمص ، وبذلك يسد عليها الطريق المؤدى الى فلسطين • كما بعث بفرقة ثانية بقيادة علقمة بن كليم لتطويق المدينة من الجهة الاخرى • أما الجيش الرئيسى بقيادة ابن عبيدة ومعه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، فقد نزل على دمشق من ثلاث جهات • وتم ضرب الحصار حولها ، الذى اختلف المؤرخون القدامى فى مدته • فمن قائل أنه سبعين يوما ، ويرى فريق

آخر أنه امتد أربعة أشهر ، بينما يرى فريق ثالث أنه استمر ستة أشهر • وبينما المدينة محاصرة ، كان هرقل يتابع الموقف من حمص • واشتد القتال بين الطرفين الذي راح ضحيته الآلاف من الجانبين • وقد اختلفت الآراء حول فتحها ، واما اذا كان ذلك عنوة ام صلحا • والسبب في ذلك ان خالد وبعض قواته اقتحموا باب الحصن عنوة ، بينما تم فتح بقية الابواب صلحا • وبعد التداول بين القادة المسلمين ، اتفق على اعتبار فتح دمشق صلحا • وكان ذلك في ١٥ رجب ١٤ هـ (٤ سبتمبر ٦٣٥ م) (١٠٥) •

فتح صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وتدمر وخوران وبيسان وطبرية :

بعد سقوط دمشق ادركت مدن الساحل الشامى والمدن الداخلية انها واقعة لا محالة في قبضة المسلمين • فتمكن يزيد بن ابي سفيان ومنعه جنده من فتح مدن الساحل وهى صيدا وعرقه وجبيل وبيروت • هذا ، بينما تمكن دحية بن خليفة الكلبي من فتح تدمر • وفتح ابو الزهراء القشيري خوران وما جاورها • وكان الصلح بين هذه البلاد وبين المسلمين على نفس شروط صلح دمشق (١٠٦) •

وواصلت الجيوش الاسلامية تقدمها وانتصاراتها • فوجه ابو عبيدة بن الجراح قسما من الجيش بقيادة شرحبيل بن حسنة وعمرو ابن العاص الى بيسان • وبعد قتال شديد تمكنا من فتحها صلحا على شروط دمشق ، وذلك بناء على طلب أهلها • أما ابو الاعور فقد نزل بجنوده على طبرية ، فطلب أهلها هم أيضا الصلح على نفس شروط دمشق • وبعث عمرو بن العاص بالبشرى الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وبذلك تم صلح الاردن (١٠٧) •

فتح لحمص وقنسرين :

خلف ابو عبيدة على دمشق يزيد بن ابي سفيان ، وعلى الاردن

شرحبيل بن حسنة ، وعلى فلسطين عمرو بن العاص . تم خرج بالجيوش قاصدا حمص . وعندما علم هرقل بذلك ، وجه حشودا هائلة من الجند المرتقة للدفاع عنها . ومحاولة منه لتشتيت جموع المسلمين ، اتجه جانب من قواته لمهاجمة دمشق . فبادر ابو عبيدة بارسال جيش بقيادة خالد بن الوليد للتصدي للقوات البيزنطية . وتمكن يزيد من داخل دمشق وخالد من خارجها من الاطباق على القوات البيزنطية والقضاء عليها . وقفل خالد عائدا بقواته الى ابي عبيدة .

واصل ابو عبيدة وخالد بالجيوش الاسلامية الطريق الى حمص التي بلغوها سنة ١٥ هـ (٦٣٦ — ٦٣٧ م) ، وضربوا الحصار حولها . وكان الوقت شتاء والبرودة شديدة ، فتحمل المسلمون قسوة الشتاء . وبعد انتهاء فصل الشتاء ، لجأ خالد بن الوليد الى حيلة مكرة ، وهي الانسحاب من امام اسوار المدينة والتظاهر بالهزيمة ، حتى يتعد البيزنطيون عن الاسوار وينزلوا من الحصن . حينئذ ينقض المسلمون عليهم ويلحقون بهم هزيمة شديدة . ووافق ابو عبيدة على الخطة ، ودار قتال عنيف بين الفريقين انتهى بهزيمة شديدة للقوات البيزنطية . فاضطرت المدينة الى طلب الصلح على شروط دمشق مع دفع الجزية . وزاد ابو عبيدة شرطا على أهلها هو عدم بناء كنائس جديدة لهم . وكتب ابو عبيدة الى الخليفة عمر بذلك ، فوافقه عليه (١٠٨) .

بعد ذلك ارسل ابو عبيدة وجنوده الى قنسرين على مقربة من حلب . فلما صاروا بالقرب منها دار قتال شديد بينهم وبين القوات البيزنطية انتهى بالقضاء على معظمها وقتل قائدها . هذا ، بينما تقدم خالد نحو قنسرين وأهلها متحصنون بداخلها . ولما ايقنوا انهم هالكون ، طلبوا الصلح على شروط حمص مع دفع الجزية . واشترط خالد عليهم تخريب حصنهم حتى لايتحصنوا بداخله مرة أخرى ضد المسلمين ، فقبلوا ذلك (١٠٩) .

فتح بعابك وحماء وشيزر واللاذقية وجبله وبانياس وانطرطوس :

بعد هذه الانتصارات الساحقة المتلاحقة التي احرزها الفاتحون المسلمون في الشام ، تأكد هرقل من ضياع ملكه في هذا الاقليم الحيوى من الامبراطورية ، وكان مقيما في انطاكية ومعه العرب المنتصرة . هذا ، بينما انهارت تماما قوى المقاتلين البيزنطيين ، وانهارات معنوياتهم في بقية البلدان التي كانت لاتزال بأيديهم ، وقد سقطت تباعا في ايدى ابى عبيدة وخالد . وعلى هذا تم فتح بعابك بعد أن طلب أهلها الصلح ووافقهم أبو عبيدة على ذلك مع تعهدهم بدفع الجزية . بعدها استسلمت حماه صلحا بعد تعهد أهلها بدفع الجزية والخراج . وهكذا فتحت شيزر من أعمال حمص ، ومعرة حمص ، واللاذقية من أعمال حلب ، وجبله وهى قلعة بساحل الشام من أعمال حمص ، ومعرة حمص ، واللاذقية من أعمال حلب أيضا ، وبانياس ، وانطرطوس . وتم ترتيب من يتولى أمر هذه المدن والمعاقل والحصون ومن يقوم بحراستها والدفاع عنها . ثم توجه أبو عبيدة بقواته المظفرة الى الجابية (١١٠) .

موقعة اليرموك (٦ رجب ١٥ هـ / ١٤ أغسطس ٦٣٦ م) :

تأتى بعد ذلك آخر واكبر المعارك اثناء حركة الفتوحات العربية الاولى ، وهى معركة اليرموك . كان هرقل في انطاكية آنذاك يراقب الموقف عن كثب ، ويعمىل على حشد الجند بكل الوسائل استعدادا للمعركة الفاصلة المرتقبة . وارسل بحشود منها الى المدن التي لم تسقط بعد في قبضة المسلمين ، وهى قيسارية وعكا وطبرية وبيت المقدس . كذلك انضم اليه جيش كبير من الارمن بقيادة باهان الارمنى ، وجعل قيادة الجيوش كلها اليه لكفأته وخبرته القتالية . كما جعل فى مقدمة الجيش بضعة آلاف من مستعربة الشام من الغساسنة ولخم وجذام ، حتى يكون العرب المسلمون وجها لوجه أمام عرب الشام المستعربين .

وعندما علم أبو عبيدة بأنباء استعدادات هرقل ، عقد مجلسا من كبار القادة للتشاور في الامور • ورأى خالد بن الوليد ترك الجابية القريبة من قيسارية ، والتوجه الى اليرموك التي تمتاز بأرضها الفسيحة الواسعة ، بحيث تسهل فوق ساحتها حرب الكر والفر التي يجيدها المسلمون ، وحتى يمكن لامير المؤمنين ارسال المدد اليهم تباعا • وتمت الموافقة على هذا الرأي ، واتخذت جيوش المسلمين طريقها الى اليرموك •

والحديث هنا يطول عن خطط الفريقين في القتال ، وكيفية تنظيم الجيوش وترتيب مواقعها ، والمعارك التي دارت بينهما التي ذهب ضحيتها الآلاف من كلا الطرفين ، والتي إفاضت المصادر في ذكر تفاصيلها • ولكن الجديد في المعركة ، ان النساء المسلمات شاركن فيها الى جانب الرجال مشاركة فعالة كان لها أثرها • ومما يذكر ان المعركة بدأت أول النهار في ٦ رجب ١٥ هـ (١٤ أغسطس ٦٣٦ م) ، وانتهت عندما ارخى الليل سدوله بهزيمة مروعة للبيزنطيين (١١) •

وجدير بالذكر أن المؤرخ الارمني سبيوسس ، المعاصر لتلك الاحداث ، زودنا برواية مفصلة لها دلالتها عن تلك المعركة الفاصلة التي قررت مصير الشام • يقول ان الجيش البيزنطي عبر نهر الاردن متسللا الى بلاد العرب ، تاركا معسكره مكشوبا على شاطئ النهر • وذهب أفرادہ للقاء العدو وهم مشاة • هذا ، بينما تربص جانب من الجيش الاسلامي في كمائن متفرقة استعدادا للانقضاض على البيزنطيين • وقد اقام المسلمون خيامهم حول معسكرهم ، ثم أحاطوا الخيام والمعسكر بالجمال بعد أن ربطوا أرجلها بالحبال • هذا ، عن تحصينات وتكتيكات المسلمين • أما البيزنطيون ، فقد كانت قواتهم منهوكة القوى بسبب سيرها لمسافات طويلة • وبالرغم من ذلك ، فقد انقضت على المسلمين • حينئذ انطلق المسلمون من كمائنهم ، وهاجموا القوات البيزنطية التي اصابها الهلع والاضطراب • وعندما ارادت الفرار للنجاة بنفسها ، فشلت بسبب غزارة الرمال ، لدرجة ان الجندي البيزنطي كان ينغرس

فيها حتى ركبتيه ، بينما المسلمون يطاردون فلول الفارين • يضاف الى ذلك ، ان البيزنطيين لم يتحملوا شمس الشرق المحرقة في مثل هذا الوقت من العام • وهكذا تساقطوا بين قتيل وجريح ، ولم يفلت من المذبحة سوى عدد قليل (١١٢) •

وتكشف رواية سبيوس ان المسلمين كانوا امهز من البيزنطيين في اعداد الحيل والخدع والتكتيكات الحربية ، وانهم كانوا اعلم من اعدائهم بدروب المنطقة ومسالكها ، واكثر تحملا لجوها الذي الفوه •

فتح حلب واعزاز وانطاكية ونابلس وسبسطيه والبد وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون وعكا وعسقلان وقيسارية •

بعد هذه الضربة القاصمة التي تلقاها الجند البيزنطيون في اليرموك ، واصل ابو عبيدة ، ورجاله تقدمهم حتى بلغوا حلب ، وكانت من اعمال قنشرين • وقد قاومت في بداية الامر ، ولكن اهله طلبوا من ابي عبيدة الصلح والامان ، فوافقهم على أن تكون شروط الصلح والجزية كشروط حمص • كما تمت الموافقة على تخريب حصن المدينة • ومن حلب اتجهت جيوش المسلمين الى انطاكية مركز تجمع الجيوش البيزنطية ، وحامية ظهر بيزنطة وعاصمتها في الشام • وفي الطريق اليها تم فتح اعزاز بدون قتال • وما ان بلغ المسلمون انطاكية حتى ضربوا الحصار حولها • وانتهى أمرها بطلب الصلح ، والاقرار بالجزية • ووافق ابو عبيدة على ذلك ، ودخلها المسلمون الفاتحون (١١٣) •

كانت السن تتقدم بهرقل ، والعلل تتسرب الى جسده ، والحسرة تملأ قلبه • وكان سقوط انطاكية بمثابة ضربة قاضية بالنسبة له • وكان وقتها مقيما في الرها ، فتركها متوجها الى عاصمة ملكة القسطنطينية ، وقد ادرك فعلا ضياع ملكه في الشام • وربما يكون قد عاد بذاكرته الى الوراء ، ليرى مظاهر التمزق الديني الذي عانت منه الشام الامرين ، وآثار حروبه مع الفرس التي اوصلت الدولة الى حالة الخراب

والافلاس المادى والبشرى • وربما يكون قد ادرك ، أيضا ، ان ما يحدث امام ناظريه كان أمرا متوقعا ، وان المسألة مسألة وقت فحسب •

ومهما يكن ، فقد رأى المسلمون — تأمينا للفتوحات الاسلامية فى الشام من الجبهة الشمالية — ان يمدوا فتوحاتهم لتشمل مدن الجزيرة • فتم فتح الكوفة صلحا فى منتصف شعبان ١٨ هـ (٢٠ أغسطس ٦٣٩ م) ، ومن بعدها الرها وحران وسميساط وبقية المدن مثل منبج وآمد وماردين • وقد طالبوا جميعا بشروط وتمت الموافقة على ذلك • وفى سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) واصل المسلمون فتوحاتهم فى بلاد ما بين النهرين • فتم فتح ميفارقين ، وكفر توثا ، ونصيبين ، واربزق ، ورأس العين ، ودارا ، ودرب الروم ، وبديس ، وخلاط • وتم فتحها جميعا صلحا (١١٤) •

كان طبيعى ان تصبح بيت المقدس مركزا لتجمعات القوات البيزنطية بعد ان فقدت بيزنطة معظم مواقعها فى الشام ، وان تصبح ملاذا للذين خرجوا من مدنهم التى فتحها المسلمون • هذا ، بينما كانت الجيوش الاسلامية ، تواصل فتوحاتها • فتم لعمر بن العاص فتح مدن فلسطين فى وقت قصير • اذ تم صلحا فتح نابلس ، وسبسطية ، واللد ، وعمواس ، وبيت جبرين ، ويافا ، ومرج عيون ، وعكا ، وعسقلان • واقرت جميعها بالجزية والخراج • وكان ذلك فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) (١١٥) • وذلك باستثناء كل من الرملة وغزة اللتين حاصرها علقمة بن مجزر • أما بالنسبة لقيسارية ، الواقعة بين عكا ويافا على ساحل البحر ، فقد توجه اليها معاوية بن أبى سفيان وجنوده ، وضربوا حولها الحصار ، واشتغل قتال غنيق أحرز المسلمون فيه النصر على البيزنطيين ، وتم لهم فتحها (١١٦) •

فتح بيت المقدس (ربيع الآخر ١٦ هـ / مايو ٦٣٧ م) :

لم يتبق بعد ذلك سوى مدينة بيت المقدس • اذ ضرب عمرو بن العاص ورجاله الحصار حولها الذي استمر أربعة شهور لم ينقطع خلالها القتال الذي استخدم فيه البيزنطيون النشاب والمنجنقيات • وقد منى المسلمون بخسائر فادحة ، وزاد من متاعبهم شدة البرد ، فقد كان الوقت شتاء • وحاول القائد البيزنطي اطالة امد القتال لانهاك المسلمين والحاق الهزيمة بهم ، أو على احسن الفروض لاجبارهم على فك الحصار عن المدينة • وعندما طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر المدد ، ارسل الى ابي عبيدة بن الجراح ليكون مددا له • فتوجه بجيشه من الجابية الى البيت المقدس • وبدأت الروح المعنوية لجيش المسلمين في الارتفاع ، بينما تسلك الخوف الى قلوب أهل بيت المقدس • ووجدوا ان الاسلام هو تسليم المدينة وطلب الصلح على نفس الشروط التي عقد بها على اهالى المدن الاخرى التي فتحها المسلمون • ولكنهم خافوا تسليم المدينة الى عمرو بن العاص خشية الانتقام منهم للاضرار الشديدة التي الحقوها بالمسلمين • وطلبوا بتسليمها الى الخليفة عمر ابن الخطاب نفسه ، وان يتولى هو عقد الصلح معهم • وبينما الاتصالات جارية وصل أبو عبيدة الى بيت المقدس سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) ، فطلبوا منه ان يصالحهم بشروط أهل دمشق ، وان يكون الخليفة هو الذي يتسلم المدينة ويعقد معهم الصلح • فكرب أبو عبيدة وعمرو بن العاص الى عمر بذلك •

كان عمر آنذاك بالمدينة ، فاستخلف عليها على بن ابي طالب ، وخرج قاصدا الجابية احدى قرى حوران • وطلب من امراء الاجناد ان يوافوه في الجابية بعد أن يستخلفوا على أعمالهم من ينوبون عنهم في فترة تخيبيهم • وفي الجابية بدأت مشاورات الخليفة مع امراء جيوشه • وفي تلك الاثناء وصلت وفود أهل بيت المقدس طالبة الامان والصلح على

يديه • فوافقهم وكتب لهم عهدا بذلك في ربيع الآخر ١٦ هـ (مايو ٦٣٧ م) (١١٧) • ووصل الخليفة عمر ومعه المسلمون مدينة بيت المقدس حيث أقام بها بعض الوقت ، ثم قفل عائدا الى الجابية لاستكمال مشاوراته مع امراء الجيوش في مختلف شئون المسلمين ، وما يتعلق بنظم الدولة الاسلامية التي برزت على مسرح الاحداث ، والتي اتسعت رقعتها اتساعا هائلا في عهده •

ويلخص جيفوند ذلك كله بقوله انه بعد فتح بيت المقدس اصبح المسلمون سادة على فلسطين وبلاد الشام (١١٨) • بينما يعلق احد المؤرخين الغربيين على تلك الاحداث بقوله بأن الاقاليم الشرقية للدولة البيزنطية ، وعلى رأسها الشام وفلسطين ، استسلمت للفاحين بسهولة تدعو الى السخرية (١١٩) •

لاشك ان سقوط بيت المقدس يعتبر من الاحداث الفاصلة في الحرب بين المسلمين والبيزنطيين • وكان الامبراطور هرقل في ذلك الحين قد جاوز الستين من عمره ، وبدأت صحته في التدهور ، واشتد عليه المرض الذي اضطره الى الاقامة في عاصمته ، بينما أوفد ابنه الاكبر قسطنطين الثالث (٦٤١ م) الى ميدان القتال لاسترداد شمال الشام • لكنه لقي هزيمة شديدة سنة ٦٣٨ م (١٧ هـ) • وهكذا انتهت حركة الفتوح في دورها الاول بانقراض الشام وفلسطين كلها من ايدي البيزنطيين •

وتمثل موقعة اليرموك وفتح بيت المقدس اقصى اتساع للفتوح الاسلامية المبكرة • اذ لاحقت المشاكل الداخلية الدولة الاسلامية الناشئة في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ / ٦٤٤ — ٦٥٦ م) ، وتفاقمت بعد مقتله بسبب الفتنة الكبرى التي أدت الى قيام حرب أهلية بين المسلمين زمن رابع الخلفاء الراشدين على بن ابي طالب (٣٥ — ٤٠ هـ / ٦٥٦ — ٦٦١ م) ، ونتج عن ذلك توقف وقتي للفتوح • وقد

خرج من هذا الصراع منتصرا القائد السياسى المحنك معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الاموية التى استعاد المجتمع الاسلامى فى عهدها استقراره الداخلى ، واستأنفت الجيوش الاسلامية فى ظل هذا الاستقرار فتوحاتها المظفرة •

الخلاصة المستفادة من الصراع الاسلامى البيزنطى فى الشام :

لعلنا نخلص من كل ماتقدم ان قوة جديدة ظهرت خلال العقود الاولى من القرن السابع الميلادى (السنوات الاولى من القرن الاول الهجرى) ، لتؤدى دورها على مسرح الاحداث ، هى الدولة العربية الاسلامية الفتية الناشئة ، التى احرزت انتصارات سريعة مذهلة فى سنوات قلائل ، على حساب جارتها الدولة البيزنطية التى كانت تعاني وقتها من عوامل الضعف والانحلال ، بينما كان الغرب الجرمانى يعيش فى عصر الظلام •

وما يستلفت النظر ان الدولة البيزنطية ، بتراتها العتيد ، وارثها الذى ورثته عن الامبراطورية الرومانية القديمة ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن اقليم الشام ، وصد الجيوش الاسلامية المجاربة • لقد كانت القوات البيزنطية من الجند المرتزقة ، على الرغم من كثرة عددها، ضعيفة منهوكة القوى ، ليس هناك مبدأ أو هدف يجمع بينها • بينما قام المسلمون بفتوحاتهم قومة رجل واحد ، نشرا للاسلام وتأمينا له • كما لمعت بين حكامهم وقادتهم اسماء لرجال شجعان محاربين على معرفة تامة بفنون الحرب واساليب القتال • والنماذج عديدة نسوق بعضها على سبيل المثال • نضرب مثلا بموقف الخليفة ابى بكر عندما اصر على انفاذ حملة اسامة عقب توليه الخلافة ، وهى التى كانت قد توقفت بعد وفاة رسول الله (ﷺ) • وكان هدفه ان يعلن للبيزنطيين والمستعربة ان الفتوح لن تتوقف ، والا يستينها بقوة الدولة الاسلامية الناشئة • وهذا دليل على ما كان يتمتع به أول الخلفاء الراشدين من اجادة لفن

المناورة السياسية والحربية • ثم ان اصراره على مواصلة فتوحات الشام يدل على أن تلك الفتوحات — حسبما اسلفنا — لم تكن عفوية أو مصادفة ، انما أعدت ونفذت وتمت نتيجة خطط مرسومة وتدابير محكمة • اذ كان أبو بكر ، ومن بعده عمر بن الخطاب ، يدعوان — كلما دعت الضرورة — الى عقد مجلس شورى من كبار رجال الصحابة والقادة للبحث والمناقشة في أمر « جهاد الروم بأرض الشام » • وقد يدور النقاش حول خطة للاستيلاء على مدينة ما ، أو الطريق الذى تسلكه الجيوش الاسلامية للوصول الى هدف مرسوم ، أو عقد صلح ، أو كيفية تنظيم القوات في معركة ما ضد العدو • ولذلك كانوا يصلون دائما الى رأى الاصب والافضل • ويعزز هذا سير مجرى الاحداث منذ العهد النبوى •

واذا امعنا النظر في النصائح التى كان يوجهها أبو بكر الى امرائه وجيوشه قبل ذهابهم لقتال البيزنطيين ، سوف نجد أنها تتضمن العديد من التعليمات والتوجيهات التى يمكن اعتبارها نواة أولى للنظم والقوانين التى استتت فيما بعد كى تتعامل بموجبها الجيوش المتحاربة • والى جانب ذلك امتاز ببعد نظره ، وثاقب بصيرته ، واجادته لفن التكتيك الحربى • مثال ذلك عندما ارسل أربعة جيوش لفتح الشام ، خرجت من المدينة فى طرق متباعدة حددتها هو لهم ، لتكون بمثابة رؤوس حراب تحيط بالعدو وتطوقه من كل جانب • وقد اثمرت هذه الخطة وحقت النتيجة المرجوة منها •

يضاف الى ماتقدم بروز قادة محنكين اثناء فتوحات الشام ، منهم — على سبيل المثال — خالد بن الوليد وعمر بن العاص • ولهما مواقف عديدة تكشف عن عبقرية قتالية فذة • آية ذلك عندما طالب خالد بن الوليد قواته اثناء موقعة اجنادين باطالة مدة القتال مع البيزنطيين لانهاك قواهم حتى يسهل الانقضاض عليهم والحاق الهزيمة بهم • كذلك

اجاد المسلمون الاول فن التكتيك والاستراتيجية العسكرية • يكشف عن ذلك موقف للخليفة عمر بن الخطاب • ذلك أنه اثناء فتوح الشام بلغ أبو عبيدة بن الجراح وجيشه مرج الصفر ، بينما كانت القوات البيزنطية وقتها متمركزة في فحل ، والامبراطور هرقل مقيما بحمص يتابع سير المعركة • وعندما طلب قائد الجيش الاسلامي رأى أمير المؤمنين ، كان رده واضحا وهو مناوشة العدو بجزء من الجيش لشغله عنه ، بينما يتم الهجوم بمعظم الجيش على جهة أخرى • كذلك كان من استراتيجية عمر بن الخطاب شغل البيزنطيين في عدة جبهات في آن واحد ، بتوجيه جيوشه الى بعض المدن التي كانت لاتزال في قبضتهم ، وبذلك يحول بينهم وبين نجدة الهدف الذي يستعد المسلمون لفتحه • حدث هذا بعد فتح المسلمين لحب واعزاز وانطاكية عندما طلب أمير المؤمنين توجيه بعض الجيوش الاسلامية الى الرملة وغزة وقيسارية وكانت لاتزال تحت الحكم البيزنطي ، ليشغل بيزنطة عن نجدة مدينة بيت المقدس التي كان يستعد لفتحها •

يضاف الى ماتقدم ، اجادة المسلمين لحرب الكر والفر ، واستخدام عنصر المفاجأة في الحرب ، وخفة الحركة ، الى جانب قوة الاحتمال • وهذه وغيرها أمور لايمكن اغفالها عند تقييم الصراع الاسلامي البيزنطي في الشام في هذه الفترة المبكرة ، في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصر الوسيط ، وهو ما سنتناوله بالدراسة والتحليل في العنصر الثالث والآخر من هذا البحث •

الصراع الاسلامي البيزنطي في الشام وتخومه في صدر الاسلام في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى

بعد ان استعرضنا الغزوات والسرايا والبعوث الموجهة الى اعالي الشام في العهد النبوي وما تكشف عنها من دلالات ، والاحتكاك العسكري المباشر بين المسلمين والبيزنطيين في الشام زمن الخلفاء

الراشدين حتى موقعة اليرموك وفتح بيت المقدس وما تمخض عنه من نتائج — يأتى دور تحديد مكان هذا الاحتكاك فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى .

من المعروف — بداءة — ان التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث المترابطة المتماسكة ، التى لا يمكن تفتيتها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها ، وان أى تقسيم لها يعتبر تفتيتا لاحداث التاريخ . ومن المعروف ، أيضا ، ان كل حلقة منها عبارة عن فترة تغير وانتقال من السابق الى اللاحق . ومن المعروف ، كذلك ، أنه فى غمرة هذا الانسياب لاحداث التاريخ ، قام الصراع العنيف بين شقى العالم خلال عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث ، بل وفى عصر ما قبل التاريخ ، وهو ، دائما ، صراع بين قوتين كبيرتين وحضارتين مختلفتين ، كل منهما تحاول أن تقرض نفسها على الاخرى . فاذا تعادلت القوتان ، سياسيا وحضاريا ، كان هذا يعنى اعتدال ميزان القوى فى الصراع بينهما ، بحيث لا يمكن لاي منهما أن تحرز تفوقا أو نصرا حاسما على الاخرى . بل تقفان وجها لوجه فى فترة تربص واستطلاع وحبس بنض . وهذا ما نسميه باعتدال كفتى الميزان فى الصراع بينهما . ويستمر الوضع على هذا الحال الى أن يتغير توازن القوى ، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بتغير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لدى كل منهما . فاذا رجحت احدى القوتين على الاخرى ، بادت — عادة — باتخاذ سياسة الهجوم وتوجيه الضربة الاولى ، بينما تلتزم الاخرى بسياسة الدفاع عن نفسها وعن كيانها بوجه عام . وعادة مايحرز الاقوى النصر على الاضعف . والعكس صحيح ، اذا ما تفوقت القوة الثانية على الاولى ، تبادر باتخاذ سياسة الهجوم ، ويميل مركز الثقل الى جانبها ، بينما تلتزم الاخرى بسياسة الدفاع ، ويرتبط هذا التغير فى توازن القوى صعودا وهبوطا — الى حد بعيد — بالاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فى وقت ما فى

كلا العالمين كما ذكرنا • ثم ان موازين القوى ومراكز الثقل هذه ترتبط هى الاخرى ، ببعض المفاهيم الهامة ، وفى مقدمتها الافعال وردود الافعال ، والأسباب والمسببات ، والنتائج والخواتيم • بمعنى ان لكل فعل رد فعل ، ولكل نتيجة سبب • فاذا بدأ الاقوى بتوجيه الضربة الاولى التى يتقبلها الاضعف مستسلما ، فان هذا الاخير ينتهز الفرصة المواتية التى تتيح له اعادة التوازن ورجحان كفته ليوجه الضربة المضادة الى خصمه ، وهكذا •

من هذا المفهوم ، بدأ الصراع منذ أقدم العصور بحروب طرواده التى خلدها الشاعر هوميروس فى اشعاره المعروفة باسم « الالياذة والاولديسية » • ثم قامت الحروب الميديّة بين الفرس والاغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، التى انتهت بسيادة الاسكندر المقدونى على أكثر بقاع العالم وقتذاك ، وما استتبع ذلك من فرض الحضارة الهيلينية عليها بعد قضائه على دولة الفرس التى اصبحت عاصمتهم المدائن احدى الولايات الداخلة فى نطاق الامبراطورية الجديدة • واعقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الاحداث ، وتوسعهم فى الشرق ، وانتزاعهم السلطة من الاغريق بعد معارك عنيفة حملت روما بعدها لواء الكفاح فى الغرب ، وورثت الاغريق سلطانهم ونظمهم وحضارتهم • وتظل روما عاصمة لدولة شامخة حتى اخريات القرن الخامس الميلادى عندما نزل الجرمان البرابرة فى جوفها ، وقضوا عليها وعلى معالمها ، بعد ان انهكتها الازمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، واقاموا على انقاضها دولا جديدة ذات أنظمة وحضارة جديدة مغايرة •

وهنا يطوى التاريخ احدى صفحاته ، لينبدأ عصر جديد هو العصر الوسيط • ففى اوائل القرن الرابع الميلادى اعترف الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير (٣٠٥ - ٣٣٧م) بالديانة المسيحية التى اصبحت الدين الرسمى للدولة الرومانية ، وبخاصة فى القسم الشرقى منها الذى عرف باسم الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية أو

دولة الروم كما كان يسميها المؤرخون العرب في مصادرهم ، وعرف أهلها باسم الروم . واخذ الصراع منذ ذلك الحين يصطبغ بالصبغة الدينية . فقامت الحروب بين بلاد فارس والدولة البيزنطية ، في وقت استعادت فيها الاولى قوتها وشهدت نهضة دينية كبيرة ارتبطت بالديانة الزرادشتية ، بينما كانت الثانية تدين بالمسيحية . وكان من اثر ذلك استيلاء خسرو ملك الفرس على بيت المقدس والصليب الذي يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه . وكان رد الفعل هو تلك الحروب المضادة التي قام بها الامبراطور البيزنطى هرقل التي انتهت سنة ٦٢٨م باسترداد البيت المقدس وصليب الصلبوت من قبضة الفرس . وكانت نتيجة هذا الصراع الطويل المرير هي خروج المنتصر والمهزوم متهاكين .

وفي بدايات القرن السابع الميلادى ، بينما كان الصراع بين البيزنطيين والفرس على اشده ، ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، وبدأت الغزوات والسرايا عند تخوم الشام في عهد النبى (ﷺ) ، واعقبته حركة الفتوحات الاسلامية الكبرى في دورها الاول زمن الخلفاء الراشدين ، والتي اسفرت عن فقدان الدولة البيزنطية لممتلكاتها في بلاد الشام ، ودخول هذه الممتلكات في اطار الدولة العربية الفتية التي أخذت تتكون آنذاك .

ومنذ ذلك الحين ، أى منذ ظهور الاسلام في أوائل القرن السابع الميلادى (القرن الاول الهجرى) ، وحتى نهاية العصور الوسطى في اواخر القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى) ، كان الصراع سجالا بين المسلمين والمسيحيين . تسعمائة عام من الصراع الممتد المتصل ، الدامى في معظم الاحيان والهادىء في بعض الاحايين ، بين هاتين القوتين الكبريتين ، تبادلنا فيها النصر والهزيمة ، وفقا لمقتضيات الظروف والاحوال في كلا العالمين الاسلامى والمسيحى (١٢١) .

ويعتبر الصراع الاسلامى البيزنطى في صدر الاسلام ، والذي

كان مسرحه بلاد الشام وتخومها ، مرحلة هامة ودورا اساسيا ، من مراحل وادوار الصراع الاسلامى المسيحى ، وان بدا فى كل مرحلة فى ثوب مغاير ، وان اتخذ شكلا معيننا يتناسب والظروف الموضوعية القائمة وقتها . فهذا الصراع — باختصار — بمثابة حلقات متتابعة فى سلسلة واحدة ممتدة عبر مئات من السنين ، والاقوى فيه يوجه الضربة المؤثرة الى الاضعف ، محاولا احتواءه وفرض سيطرته وحضارته عليه .

واذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص ووضعنا المفاهيم السابقة موضع التطبيق العملى ، نقول انه بظهور الاسلام وبداية حركة الفتوحات ، ظهرت قوة جديدة على مسرح الاحداث ترتبط بالدين الجديد . وكانت توجد وقتذاك قوتان اخريان ، الغرب الجرمانى الذى قام على انقاض الامبراطورية الرومانية القديمة فى غرب اوروبا ، والدولة البيزنطية أو دولة الروم التى قامت على انقاضها فى شرق اوروبا . هذا ، بينما كانت دولة الفرس قد انتهت أمرها على أيدي المسلمين .

أما غرب اوروبا فكان يمر وقتذاك فيما عرف اصطلاحا بفترة العصور المظلمة أو العصور الوسطى المبكرة . كان مسرحا لغزوات الجرمان البرابرة الذين تمكنوا من القضاء على الدولة الرومانية ، التى كانت قد انهكتها الازمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية والعسكرية ، وعلى نظمها وحضارتها ليقيموا على انقاضها دولا وممالك جديدة مغايرة . حدث هذا فى وقت انتصرت فيه الديانة المسيحية على الوثنية وعبادة الاباطرة بعد صراع دام عنيف . وكان هذا يعنى ، بكلمة مختصرة ، نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وحضارته وتقاليده . لقد انهار ذلك الصرح الشامخ فى السياسة والدين والاجتماع ، والاقتصاد والفلسفة والقانون والفكر الذى كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحل محله أمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها . وترتب على ذلك

ان وجدت في الغرب حالة واضحة من الفوضى والاضطراب في شتى
مناحي الحياة ومختلف أفرع المعرفة الانسانية خلال القرون الاولى من
العصر الوسيط ، حتى ان كثيرا من المؤرخين الغربيين الحديثين
المشتغلين في هذا الميدان نظروا اليها على أنها فترة جمود وبرودة ، ليس
فيها أى خير للبشرية ، وليس فيها من نور العلم والمعرفة شئ يذكر .
وعاش الفرد في الغرب اسير هذه الظروف ، داخل هذه الدائرة الضيقة
المحدودة للامور في نطاق المسيحية وفلسفتها وتعاليم الكنيسة اللاتينية
وقيودها . وشغل حياته بالكفاح من أجل كسب القوت اليومي فحسب ،
وكفاه في ذلك الكفاف من العيش (١٣) .

هكذا عانى الغرب وقت ظهور الاسلام واثناء حركة الفتوحات من
حالة الفوضى السياسية والقحط الحضارى ، بحيث لم يكن بوسعها بالمرّة
مواجهة الاسلام أو حتى التصدى له . لقد وقف بلا حراك أمام هذه
الاحداث الجسام التي كانت الجزيرة العربية مسرحا لها ، لا حول له
ولا طول ، ولا يحرك ساكنا . ولذلك لم يكن لسه أى دور في المواجهة
الساخنة التي تمت بين المسلمين والبيزنطيين في الشام اثناء الدواول
من حركة الفتوحات الاسلامية . وسكتت مصادره — بالتالى — عن
الاشارة الى هذه الاحداث .

أما القوة الثانية التي قدر لها مواجهة حركة الفتوحات ، فهي
الدولة البيزنطية وريثة الدولة الرومانية القديمة ونظمها وحضارتها ،
وعاصمتها القسطنطينية عند التقاء البسفور ببحر مرمره ، التي اعتبرت
بمثابة « روما ثانية » أو « روما جديدة » بعد انهيار روما الغرب تحت
جحافل الجرمان . وقد أوضحنا في مستهل هذه الدراسة انها كانت تمر
خلال الحقبة الاخيرة من القرن السادس وبدايات القرن السابع الميلادى
بحالة من الفوضى والاضطراب في كافة النواحي والمجالات ، بحيث
وقفت — هي الاخرى — عاجزة أو شبه عاجزة أمام تطور الاحداث .

ومع ذلك ، لا خلاف أن هذه الدولة التى قدر لها أن تعمر ألف عام أو يزيد ، والتى تميزت بدستورها المحكم ، ونظامها الإدارى المتين ، مع وجود قواعد ثابتة للوراثة والوصاية فى الكرسى الامبراطورى ، والتى اشتهرت بقوة معظم اباطرتها ودهائهم وطموحهم ، وبسياسة الاقتصاد النقدى التى سارت عليها والتى جعلت خزينة الامبراطور التى هى خزينة الدولة عامرة دائماً بالمال الذى كان ينفق منه على مختلف اجهزة الدولة مما هيا لها الاستقرار — هذه الدولة بكل امكاناتها كان قد انتابها الاعياء والشلل قبيل ظهور الاسلام وعند ظهوره وانتشاره ، ليس فقط بسبب حروبها الطويلة مع الفرس ومع العناصر المتبربرة شمال الدانوب وفى البلقان ، منذ قيامها زمن قسطنطين الكبير وفى عهد كل من جستنيان وهرقل بوجه خاص ، بل أيضاً بسبب ما ترتب على هذه الحروب من آثار مدمرة اصابتها فى الصميم .

فاذا تناولنا الجانب العسكرى ، نجد أن الدولة البيزنطية استنخدمت فى جيشها عناصر مختلفة من الجند المرتقة ، من اجناس وميول مختلفة ، ضمنا لعدم توحيد كلمة الجيش المتشعب فى الاصل والاتجاه واللغة والجنس والعادات والتقاليد تحت أمرة رجل واحد ، فلا يمكن جمع كلمتهم وتوجيهها ضد الامبراطورية . وكان هذا الجيش يقوم بمهامه خير قيام اثناء قوة الدولة وعظمتها . ولكن بسبب حروب جستنيان ضد العناصر الجرمانية فى الغرب والشمال الافريقى وضد الفرس فى الشرق ، واستمرار الحرب ضد الفرس زمن هرقل ، وضد الآفار والسلاف فى البلقان ، قل عدد الجند بشكل ملموس وقت ظهور الاسلام ، وانتشاره خارج شبه الجزيرة ، ونضبت الجهات التى كانت تمون الدولة بأكفأ رجالها وقاداتها . وفضلا عن ذلك ، فان هذا الجيش المتهالك المرتق لم يعد بحكم تكوينه وما آل اليه ، الدفء عن املاك الدولة التى اخذت هى الاخرى تقتصد فى نفقاته بسبب ظروفها المالية السيئة بعد حروبها فى أكثر من جبهة (١٢٣) . يضاف الى ما تقدم أنه

وجدت عناصر عديدة معارضة داخل الجيش نفسه كانت تشجع الدسائس لمصلحتها الخاصة على حساب السلطة الحاكمة ، مما أسهم في اضعاف قدرة هذا الجيش أكثر وأكثر (١٢٤) •

وفضلا عن ذلك ، وقع البيزنطيون اثناء الصراع الاسلامى البيزنطى فى الشام فى أخطاء استراتيجية جسيمة • كما كان للعوامل الطبيعية والجغرافية والطبوغرافية اثرها فى هزيمتهم أمام القوات الاسلامية • وفى هذا يقول جيفوند فى معرض حديثه عن معركة اليرموك ان البيزنطيين ارتكبوا خطأ فاحشا عندما تركوا خيولهم وامتعنتهم داخل معسكرهم وابتعدوا عنه • ثم انهم كانوا يقاتلون المسلمين وهم مشاة تحت وطأة اسلختهم الثقيلة فى أرض وعرة غزيرة الزمالة ، وفى جو شديد الحرارة • وكانت النتيجة ان دب الخل والاضطراب فى صفوفهم ، ولقوا الهزائم المريعة على أيدي الجيوش الاسلامية (١٢٥) • وهكذا تلقى الجيش البيزنطى الضربات تباعا اثناء فتوحات الشام ، ولم يكن باستطاعته الصمود امام القوات الاسلامية التى كانت أقل عددا ولكنها أكثر تنظيما واعدادا ، وتدافع عن عقيدة راسخة تؤمن بها • وتعزيزا لذلك يقول ريتشارد ساليبان ان أولئك العرب نشأوا فى أول الامر كمحاربين غير نظاميين فى الصحراء • ولكنهم سرعان ما تطوروا الى مجتمع قوى منظم يؤلف بين رجاله الدين الاسلامى بمبادئه الواضحة ومفاهيمه الاخلاقية (١٢٦) • وترتب على ذلك اختلال فى التوازن العسكرى بين القوتين المتحاربتين • وكان هذا الوضع فى صالح الجانب الاسلامى •

وقد واكب هذا الانهيار الذى حل بالعسكرية البيزنطية آنذاك على ايدى القوات الاسلامية ، هزائم فى الحروب التى خاضتها قبل احتكاكها المباشر بالمسلمين فى الشام • وبدا كما لو ان نجم الامبراطورية قد اخذ فى الافول • واضطرت الدولة لمواجهة مشاكلها المالية المتفاقمة

الى فرض المزيد من الضرائب على ولاياتها ، وخصوصا بلاد الشام ، الامر الذى أدى الى تصاعد استياء اهالى هذه البلاد ، وانتهازهم أية فرصة سانحة للتخلص من نير الحكم البيزنطى . وقد وانتهم تلك الفرصة أثناء حركة الفتوح الاسلامية فى الشام (١٢٧) .

واذا اصفنا الى ماتقدم الجانب الدينى ، سوف نجد أن ولاية الشام البيزنطية كانت — كما اسلفنا — تعاني الامرين من الخلافات المذهبية بين الملكانيين أصحاب الطبيعتين واليعاقبة أو المونوفيزيين أصحاب الطبيعة الواحدة للمسيح . وقد ادت محاولة هرقل لتوحيد المذاهب المسيحية الى عكس ما أراد . اذ كانت ولاية الشام تغطى ضد بيزنطة . وحسنت الامر تلك الحروب الاسلامية البيزنطية التى كانت الشام مسرحها ، والتى انتهت بفقدان الامبراطورية لها الى غير رجعة (١٢٨) . لقد رحب اهالى الشام بالفاحين المسلمين الذين وجدوا فيهم مخلصين لهم من هذا النير الدينى الذى فرضته عليهم بيزنطة (١٢٩) . يؤكد ذلك ما ذكره جيفونند من ان أهل الشام طلبوا من المسلمين الاسراع بمساعدتهم وتخليصهم من الاضطهاد الدينى الذى مارسه بيزنطة قبلهم . وكان هذا من بين العوامل التى يسرت عملية الفتح (١٣٠) . لقد كانت هذه نقطة ضعف أخرى عانت منها بيزنطة أثناء فتوحات الشام ، ساعدت على رجحان الكفة الاسلامية فى أول صراع بين الطرفين .

وثمة مسألة أخرى ترتبط بسابقتها ، وهى اختلاف المسيحية الاولى عن الاسلام فيما يتعلق بنظرة كل من المسيحية الى فكرة الحرب المقدسة والاسلام الى فكر الجهاد . لقد كانت تعاليم الدين المسيحى تنادى بالسلام وعدم الاقتتال وازهاق الارواح باعتبارها من الامور التى يجرمها الله . وكان هذا رد فعل طبيعى للديانة الوثنية التى تميزت بالعنف والقسوة والوحشية . وظلت الكنيسة البيزنطية متمسكة

بهذا المبدأ ، وهو ان الحرب أمر يتنافى والتعاليم التى نادى بها المسيح ، ولذلك لم تبارك حروب هرقل ضد المسلمين • أما بالنسبة للاسلام ، فقد حث القرآن الكريم المسلمين على الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه • فالجهاد فى الاسلام مبدأ وعقيدة ، وضرورة سياسية وحربية استلزمته الظروف التى صاحبت نشر الاسلام وتأمينه • ومن هنا كانت تلك الحماسة المنقطعة النظير التى تجلت اثناء حركة الفتوحات فى الشام ، والتى يقابلها تقاعس اهالى الشام المستاعين من الحكم البيزنطى ، وعدم مساندتهم للجيش الامبراطورى ، وسلبية الكنيسة البيزنطية (١٣١) •

ومما يشد الانتباه ان سبيوس ، وهو المؤرخ الارمىنى المعاصر للفتوحات الاسلامية المبكرة ، ركز فى مؤلفه على أهمية الجهاد فى الاسلام (١٣٢) • بينما اعترف جيفوند الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) بأن الحماسة الدينية التى بثها رسول الله (ﷺ) ، ومن بعده الصحابة ، فى نفوس الجيوش الاسلامية المقاتلة ، وحثها على الجهاد فى سبيل الله للفوز بفردوس النعيم ، وما جاء فى كتاب الله من ان الاسلام هو دين العالمين ، وان رسالته يجب ان تبلغ لكافة البشر — اعترف جيفوند ان الايمان بالله ورسوله دفع المقاتل المسلم للاستشهاد فى سبيل نشر هذا الدين خارج الجزيرة العربية والدفاع عنه • ومن هنا كان الجندى المسلم اشد حماسة وايماناً فى خوض غمار الحرب من الجندى البيزنطى (١٣٣) •

لقد حول الاسلام القبائل العربية الهائمة على وجهها والمتشاحنة فيما بينها فى شبه جزيرة العرب ، الى قوة عالمية هائلة تصدت لواحدة من اعظم امبراطوريات العالم وقتها ، وهى الدولة البيزنطية ، والحققت بها الهزيمة تلو الاخرى فى واحدة من أهم واخصب ولاياتها فى الشرق وهى بلاد الشام • ولاشك ان الفاتحين الجدد كان يدفعهم الاسلام

باعتباره قاعدة خلاقة أدت الى مولد حضارة جديدة ديناميكية مبدعة ،
قدر لها ان تترك آثارها على تاريخ حوض البحر المتوسط بخاصة ، وعلى
العالم المعروف وقتها بصفة عامة (١٣٤) •

وفي تقييم ساليغان لفتوح الشام وما تمخضت عنه يقول انها
تروى قصة النجاح الساحق المذهل الذى حققه شعب كان منذ فترة غير
بعيدة ضعيفا مفككا ، ولكنه تحول بسرعة بفضل الدين الجديد الى قوة
جبارة • ويستطرد مبينا ان العالم لم يشهد ابدا منذ اقدم العصور مثل
هذه الدولة الشاسعة المترامية الاطراف التى أخذت تتكون مع بدايات
القرن السابع الميلادى ، وتحددت معالمها فى أواسط القرن الثامن ، حتى
أنه لم يكن باستطاعة احد ان يجادل فى أمر ظهور قوة عالمية كبرى
قادرة ليس فقط على ترك بصماتها على حوض البحر المتوسط ، بل
على تغيير مجرى التاريخ البشرى (١٣٥) •

كان طبيعيا ، اذن ، بعد ان ظهر الاسلام كقوة جديدة على مسرح
الاجداث ، وفي ضوء الاعتبارات سالفة الذكر ، ان يميل مركز القوة الى
جانبه فى أول صراع له ضد الدولة الرومانية الشرقية اثناء فتوح
الشام • واستمرت لكفة الاسلام هى الراجحة فى صراعه ضد اوروبا
المسيحية بشقيها الشرقى والغربى طوال القرون السابع والثامن
والتاسع وبدايات القرن العاشر الميلادى (القرون الاول والثانى
والثالث وبدايات القرن الرابع الهجرى) ، تكونت خلالها الدولة العربية
الاسلامية فتية مترامية الاطراف من المحيط الى الخليج ، بينما كان
العالم المسيحى يعانى من الفوضى والتدهور والاضطراب • كما أصبح
البحر المتوسط بحيرة اسلامية بعد ان كان بحرا رومانيا حسبما يقول
المؤرخ هنرى بيرين (١٣٦) • وهكذا وقفت اوروبا مكتوفة الايدي أمام
العالم العربى الاسلامى • وقد صاحب القوة السياسية التى تمتع بها ،
ازدهار حضارى شمل مختلف النواحي والمجالات •

ولكن اعتبارا من أوائل القرن العاشر الميلادي (بدايات القرن الرابع الهجري) ، حدث تغير في توازن القوى بين العالمين الاسلامي والمسيحي . ففي الجبهة الشرقية بدأت الدولة البيزنطية تسترد قوتها في عهد أسرة من أقوى الاسرات التي حكمت فيها ، وهي الاسرة المقدونية (٨٦٧ — ١٠٥٩ م) ، وبخاصة في عهد كل من الاباطرة نقفور الثاني فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ، ويوحنا الاول تزميسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦ م) ، وبازيل الثاني (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) . هذا ، بينما أخذ التفكك والانقسام يدبان في أوصال العالم العربي الاسلامي . وكانت النتيجة ضربات قوية وجهتها الى المسلمين ، وبخاصة في رقعة المشرق الاسلامي ، وحرزت فيها غدة انتصارات (١٣٧) .

ومع بدايات القرن الحادي عشر الميلادي (بدايات القرن الخامس الهجري) ، كان الغرب الاوروبي ، هو الآخر ، قد افاق من كبوته بعد قرون طويلة من الظلام ، وبدأ يسترد انفاسه اللاهثة ، ويستجمع قواه ، ويشق طريقه نحو التقدم ، بعد توقف غزوات البرابرة ، واستقرار الاحوال فيه . وفي نفس هذا الوقت تصاعدت حدة الخلافات والانقسامات السياسية والمذهبية في العالم العربي الاسلامي ، واتسعت هوته . وكان هذا يعني ان زمام المبادرة أصبح في قبضة الغرب الذي وجه أولى ضرباته ضد المسلمين بالاستيلاء على صقلية والجنوب الايطالي خلال القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) . هذا ، بينما كانت الممالك المسيحية في شمال اسبانيا ، وهي اراجون وليون وقشتالة ونافار ، تساندها بقية دول الغرب ، وفي مقدمتها فرنسا ، تواصل صراعها ضد المسلمين لاجراجهم من شبه الجزيرة الايبيرية . وتلتها الضربة الثانية المؤثرة فيما عرف اصطلاحا باسم « الحروب الصليبية » التي شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، هي القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) ، والتي تعتبر مرحلة هامة من

مراحل الصراع الطويل بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى القرون الوسطى ، ودورا رئيسيا من ادواره •

والحديث عن الصراع الصليبي الاسلامى وتغير مراكز الثقل فيه بين المسلمين والصليبيين يطول ، ولا يزال بحاجة الى مزيد من الدراسات المتأنية المتعمقة الدعوية (١٢٨) • ولكن يكفى القول هنا أن هذا الصراع مر — بدوره — بأكثر من مرحلة • أولاها عندما وقف الغرب على قدميه ، وامسك بزمام المبادرة ، ووجه الضربة القوية ضد الشرق الادنى الاسلامى فى السنوات الاخيرة من القرن الحادى عشر الميلادى (السنوات الاخيرة من القرن الخامس الهجرى) ، وتمكن من تأسيس مملكة له فى قلب فلسطين ، بالاضافة الى ثلاث أمارات هى : الرها وانطاكية وطرابلس الشام • وقد تلتها مرحلة افاقة اسلامية مع بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجرى) ، عندما استشعر المسلمون بالخطر المحدق بهم • وادى ذلك الى توازن القوى ، أى اعتدال كفتى الميزان فى الصراع بين الطرفين ، بحيث لم يكن بوسع أى منهما توجيه ضربة حاسمة الى خصمه • وكانت فترة ترقب وانتظار تلتها عملية التكتل الاسلامى ، بحيث أصبح مركز الثقل يميل بشكل واضح لصالح المسلمين ، بينما بدأ الضعف يدب فى الكيان اللاتينى المتداعى فى الاراضى المقدسة لاسباب عديدة متداخلة فى بعضها ، فى الوقت الذى انشغلت فيه اوروبا عن نجدة اخوانها أفرنج الشام بسبب مشاكلها الخاصة ومشاغلتها الداخلية من جهة ، وفتور الحماسة الدينية للفكرة الصليبية نفسها وتشكك الاوروبيين فيها وفى جدواها وفائدتها من جهة أخرى • وهكذا ، أصبح زمام المبادرة فى يد المسلمين الذين اخذوا يوجهون ضرباتهم القوية الى افرنج الشام ، حتى انتهى الامر باخراجهم منها فى اواخر القرن الثالث عشر الميلادى (اواخر القرن السابع الهجرى) ، وفشل جميع الحملات التى وجهتها أوروبا ضد العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) ،

والتي عرفت اصطلاحاً باسم الحروب الصليبية المتأخرة (١٣٩) • ثم
اعقبت ذلك الضربات المضادة التي وجهها المسلمون ضد مراكز الفرنج
أو محالفيهم في كل من أرمينية وقبرص ورودس اعتباراً من أواخر
القرن الثامن وحتى بدايات القرن العاشر الهجري (١٤٠) • وبها تطوى
صفحة من التاريخ سجلت صراع تسعمائة عام أو يزيد بين المسلمين
والمسيحيين ، لتبدأ صفحة أخرى في العصر الحديث الذي يشهد مرحلة
جديدة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب وقد اتخذت شكلاً
يتناسب وأوضاع عالمنا المعاصر •

وان كان هذا البحث يدور حول ظهور قوة جديدة على المسرح
العالمي ، بظهور الاسلام والفتوحات المظفرة التي احرزها في الشام
على حساب الدولة البيزنطية ومحالفيها من مستعربة الشام فيما بين
عامي ٦٢٦ و ٦٣٧ م (٥ - ١٦ هـ) ، وما ترتب على ذلك من تغير في
مراكز القوى باندلاع الصراع بين العالم الاوروبي المسيحي والعالم
العربي الاسلامي طوال أكثر من تسعة قرون من الزمان ، الا أنه لا يزال
موضوعاً خصباً يفتح آفاقاً رحبة واسعة لمزيد من الدراسات الجديدة
في هذا الميدان الحيوي الهام (١٤١) •

حواشي البحث

- (١) Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1948, P. 38;
Baynes, N.H., The Byzantine Empire, London, 1939, pp. 44 - 45.
- (٢) Baynes, N.H. and Moss, H. St. B. (eds.), Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1953, pp. 9 - 10.
- (٣) بتلر (الفردج •) : فتح العرب لمصر ، عربيه محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م ، ص ١ - ٢ •
- (٤) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, pp. 83 - 84.
- (٥) Runciman, op. cit., p. 40.
- (٦) Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960, pp. 22 - 23.
- للمزيد من المعلومات عن العرب قبل الاسلام ، انظر احمد عبد الحميد الشامي (دكتور) : في تاريخ العرب والاسلام : حضارة العرب قبل الاسلام — حياة محمد وظهور الاسلام ، ط • ثانية ، القاهرة ١٩٨٢ ، وخاصة القسم الاول بفصوله الخمسة ، ص ٧ - ١٤٧ ، السيد عبد سالم (دكتور) : تاريخ الدولة العربية ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ٣ - ٣٢ •
- (٧) اومان (ش •) : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب د • مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٢٧ • جدير بالذكر أن جورج موناخوس المعروف بجورج همرتولوس لم يذكر شيئاً في مؤلفه عن تلك الفترة سوى اشارة ورد فيها اسم الرسول (ﷺ) باعتباره زعيماً للعرب المسلمين • وينص قوله :
- «.... Mahometus, Saracenorum princeps».

انظر : Georgius Monachus (Hamartolus), ed. Migne, Patrologia Graeca, t. CX, Paris, 1863, P. 835.

أما المعلومات الواردة في كتاب ثيوفانيس عن الفترة موضوع الدراسة فهي مركزة للغاية ، ومبعثرة ، ومشوشة الى حد بعيد ، مع وقوع اخطاء عديدة في تواريخ الوقائع والاحداث . ولعل ذلك يرجع الى بعده الزمني عنها ، فضلا عن عدم وجود مؤرخ بيزنطى معاصر قام بتسجيلها .

انظر : Theophanis, S.P.N., Chornographia, ed. Migne, Patrologia Graeca, t. CVIII, Paris, 1863, pp. 681, 687, 691, 695, 699.

وفيما يتعلق بمعاصره نقفور جريجوراس فقد مر على احداث السنوات الاولى من فتوحات الشام مر الكرام . انظر :

Nicephorus, S., Breviarium Historicum de Rebus Gestis post Imperium Mauricii, ed. Migne, Patrologia Graeca, t.C., Paris (N.D.) PP. 911 - 912.

(٨) معلوماتنا قليلة للغاية عن سبيوس وحياته الخاصة ، وكل ما نعرفه عنه أنه كان من رجال الدين . انظر :

Hübschmann, H., Armenische Grammatik, Leipzig. 1897, P. I.

ويرجح أنه كتب مؤلفه خلال الربع الاخير من القرن السابع الميلادى . انظر :

Sébêos, Histoire d'Héraclius. Trad. F. Macler, Paris, 1904, p. VIII.

ويلاحظ أن سبيوس — شأنه شأن غيره ممن كتب في تلك الفترة السحيقة من الزمن — لم يستخدم وسائل النقد والتحليل في كتاباته . والمعروف أن معظم مؤرخى العصر الوسيط قد اعتادوا على هذا النمط من الكتابة .

(٩) غير معروف تاريخ مولده أو وفاته • ويرجح أنه عاش في القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري) • ونظرا لتفقه في علم اللاهوت وثقافته الدينية ، فقد طغى الأسلوب الديني على مؤلفه • اذ كان ينسب الاحداث التي سجلها في كتابه الى تدخل المنيئة الالهية • وقد ادى هذا الى ابتعاده عن المنهج التحليلي السليم • انظر :

Thopdschian, H., Die inneren Zustände von Arménien unter Asot I, Berlin, 1904, p. 4.

(١٠) المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) : ابو الحسن على بن الحسين بن على : كتاب التنبيه والاشراف ، نشر دي غويه ، ليدين (مطبعة بريل) ١٨٩٣ ، ص ٢٤٨ •

(١١) دومة الجندل يضم الدال ، وهي غير دومة بالفتح • هي طرف من افواه الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبينها بين المدينة خمس عشرة ليلة • انظر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) : زاد المعاد في هدي خير العباد محمد (عليه السلام) — خاتم النبيين وامام المرسلين ، ٤ ج ، نسخة مصورة عن طبعة المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٧٩ هـ ، مكة (بدون تاريخ) ، ص ١١٢ ، ابن سعد (ت ٢٣٠ / ٨٤٤ — ٨٤٥ م) : كتاب الطبقات الكبرى ، ٨ ج ، القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ • وسميت بدوم بن اسماعيل بن ابراهيم لانه كان نزلها • كما سميت دومة الجندل لان حصنها مبني بالجندل ، وهي حصن وقرى بين الشام والمدينة • انظر : ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) : معجم البلدان ، ٥ ج ، بيروت ١٩٧٧ ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ ، النويري (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣٢ م) : نهاية الارب في فنون الادب ، ج ١٧ ، ص ١٦٢ •

- (١٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ .
- (١٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ .
- (١٤) النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ .
- (١٥) ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) : سيرة النبى ، ٤ مجلدات ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ ، مج ٣ ، ص ١٦٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ ، الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ ج ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط ٤ ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) : البداية والنهاية ، ١٤ ج ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٠ ، ج ٤ ، ص ٩٢ . أما البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : انساب الاشراف ، ج ١ ، تحقيق د . محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣٤١ ، فيقول أنه سباع بن عرفطة الكنانى . ويقول المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٩ ، ان الرسول (ﷺ) استخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

- (١٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ . انظر ايضا الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ١١٢ .
- (١٧) أى : الابل الحمولة : ومثلها الضافطة ، كما فى : الفيروز ابادى ، والقاموس المحيط ، مادة (ض ف ط) .

- (١٨) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(١٩) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ •

(٢٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٩٢ •

(٢١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ • راجع أيضا البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٤١ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ص ١١٢ • ويضيف ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٩٢ ، ان الدليل يقال له مذكور هاد خريت • والخريت هو الدليل الحاذق ، كما فى الفيوز ابادى ، والقاموس المحيط مادة (خ ر ث)

(٢٢) انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٤ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ، ص ٩٢ • أما ابن هشام فيقول فى سيرته (مج ٣ ، ص ١٦٨) ان الرسول (ﷺ) رجع الى المدينة قبل أن يصل الى دومة الجندل ، الامر الذى لايتفق مع ماورد فى المصادر الاخرى • انظر أيضا ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ — ١٠٧١ م) : الدرر فى اختصار المغازى والسير ، تحقيق د • شوقى ضيف ، ط • ثانية (القاهرة ١٩٨٣) ، ص ١٦٨ •

(٢٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٥ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ١٦٣ •

(٢٤) الواقدي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ — ٨٢٣) : مغازى رسول الله ، ط • أولى ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، ص ٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٦٣ — ٦٤ ، المسعودى : التنبيه

والاشراف ، ص ٢٥٣ • راجع أيضا : الطبرى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦٤١ — ٦٤٢ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ • أما حسمى فهي أرض ببادية الشام ، بينها وبين وادى القرى ليلتان • وهى أرض غليظة ، وماؤها لذلك لاخير فيه تنزلها قبيلة جذام • ومن جبال حسمى جبل يعرف بارم وهو شديد الارتفاع • انظر ياقوت • معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ •

(٢٥) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٧٧ • وجاء فى آخر نص البلاذرى « ويقال أن هذه السرية كانت فى سنة سبع » • وهذا يرجع ، بلا شك ، الى الاختلاف الواقع اساسا فى تاريخ مكاتبة الرسول (ﷺ) الى الملوك • فالبعض يؤرخه بأواخر سنة ٦ هـ ، والبعض سنة ٧ هـ •

(٢٦) الواقدى : مغازى رسول الله ، ص ٦ ، المسعودى : القتيبيه والاشراف ، ص ٢٥٣ • وجاء فى البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ، ان الرسول (ﷺ) عمم عبد الرحمن بن عوف بيده حين بعثه على السرية ، وقال له : « ان اطاعوك ، فتزوج ابنة ملكهم • » فلما اسلم القوم تزوج تماضر بنت الاصبغ • راجع أيضا : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٦٤ — ٦٥ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ١٧٩ • ويضيف ابن هشام : سيرة النبى ، مج ٤ ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ ، ان الرسول (ﷺ) أمر بلالا أن يسلمه اللواء ، ثم قال : « خذه يا ابن عوف فاغزوا جميعا فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله • • • » ويلاحظ ان ابن هشام لم يذكر هذه السرية من قبل ، واوردها هنا استرسالا عند ذكر السرايا والبعوث مجتمعة ، كما أنه لم يحدد لها تاريخا •

(٢٧) المسعودي : التنبية والاشراف ، ص ٥٦ . وكانت سورة الروم قد نزلت في هذا من قبل (آيات ١ - ٣) : وتحقق ما نزلت فيه .
انظر ايضا : النويري : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٠٩ .

(٢٨) المسعودي : التنبية والاشراف ، ص ٢٥٩ و ٢٦١ .

(٢٩) النويري : نهاية الارب ، ج ١٨ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ . ومصادره في هذا الدمياطي ، وابن اسحق ، وابن هشام .

(٣٠) البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٣١ .

(٣١) ابن هشام : سيرة النبي ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .

(٣٢) يطلق عليه ابن هشام : سيرة النبي ، ج ٤ ، ص ٢١٧ لقب « ملك تخوم الشام » .

(٣٣) ابن هشام : سيرة النبي ، ج ٤ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ ، الطبري : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ وما يليها ، ابن عبد البر : المعجم ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ . المسعودي : التنبية والاشراف ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، النويري : نهاية الارب ، ج ١٨ ، ص ١٥٨ وما يليها ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ وما يليها . والمزيد من التفاصيل عن مبعوثي الرسول (ﷺ) الى هرقل وغيره من الملوك ، وكتبه اليهم ، وموقف هرقل من دعوة النبي اليه للدخول في الاسلام ، انظر السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : « أول اشتباك حربي بين العرب والروم على مشارف الشام قبيل الشروع في حركة الفتوحات الاسلامية » ، بحث تحت الطبع في المجلد الخاص بالندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بالرياض ، السعودية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

(٣٤) الواقدي : مغازي رسول الله ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٨ ، النويري : نهاية الارب ، ج

١٨ ، ص ١٥٨ ومايليها • ومصدر النويرى في هذا هو البخارى •
وفي آخر نص النويرى (ص ١٦٢) اشارة الى هرقل وتحقق
نبوءته عن النبى • انظر ايضا النويرى : نهاية الارب ، ج ١٦ ،
ص ١٥٠ — ١٥٣ •

(٣٥) الطبرى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦٤٩ — ٦٥١ •

(٣٦) أسماها الواقدي : مغازى رسول الله ، ص ٧ « غزوة » ، بينما
وردت في المصادر الاخرى تحت لفظ « سرية » ، وهذا الاصح
لأنها لم تكن بقيادة الرسول (ﷺ) •

(٣٧) انظر الواقدي : مغازى رسول الله ، ص ٧ ، ابن سعد : الطبقات
الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٩٢ ، البلاذرى : انساب الاشراف ،
ص ٣٨٠ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، المسعودى : القتيبة
والاشراف ، ص ٢٦٥ • ويلاحظ ان الاسم ورد عند الطبرى ، عن
الواقدي ، « عمرو بن كعب الغفارى » ولكنّه جاء عن
الواقدي والمصادر الاخرى التالية عليه أنه « كعب بن عمير
الغفارى » •

(٣٨) البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ، اليعقوبى (ت
٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : تاريخه ، جزاءن ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج ٢
ص ٧٥ •

(٣٩) الواقدي : مغازى رسول الله ، ص ٧ ، ابن سعد : نفس المصدر
والصفحة ، الطبرى : نفس المصدر والصفحة ، المسعودى : نفس
المصدر والصفحة ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٧٧ ، ابن
كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١ •

(٤٠) الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ،
ج ٤ ، ص ٢٤١ •

(٤١) الواقدي : نفس المصدر والصفحة ، ابن سعد : نفس المصدر
والصفحة ، البلاذرى : نفس المصدر والصفحة ، المسعودى :

نفس المصدر والصفحة ، النويرى : نفس المصدر والصفحة •
ويلاحظ أن كلا من اليعقوبى وابن كثير لم يحدد تاريخا لها • انظر
تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص
٢٤١ • بينما لم يحدد الطبرى فى تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، الشهر
واكتفى بذكر السنة (٨ هـ) •

(٤٢) ابن سعد : نفس المصدر والصفحة ، المسعودى : التنبية
والاشراف ، ص ٢٦٥ • ويتضح من رواية كل من البلاذرى :
انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ ، والطبرى : تاريخه ، ج ٣
ص ٢٩ ، والمسعودى : نفس المصدر والصفحة ، ان الذى نجا
من المعركة هو قائد السرية كعب بن عمير ، بينما ذكر اليعقوبى ،
تاريخه ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، ان الجميع استشهدوا ولم يرجع من
السرية احد • وذكر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ،
انه « ارتث منهم رجل جريح فى القتلى » دون ان يحدد اسمه •
وتجد جاء فى الفيروز ابادى ، والقاموس المحيط ، مادة (ر ث ث)
شرح الكلمة فيما يلى « ارتث — على المجهول — حمل من
المعركة رثيثا : أى جريحا وبه رمق » •

(٤٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٩٢ ، النويرى :
نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٧٧ •

(٤٤) اشار الى وقعة مؤتة تحت اسم « غزوة » الواقدى : مغازى
رسول الله ، ص ٧ ، وان كان قد ذكرها فى صفحة ٣٢٢ تحت
اسم « سرية » و « قصة مؤتة » • كما ذكرها تحت اسم
« سرية » ، المسعودى : التنبية والاشراف ، ص ٢٦٥ • أما ابن
هشام : سيرة النبى (ﷺ) ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ و ٣٣١ ، فقد اوردها
تحت لفظ « يوم مؤتة » •

(٤٥) كان النبى (ﷺ) بعد اداء عمرة القضاء فى شهر ذى القعدة ٧ هـ
(مارس ٦٢٩ م) ، رجع الى المدينة فى ذى الحجة من السنة
نفسها (ابريل ٦٢٩ م) ، واقام فيها بقية ذى الحجة سنة ٧ هـ

ثم المحرم وصفر وشهري ربيع أول وثنان سنة ٨ هـ (يوليو --
اغسطس ٦٢٩ م) • ثم بعث بسرية زيد بن حارثه في جمادى
الأول سنة ٨ هـ • انظر سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣١٩ وما
بعدها ، الواقدي : مغازي رسول الله ، ص ٣٢٠ •

(٤٦) المسعودي ، التتبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ •

(٤٧) الواقدي : مغازي رسول الله ، ص ٣٢٢ •

(٤٨) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ ، المسعودي : التتبيه والاشراف ،
ص ٢٦٥ • ويلاحظ ان الواقدي : مغازي رسول الله ، ص ٣٢٢ ،
لم يحدد تاريخا • وابن عبد البر هو الوحيد الذي ذكر انها كانت
في جمادى الآخرة سنة ٨ هـ • انظر الدرر ، ص ٢٠٩ •

(٤٩) المسعودي : التتبيه والاشراف ، ص ٢١٥ •

(٥٠) المسعودي : نفس المصدر والصفحة ، وان كان عدد افراد الجيش
البيزنطي مبالغاً فيه ، وليس تحت ايدينا تحديد دقيق للقوات
البيزنطية •

(٥١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٩٢ — ٩٤ ، ابن
خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) خليفة بن خياط العصفري البصري :
تاريخ خليفة بن خياط ، رواية بقي بن مخلد ، تحقيق سهيل زكار ،
دمشق ١٩٦٨ ، ق ١ ، ص ٥٦ ، البلاذري : انساب الاشراف ،
ج ١ ، ص ٣٨٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤١
وما يليها • وتمتاز المعلومات التي أوردتها ابن كثير بأنها وفيرة ،
ومسببة ، وان كانت الصفحات الأخيرة فيها بعض الاستطرادات
ولكنها تتصل بالموقعة على كل حال •

(٥٢) الواقدي : مغازي رسول الله ، ص ٣٢٢ ، سيرة ابن هشام ، ج

٣ ، ص ٣٢٦ — ٣٢٩ • ويذكر المسعودي : التنبيه والاشراف ،
ص ٢٦٥ ، أن عدد الجرحى بلغ نيفا وتسعين •

(٥٣) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٣١ — ٣٣٧ ، ابن عبد البر : الدرر ،
ص ٢١٠ • للمزيد من التفاصيل عن سرية مؤتة ، انظر النويري :
نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٧٧ — ٢٨٣ • واشار ابن هشام في
سيرته ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، الى سرية قادها زيد بن حارثة
الى مدين ، وبعث الرسول (ﷺ) معه ضميرة مولى على بن ابي
طالب واخا له • وقد أصاب سببا من أهل السواحل ، وكانت
عامرة بالناس ، وقد بيعوا جميعا • ويلاحظ أن ابن هشام لم
يذكر هذه السرية من قبل ، ولكنها وردت هنا استرسالا عند ذكر
الغزوات والبعوث • كما أنه لم يحدد لها تاريخا • ولما كان زيد
ابن حارثة قد استشهد في مؤتة في جمادى الاولى عام ٨ هـ
(أغسطس ٦٢٩ م) فربما تكون على هذا الاساس قد حدثت في
تلك السنة أو قبلها • وهذه السرية تحتاج الى مزيد من التحقيق •

(٥٤) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، البلاذري : انساب الاشراف ،
ج ١ ، ص ٣٨٠ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٥ •

(٥٥) وفقا لرواية كل من الواقدي ، والبلاذري ، والمسعودي ،
والنويري ، وابن كثير • أما الطبري : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٣١ ،
فقد ذكر السنة ولم يحدد الشهر • واما ابن هشام : سيرة النبي ،
ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، فلم يحدد لها تاريخا •

(٥٦) ذكر البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ — ٣٨١ ،
أن عمرو بن العاص كان قد « قدم من عند النجاشي مسلما » فلقى
في طريقه عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد يريدان النبي (ﷺ)
فأسلموا في صفر سنة ثمان « • وهذا التاريخ يقابل شهر يونيو
سنة ٦٢٩ م •

- (٥٧) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ •
- (٥٨) المسعودي : التنبية والاشراف ، ص ٢٦٥ •
- (٥٩) البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ص ٣٨١ • وفي سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، انه عندما كان عمرو على ماء بأرض جذام يقال له السلسل ، اشتقت المعركة تسميتها منه فغرقت بذات السلسل •
- (٦٠) البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٠ • وللمزيد من المعلومات عن تلك السرية ، انظر : سيرة ابن هشام ، نفس الجزء والصفحة ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ٩٤ — ٩٥ ، المسعودي : التنبية والاشراف ، ص ٢٦٦ ، النويري : نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ وما يليها •
- (٦١) الواقدي : مغازي رسول الله ، ص ٣٤٠ ، وان كان قد اشار في صفحة ٣٤١ أنه يعني بلاد الروم عندما قال لرجاله مشجعا اياهم : « فسارعوا معي الى الشام لعنكم ان تصيبوا شباب الاصفر » •
- (٦٢) ابن هشام : سيرة النبي ، ج ٤ ، ص ١٢٨ و ١٢٩ • انظر ايضا ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٣٨ •
- (٦٣) البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ • والمقصود بذلك شباب الروم •
- (٦٤) تبوك موضع بين وادي القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب الى النبي (ﷺ) • وموقع تبوك بين جبل حسمى وجبل شروري ، وحسمى غربيها ، وشروري شرقيها ، انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ •

- (٦٥) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٢٨ •
- (٦٦) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٩ •
- (٦٧) الوافدى : مغازى رسول الله ، ص ٣٤٠ • وذكر البلاذرى :
انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، ان الرسول (ﷺ) جهز
عددا كبيرا بلغ ثلث القوات وربما أكثر وانفق عليهم بسطاء • أما
ابو بكر فقد اعطاهم جميع مابقى من ماله •
- (٦٨) المسعودى : التنبية والاشراف ، ص ٢٧١ • وجاء فى الفيروز
ايدى ، وقاموس المحيط ، مادة (حمل) : « والحمالان —
بالضم — ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة » •
- (٦٩) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٢٩ — ١٣١ • راجع أيضا النويرى :
نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٣٦١ — ٣٦٨ •
- (٧٠) والروايات متفقة فى ذلك • ولكن يلاحظ ان المسعودى : التنبية
والاشراف ، ص ٢٧٠ ، لم يعنون الحوادث قبل غزوة تبوك
واحداثها بعنوانه التقليدى (ذكر سنة كذا •••) ، واكتفى بقوله
« ••• ثم غزوة رسول الله (ﷺ) فى رجب » ، والغزوة تقع فى
سنة ٩ هـ على كل حال ، ويدل عليها عند المسعودى التواريخ قبلها •
- (٧١) المسعودى : التنبية والاشراف ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، البلاذرى :
انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ •
- (٧٢) ايلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام حتى آخر
الحجاز وأول الشام • وهى مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير •
وقد سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم • وقيل هى مدينة بين
الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم تعد فى بلاد الشام •
انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩٢ •

(٧٣) اذرح اسم بلد في اطراف الشام من اعمال الشراة ، ثم من نواحي
البلقاء • وجاء في معجم البلدان ان أهلها ، بعد فتح الرسول (ﷺ)
لها سنة ٩ هـ ، صولحوا على مائة دينار جزية • انظر ياقوت :
معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ •

(٧٤) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٣٨ ، المسعودي : التنبيه
والاشراف ، ص ٢٧٢ • انظر نص كتاب الرسول (ﷺ) الى
صاحب ايلة في سيرة ابن هشام •

(٧٥) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٤٠ • وقد ذكر ان الرسول أقام
بنتبوك « بضع عشرة ليلة لم يجاوزها » ، بينما ذكر الواقدي :
مغازي رسول الله ، ص ٣٤١ ، أنه أقام بها شهرين • وحسب
المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧١ ، أنه أقام بها بضع
عشرة ليلة وقيل عشرين • للمزيد من المعلومات انظر : ابن سعد :
الطبقات الكبرى ، ج ٢ ق ١ ، ص ١١٨ وما يليها ، الطبري :
تاريخه ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ وما يليها ، ابن خياط : تاريخه ، ق ١ ،
ص ٦٤ •

(٧٦) جاء في البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، انه عندما
يسار الرسول (ﷺ) الى الاعداء « هابوا مجاربتة ، فلم يلق كيدا » ،
وان رسل هرقل انتته وهو بنتبوك « فكساهم وردهم » • راجع
أيضا ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٥ ، ص ١٥ وما بعدها •

(٧٧) البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٨٢ • وذكر المسعودي :
التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٢ ، ان الشخص الذي أسره خالد بن
الموليد هو اكيدر نفسه ، والصحيح اخاه • للمزيد من المعلومات عن
هذه السرية انظر الطبري : تاريخه ، ج ٣ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ،
ابن كثير • البداية والنهاية ، ج ٥ ، ص ١٧ — ١٨ ، النويري :
نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٣٥٦ — ٣٥٨ •

(٧٨) اكتفى المسعودي بذكر السنة دون الشهر • وهي — على كل حال — أتم في شهر ربيع الاول (يونيو ٦٣١ م) أو قبله ، لان السرية التالية — وكانت لخالد بن الوليد — تؤرخ بشهر ربيع الاول سنة ١٠ هـ ، انظر التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٣ •

(٧٩) جاء في ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٤ ق ١ ، ص ٤٦ ، في ترجمة اسامة بن زيد قوله : « أقر رسول الله (ﷺ) اسامة بن زيد وأمره ان يغير على أبني من ساحل البحر » • وربما تكون نفس السرية المذكورة في التنبيه والاشراف •

(٨٠) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢١٦ •

(٨١) البلقاء كورة من اعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان ، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة • وسميت بالبقاء لان بالق من بنى عمان بن لوط عمرها • ورأى آخر أنها سميت ببقاء بن تنويده من بنى عسل بن لوط • انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٨٩ •

(٨٢) اخبرعت بلد في اطراف الشام يجاوز أرض البلقاء وعمان ، وقيل هي مدينة بالبقاء خرج منها طائفة من أهل العلم المعروفين • انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٣٠ — ١٣١ •

(٨٣) الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر ، وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) • ويقال لها الدارون أيضا • انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ •

(٨٤) يرى د • أحمد الشامي ان الغرض من الحملة — فضلا عما تقدم — هو تخويف الروم ومنعهم من التفكير في مهاجمة المسلمين ، والثأر لما حل بالمسلمين في موقعة مؤتة ، وردا على المواقف العدائية التي وقفها أمراء العرب المنتصرة من المسلمين • هذا ، بالاضافة الى اتاحة الفرصة لنشر الاسلام بين المدن العربية في شبه الجزيرة

ثم في خارجها • انظر : الخلفاء الراشدون ، ط • أولى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٣٩ • ونفق مع د • احمد الشامي فيها أورده من عوامل ، فيما عدا العامل الاول الخاص بمنع الروم من التفكير في مهاجمة المسلمين • فقد كانت دولة الروم وقتها في حالة لا تسمح لها بالمرّة في التفكير في مهاجمة المسلمين •

(٨٥) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ ، البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٢٧٧ — ٢٧٨ •

(٨٦) استهل المؤرخ الارمني جيفوند الفصل الاول من كتابة وعنوانه « حروب العرب الاولى وأوائل فتوحاتهم لاراضي الامبراطورية البيزنطية » بذكر وفاة الرسول (ﷺ) • لكنه لم يشر الى ظهور الاسلام ، وانتشاره ، والانتصارات العسكرية التي حققها المسلمون في العهد النبوي • ووردت اشارات سريعة مركزه للمغاية عن الفتوحات العربية في الشام في عهد كل من ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب • وهي لاتضيف جديدا • انظر :

Ghévond, Histoire des Guerres et des Conquêtes des Arabes en Arménie. Trad. G.R. Chahnazarian, Paris, 1856, pp. 1 — 2.

(٨٧) سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ • ويلاحظ أن ابن هشام لم يحدد تاريخ هذه الحادثة ، ولكن سياق الاحداث يدل على أنها وقعت في سنة ١٠ هـ (٦٣١ م) •

(٨٨) Sullivan, Heirs of the Roman Empire, p. 26.

(٨٩) انظر جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ — ١٤٥٣) ، ط • أولى ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١١٠ — ١١١ •

(٩٠) انظر ما سبق ، صفحة ٥ — ٦ من هذا البحث •

(٩١) ابن خياط : تاريخه ، ص ٧٩ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ، ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٢٤ م) : الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٩٢) الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ و ٢٤٩ و ٢٥٤ وما يليها ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ٤٦ — ٤٩ .

(٩٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، نشر وتعليق رضوان محمد رضوان ، ط ٠ أولى ، القاهرة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م ، ص ١١٥ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ ، و ٢٤٩ و ٢٥٤ وما يليها ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ وما يليها .

(٩٤) الواقدى : فتوح الشام ، جزءان فى مجلد ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ، ج ١ ، ص ٢ — ٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٥ .

(٩٥) ابن خياط : تاريخه ، ص ١٠٤ ، المسعودى ، القتيبة والاشراف ، ص ٢٨٦ .

(٩٦) الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ و ٤١١ و ٤٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ وذكر البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٦ ، أن عقد هذه الالوية كان يوم الخميس أول صفر ١٣ هـ (٥ مايو ٦٣٤ م) . راجع أيضا ابن بطريق (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ — ٩٤٠ م) : كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ٩ .

(٩٧) ابن بطريق : كتاب التاريخ المجموع ، ص ٩ .

(٩٨) فيما يتعلق بنشاط خالد بن الوليد فى مشارف الشام بعد تركه العراق ، انظر : البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٧ و ١١٨ .

١١٩ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١١٦ و ١١٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٦ ، ص ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٩٩) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٠ ، ابن خياط : تاريخه ، ص ١٠٣ .

(١٠٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٠ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٢٠ و ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٤ — ٥٥ . وفيما يتعلق بالاختلاف حول تاريخ يوم اجنادين ، انظر البلاذرى : نفس المصدر ، ص ١٢١ . وذكر ابن خياط ان الواقعة كانت يوم الجمعة ٢٧ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢٩ يوليو ٦٣٤ م) انظر تاريخ ابن خياط ، ص ١٠٣ . ويلاحظ ان ابن الاثير اورد وقعة اجنادين بعد وقعة اليرموك ، انظر الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(١٠١) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٥٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٣ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ وما يليها و ٦٢٣ و ج ٤ ، ص ٣٩ و ٦٦ وما يليها ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦ .

(١٠٢) احمد الشامى (دكتور) : الخلفاء الراشدون ، ط ٠ أولى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

(١٠٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٢ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٢٥ — ٢٦ . وذكر ابن خياط فى تاريخه ، ص ١١٢ — ١١٣ ، ان الواقعة كانت يوم السبت ٢١ ذى الحجة ١٤ هـ (٥ فبراير ٦٣٦ م) مما لا يتفق وتسلسل الاحداث . والتناقض واضح فى

روايته ، اذ ذكر في نهايتها ان حصارها دام أربعة اشهر هى رجب وشعبان ورمضان وشوال وان الصلح تم في ذى القعدة دون ان يحدد السنة .

(١٠٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٥ — ١٢٦ . وذكر ابن خياط : تاريخه ، ص ١٠٤ ، ان الواقعة كانت يوم الخميس ١٩ جمادى الاولى ١٣ هـ (٢٠ يوليو ٦٣٤ م) ، مما لا يتفق مع تسلسل الاحداث .

(١٠٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ — ١٣١ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٥٤٢ — ٥٤٣ ، ابن بطريق : كتاب التاريخ المجموع ، ص ١٤ — ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٩ — ٢٥ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٥٥ — ١٥٦ . ويلاحظ ان النويرى لم يحدد هنا تاريخ فتحها ، ومصدره هو « الكامل في التاريخ » لابن الاثير . وفي صفحة ١٦٠ ذكر انها فتحت في رجب سنة ١٤ دون أن يحدد اليوم . وكان ابن خياط : تاريخه ، ص ١١٢ ، اكثر تحديدا عندما ذكر ان الصلح تم يوم الاحد ١٥ رجب ١٤ هـ (٤ سبتمبر ٦٣٥ م) .

(١٠٦) الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٢٠ و ٤٨ — ٥٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(١٠٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٣ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٦٠٥ وما يليها ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦١ . ويلاحظ انه لم يذكر تاريخ فتح كل منهما ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير .

(١٠٨) الواقدي فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٦٨ — ٦٩ و ٩١ وما يليها ، ابن خياط : تاريخه ، ص ١١٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٦

— ١٣٧ ، الطبري : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٥٩٩ — ٦٠١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٢ .

(١٠٩) الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٧٠ — ٧٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٠ ، الطبري : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٦٠١ — ٦٠٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٢ — ٥٣ ، ويلاحظ أن النويري لم يحدد تاريخا لفتحها ، ومصدره الكامل لابن الاثير .

(١١٠) الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٧٣ وما يليها ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٤ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩ ، النويري : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦٢ وما يليها . وقد ذكر أنها فتحت سنة ١٥ هـ ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير .

(١١١) الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٠٢ وما يليها ، ابن خياط : تاريخه ص ١١٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٤٠ — ١٤٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٤ — ١٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٨١ — ٢٨٤ . هذا ، والاختلاف كبير بين المؤرخين القدامى حول تاريخ هذه الموقعة . فمن قائل انها حدثت سنة ١٣ هـ (٦٣٤ — ٦٣٥ م) ، ومن يرى انها كانت سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) . انظر الطبري : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٥٧١ — ٥٧٢ ، ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦ ، النويري : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٢١ — ١٢٥ و ١٦٠ .

(١١٢) Sébêos, op. cit., p. 971; cf. Ghévond, op. cit., p. 3.

(١١٣) الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١١٦ وما يليها ، ابن خياط : تاريخه ، ص ١٢٤ ، ويحدد ابن خياط التاريخ بسنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٢ — ١٥٣ ، النويري : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦٥ — ١٦٧ . ويلاحظ أنه لم يذكر تاريخ

فتحتها ، وسياق الحديث عنده يدل على أن ذلك كان في سنة ١٥ هـ
(٦٣٦ — ٦٣٧ م) ، ومصدره هو الكامل لابن الاثير .

(١١٤) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٥٣ وما يليها .

(١١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٤ ، النويرى : نهاية الارب ،
ج ١٩ ص ١٦٩ — ١٧٠ . ويلاحظ أنه لم يحدد تواريخ الفتح ،
ومصدره هو الكامل لابن الاثير .

(١١٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٥ — ١٤٧ ، الطبرى : تاريخه ،
ج ٣ ، ص ٦٠٣ — ٦٠٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ،
ص ٥٣ — ٥٤ ، النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٦٨ . وقد
ثار الخلاف حول تاريخ فتح قيسارية . انظر البلاذرى : نفس
المصدر ، ص ١٤٨ ، ابن خياط : تاريخه ، ص ١٣٤ .

(١١٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ، الطبرى : تاريخه ،
ج ٣ ، ص ٦٠٧ — ٦١٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ،
ج ٧ ، ص ٥٥ — ٦٠ . انظر نص كتاب عمر بن الخطاب الى أهل
بيت المقدس فى ابن بطريق : كتاب التاريخ المجموع ، ص ١٧ .
وفى ما يتعلق بالاختلاف حول تاريخ فتح بيت المقدس انظر
النويرى : نهاية الارب ، ج ١٩ ، ص ١٧١ — ١٧٣ ، ومصدره هو
الكامل لابن الاثير ، الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٥٤
وما يليها . انظر ايضا : Theophanes, Chronographia, I, p. 699.

Ghévond, op. cit., p. 4. (١١٨)

Sullivan, op. cit., p. 30. (١١٩)

(١٢٠) انظر الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ وما يليها : و ٢٤٠
وما يليها و ٢٢٧ وما يليها و ٤٤٣ وما يليها و ج ٥ ص ٥ وما يليها و ٩٤

وما يليها ١٣٣ وما يليها ١٥٨ وما يليها ، ابن كثير : البداية
والنهاية ، ج ٧ ، ص ١١٦ وما يليها و ٢٢٣ وما يليها •

(١٢١) انظر عن ذلك :

Arnold, T. and Guillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam,
London, 1952, pp. 40 - 41; Atiya, A.S., Crusade, Commerce and
Culture, Bloomington, 1962, pp. 19, 24 ff., 156 ff.; Grousset, R.,
The Sum of History, English Version by A. and H. Temple
Patterson, Oxford, 1951, pp. 7 - 12.

راجع أيضا توينبي (أ •) : مختصر دراسة للتاريخ ، ٢ ج ،
ترجمة فؤاد محمد شبل ، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، ج ٢ (القاهرة
١٩٦١) ، ص ٧٠ - ٧١ ، والخضارة في الميزان ، ترجمة أمين
محمود الشريف ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٩٢ - ١٩٥ •
كذلك استعرض رينية جروسية في كتابه « امبراطورية شرقى
البحر المتوسط : تاريخ المسألة الشرقية » ، الصراع الطويل بين
الشرق والغرب ، مبينا أن الحركة الصليبية لم تكن الا دورا من
ادواره • وسرد وقائع هذا الصراع منذ حروب الاسكندر المقدونى
في القرن الرابع قبل الميلاد حتى واقعة ليبانتو في أواخر القرن
السادس عشر • ويخلص مما تقدم ان المسألة الشرقية ليست
وليدة القرن السابع عشر ، انما هى ابعد من ذلك بكثير • انظر
Grousset, R., L'Empire du Levant : Histoire de la Question d'Orient,
Paris, 1949, pp. 21 ff., 46 ff., 67 ff., 186 ff

(١٢٢) انظر مراثة البابا الرومانى جريجورى الاول التى تحدث فيها
عما اصاب روما من خراب ودمار في أواخر القرن السادس

الميلادى ، فى :

Sullivan, Heris of the Roman Empire, pp. 1, 4 - 5, 10.

راجع أيضا :

Painter, S., A History of the Middle Ages : 284 - 1100, London, 1966, pp. 10 ff; Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965, 27 ff; Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1900, pp. 69, 71, 83.

Sullivan, op. cit., p. 17; Bury, J.B., History of the Later Roman Empire, Vol. II, New York, 1958, p. 358. (١٢٣)

ويقول ساليغان (ص ١٨ - ١٩) أنه نتيجة للمساواة التي تترتب على اعتماد الدولة على الجند المرتزقة الذين ائتمروا كاهلها بعبء مضاعف في سبيل الحصول على القوات القاذرة وجمع الدخل الكافي للاتفاق عليها ، سعت الى صبغ المجتمع البيزنطي بصبغة عسكرية • فبعد حروبها المستمرة خلال القرن السابع الميلادي التي ترقب عليها فقدانها مقاطعاتها الغنية والدخل الوفير ، حل محل الجند المرتزقة في مناطق الحدود نظام الثيمات أي الولاية الحدود أو الولاية الثغور ، الذي امتاز في كفاءته عن النظام القديم ، كما ادى الى توجيه كافة موارد الدولة لمواجهة المتطلبات العسكرية • للمزيد من المعلومات ، انظر هارتمان (ل • م •) وبارا كلاف (ج •) : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة وتعليق د • جوزيف نسيم يوسف ، ط • رابعة ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ٩٩ وح ٣ و ١٠٠ و ١٤٥ • وايضا :

Hussey, J. M., The Byzantine World, London, 1957, p. 25.

Sullivan, op. cit., p. 13. (١٢٤)

Ghévond, op. cit., p. 3. (١٢٥)

Sullivan, op. cit., p. 22. (١٢٦)

Sullivan, op. cit., pp. 12 - 13; cf. also : Bury, op. cit., II, p. 359 (١٢٧)

Runciman, Byzantine Civilization, p. 40. (١٢٨)

Sullivan, op. cit., p. 13. (١٢٩)

وذكر ساليبان (ص ١٤) ان العرب استولوا على هذا الاقليم الحيوى من الامبراطورية بسرعة مثيرة للدهشة ، وانهم اقاموا بفتوحاتهم المظفرة بداية لدولة جديدة بعد سقوط الشام وفلسطين فى قبضتهم بالرغم من جهود هرقل العسكرية المستميتة واليائسة التى بذلها لحفظ هذا الاقليم . كذلك يرى أن الهزيمة التى لحقت بالدولة البيزنطية تعزى — الى حد ما — الى سياسة الامبراطور الدينية الفاشلة ، وان مسيحيى الشام فضلوا حكم العرب عن سياسة القهر التى فرضتها عليهم القسطنطينية .

Ghévond, op. cit., p. 2. (١٣٠)

(١٣١) ساليبان (ر . أ .) : ورثة الامبراطورية الرومانية : الغرب الجرمانى — العالم الاسلامى — الدولة البيزنطية ، ترجمة وتقديم د . جوزيف نسيم يوسف ، الاسكندرية ١٩٨٥ ، ص ٩ . راجع أيضا : أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٢٧ . وغير صحيح ما ذكره موسى من ان حركة الفتوحات التى اعقبت وفاة الرسول (ﷺ) عام ٦٣٢ م ، قد غذتها الظروف الاقتصادية السيئة فى شبه الجزيرة العربية ، والتى ترتب عليها قيام جماعات صغيرة من المغيرين من راكبى الخيل بالاغارة فى كل اتجاه بحثا عن الطعام ورغبة فى الغزو والتخريب انظر :

Banyes and Moss, Byzantium, p. 11.

Sébêos, op. cit., pp. 95 - 96. (١٣٢)

كما أورد فى كتابه الآية القرآنية « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » انظر نفس المصدر ، ص ٩٦ .

Gaëvond, op. cit., p. 2. (١٣٣)

Sullivan, op. cit., pp. 9, 21, 29 - 30. (١٣٤)

Sullivan, op. cit., p. 32. (١٣٥)

Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, (١٣٦)
London, 1951, pp. 2-3; Idem, Medieval Cities, English Trans. by
F.D. Halsey, Princeton, 1948, pp. 15-16.

Bloy, L., Constantinople et Byzance, Paris, 1917, pp. II ff; Bailly, (١٣٧)
A., Byzance, Paris, 1939, p. 240 ff; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire
Byzantin, Paris, 1920, pp. 97, 99 f.

(١٣٨) للمزيد من المعلومات عن توازن القوى في الصراع بين المسلمين
والصليبيين في عصر الحروب الصليبية ، أنظر : جوزيف نسيم
بيوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي،
ط ٠ ثانية ، بيروت ١٩٨١ ، وبخاصة صفحات ٢١ وما يليها و٢٧
وما يليها و٣٧ وما يليها و٤٥ وما يليها . ويعبر احسن تعبير عن هذه
الفكرة كل من رينيه جروسيه وستيفن رانسيما في كتابيهما الكبيرين
عن الحركة الصليبية . انظر :

Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 Vols., Paris, 1948; Runciman.
S., A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1954 - 1955.

يريمثل كل جزء من هذه الاجزاء الثلاثة ، في كلا الكتاين ، مرحلة
من مراحل الصراع بين القوتين الاسلامية والصليبية .

(١٣٩) يعتبر كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن هذه الحروب أفضل
ما ظهر حتى الآن . انظر

A , The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

(١٤٠) انظر عن ذلك : جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٤٠ — ٤٣ .

(١٤١) لا يفوتني ان أقدم للزميل الدكتور درويش محفوظ النخيلي مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، والمغار حاليا لكلية الآداب بجامعة اليرموك بالاردن ، خالص شكرى وامقتناني على المعلومات القيمة التي زودني بها ، والتي كانت خير عون لي في اعداد هذا البحث .

المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية

ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٢٤ م) :

الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، بيروت ١٩٦٧ .

ابن بطريق (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ - ٩٤٠ م) :

كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت
١٩٠٩ .

ابن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) :

تاريخ خليفة بن خياط ، رواية بقى بن مخلد ، تحقيق
سهيل زكار ، دمشق ١٩٦٨ .

ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ - ٨٤٥ م) :

كتاب الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٧١ م) :

الدرر في اختيار المغازي والسير ، تحقيق د . شوقي
ضيف ، ط ٠ ثانية ، القاهرة ١٩٨٣ .

ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ / ١٢٥٠ م) :

زاد المعاد في هدى خير العباد محمد - (رحمه الله) - خاتمة
النبيين وامام المرسلين ، ج ٤ ، القاهرة ١٣٧٩ .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) :

البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ط ٠ ثالثة : بيروت ١٩٨٠ .

ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) :

سيرة النبي (ﷺ) ، راجع اصولها وضبط غريبها وعلو
حواشيها ووضع فهرسها محمد محيي الدين عبد الحميد ،
٤ مج ، القاهرة ١٩٨٣ .

البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) :

(١) فتوح البلدان ، نشر وتعليق رضوان محمد رضوان ، ط ٠ أولى ،
القاهرة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م .

(٢) انساب الاشراف ، ج ١ ، تحقيق د ٠ محمد حميد الله في مجموعة
« ذخائر العرب » رقم ٢٧ ، القاهرة ١٩٥٩ .

الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) :

تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ ج ، تحقيق محمد ابو الفضل
ابراهيم ، ط ٠ رابعة ، القاهرة [بدون تاريخ] .

المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) :

كتاب التنبيه والاشراف ، نشر دي غويه M.J. de Goeje
ليدن ١٨٩٣ .

النويري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٠ م) :

نهاية الارب في فنون الأدب ، السفر ١٧ ، نسخة مصورة
عن طبعة دار الكتب ، نشر المؤسسة العربية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة [بدون تاريخ] .

الواقدي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ — ٨٢٣ م) :

(١) فتوح الشام ، جزآن في مجلد ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٢) مغارى رسول الله ، نشر جماعة نشر الكتب القديمة ، ط . أولى ،
القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) :

معجم البلدان ، ٥ ج ، بيروت ١٩٧٧ .

اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) :

تاريخ اليعقوبى ، ٢ ج ، بيروت [بدون تاريخ] .

ثانياً - المراجع العربية

أحمد الشامى (دكتور) :

(١) فى تاريخ العرب والاسلام : حضارة العرب قبل الاسلام -
حياة محمد وظهور الاسلام ، ط . ثانية ، القاهرة ١٩٨٢ .

(٢) الخلفاء الراشدون ، ط . أولى ، القاهرة ١٩٨٢ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

(١) الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصلينى ، ط .
ثانية ، بيروت ١٩٨١ .

(٢) تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ - ١٤٥٣) ، ط . أولى ،
الاسكندرية ١٩٨٤ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

(١) دراسات فى تاريخ العرب - الجزء الثانى : تاريخ الدولة العربية ،
الاسكندرية ١٩٨٤ .

(٢) أول اشتباك حربي بين العرب والروم على مشارف الشام

تقبيل الشروع في حركة الفتوحات الاسلامية » ، بحث تحت الطبع
في المجلد الخاص بالندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة
العربية بالرياض بالسعودية سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

ثالثا — المراجع العربية

أومان (ش •) :

الامبراطورية البيزنطية ، تعريب د • مصطفى طه بدر ،
القاهرة ١٩٥٣ •

بتلر (الفرد ج •) :

فتح العرب لمصر ، عربيه محمد فريد ابو حديد ، القاهرة
١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م •

توينبى (أ •) :

(١) مختصر دراسة للتاريخ ، ٢ ج ، ترجمة فؤاد محمد شبل ،
القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦١ •

(٢) الحضارة في الميزان ، ترجمة أمين محمود الشريف ، القاهرة
[بدون تاريخ] •

ساليقان (ر • أ •) :

ورثة الامبراطورية الرومانية : الغرب الجرمانى — العالم
الاسلامى — الدولة البيزنطية ، ترجمة وتقديم د • جوزيف
نسليم يوسف ، ط • أولى ، الاسكندرية ١٩٨٥ •

هارتمان (ل • م •) و بارا كلاف (ج •) :

الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة
وتقديم وتعليق د • جوزيف نسليم يوسف ، ط • رابعة ،
الاسكندرية ١٩٨٤ •

رابعاً — المصادر الأجنبية

- Georgius Monachus (Hamartolus), cf. *Patrologia Graeca*, ed. Migne, t. CX, Paris, 1863.
- Ghévond, *Histoire des Guerres et des Conquêtes des Arabes en Arménie*. Trad. G.R. Chahnazarian, Paris, 1856.
- Nicephorus, S., *Breviarium Historicum de Rebus Gestis post Imperium Mauricii*, cf. *Patrologia Graeca*, ed. Migne, t. C, Paris, N. D.
- Sébêos, L'Evêque, *Histoire d' Héraclius*. Trad F. Macler, Paris, 1904.
- Theophanis, S.P.N., *Chronographia*, cf. *Patrologia Graeca*, Migne, t. CVIII, Paris, 1863.

خامساً — المراجع الأجنبية

- Arnold, T. & Guillaume, A. (eds.), *The Legacy of Islam*, London, 1952.
- Atiya, A.S.
- 1 *The Crusade in the Later Middle Ages*, London, 1938.
 - 2 *Crusade, Commerce and Culture*, Bloomington, 1962.
- Bailly, A., *Byzance*, Paris, 1939.
- Baynes, N.H., *The Byzantine Empire*, London, 1939.
- Baynes, N.H. & Moss, H. St. B. (eds.), *Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization*, Oxford, 1953.
- Bloy, L., *Constantinople et Byzance*, Paris, 1917.
- Bury, J.B., *History of the Later Roman Empire, from the death of Theodosius I to the death of Justinian*, 2 vols., New York, 1958.

Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin, Paris, 1920.

Grousset, R.,

1 Histoire des Croisades, 3 vols., Paris., 1948.

2 L'Empire du Levant : Histoire de la Question d'Orient, Paris, 1949.

3 The Sum of History. English version by A. & H. Temple Patterson, Oxford, 1951.

Hübschmann, H., Armenische Grammatik, Ersten-Teil : Armenische Etymologie, Leipzig, 1897.

Hussey, J.M., The Byzantine World, London, 1957.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1900.

Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey, Oxford, 1956.

Painter, S., A History of the Middle Ages : 284 - 1100, London, 1966.

Pirenne, H.,

1 Medieval Cities. English trans. by F.D. Halsey, Princeton, 1948.

2 Economic and Social History of Medieval Europe, London, 1961.

Runciman, S.,

2 Byzantine Civilisation, London, 1948.

2 A History of the Crusades, 3 vols., Cambridge, 1954-1955.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960.

Thepdschian, H., Die inneren Züslande von Arménien unter Asot I., Berlin, 1904.

الموضوع الثانى

دراسة فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية

فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى

العلاقات السياسية بين العالم العربى الاسلامى والعالم الاوروبى
المسيحى فى العصور الوسطى ، وانعكاسها على الجانب الحضارى :

أ — تفهم طبيعة العلاقات بين العالمين فى ضوء الصراع الطويل
الممتد بين الشرق والغرب •

ب — الصراع بين المسلمين والمسيحيين حلقة من حلقات الصراع
المتصل بين شقى العالم •

ج — تفهم الصراع السياسى والحضارى بين العالمين فى ضوء
توازن القوى بينهما •

الحضارة العربية الاسلامية ، ومراكز اشعاعها فى العصور الوسطى :

أ — نظرية هنرى بيرين ورد ارشيبالد لويس عليها •

ب — تفهم حركة الفتح فى ضوء فكرة الجهاد فى الاسلام •

ج — التفكير العلمى فى اوروبا فى الفترة المبكرة من العصور
الوسطى •

د — الحضارة العربية الاسلامية : دعائمها ، نشأتها وازدهارها •

هـ — مراكز اشعاع الحضارة العربية الاسلامية ، ومعاييرها الى
العالم الاوروبى المسيحى •

بعض الميادين التي أثرت فيها الحضارة العربية الإسلامية على المدنية الأوروبية في العصور الوسطى :

أ — الادب •

ب — الجغرافية والرحلات •

ج — نظم التعليم والجامعات •

المراجع

**العلاقات السياسية بين العالم العربى الاسلامى والعالم الاوروبى
المسيحى فى العصور الوسطى ، وانعكاسها على الجانب الحضارى**

**أ — تفهم طبيعة العلاقات بين العالمين فى ضوء الصراع الطويل الممتد
بين الشرق والغرب :**

للتعرف على أصول الحضارة العربية الاسلامية وجذورها العميقة
التي تمتد الى مئات خلت من السنين ، يحسن استعراض طبيعة وماهية
العلاقات التي قامت بين شقى العالم منذ القدم وحتى اليوم . فتاريخ
هذه العلاقات هو تاريخ الانسانية عبر العصور ، حيث احتكت العقول
والافكار ، وتضاربت المآثر والاهواء ، وتبدت المطامع عارية ، وقامت
الحروب الدامية ، واختفت دول وممالك وامبراطوريات وظهرت أخرى
على انقاضها ، واندثرت أنظمة وحضارات لتحل محلها مدنيات وثقافات
جديدة مغايرة . وفى زحمة هذه الاحداث والتغيرات والانتفاضات
والانقلابات قام الصراع بين شقى العالم فى شتى عصور التاريخ .
وهو ، دائما ، صراع بين قوتين كبيرتين وحضارتين متباينتين ، كل منهما
تحاول أن تفرض نفسها على الاخرى .

وقد بدأ هذا الصراع منذ اقدم العصور بحروب طروادة التي
خلدها الشاعر هوميروس فى القرن التاسع قبل الميلاد فى اشعاره
المعروفة باسم « الالياذة والأوديسية » . ثم قامت الحروب الميديّة
بين الفرس والاعريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، التي انتهت
بسيادة الاسكندر المقدونى على أكثر بقاع العالم وقتذاك ، وما استتبع
ذلك من فرض الحضارة الهلينية عليها بعد قضائه على دولة الفرس التي
أصبحت عاصمتهم المدائن احدى الولايات الداخلة فى نطاق الامبراطورية
الجديدة . واعتقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الاحداث ، وتوسعهم
فى الشرق ، وانتزاعهم السلطة من الاعريق بعد معارك عنيفة حملت

روما بعدها لواء الكفاح في الغرب ، وورثت الاغريق سلطانهم ونظمهم وحضارتهم .

هكذا بدأ الصراع بين شقى العالم في العصور القديمة ، قبل ظهور المسيحية والاسلام بقرون عدة . ولذلك لم يقدر له أن يصطبغ بالصبغة الدينية ، بل كان صراعا سياسيا وحضاريا بين قوتين كبيرتين ، يرمى الى سيطرة احدهما على الاخرى ، ومحاولة ضمها بالقوة المسلحة الى منطقة نفوذها .

ولكن الاوضاع سرعان ما تبدلت منذ أوائل القرن الرابع الميلادي ، وعلى وجه التحديد في سنة ٣١٣ م عندما أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ — ٣٣٧ م) مرسوم ميلان التي أصبحت المسيحية بمقتضاه الدين الرسمي للدولة الرومانية ، وبخاصة في القسم الشرقي منها الذي عرف باسم الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية أو دولة الروم كما كان يسميها العرب .

واخذ الصراع منذ ذلك الحين يصطبغ بالصبغة الدينية في وقت كان فيه التاريخ القديم قد طوى صفحته ، وبدأ عصر جديد في تاريخ البشرية هو العصر الوسيط . فقامت الحروب بين بلاد فارس والدولة الرومانية الشرقية ، في وقت شهدت فيه الاولى نهضة دينية كبيرة ارتطبت بالديانة الزرادشتية ، بينما كانت الثانية تدين بالمسيحية . وكان من أثر ذلك استيلاء خسرو ملك الفرس سنة ٦١٤ م على بيت المقدس والصليب الذي يعتقد المسيحيون ان المسيح صلب عليه . وكان رد الفعل هو تلك الحروب المضادة التي قام بها الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) التي انتهت سنة ٦٢٨ م باسترداده بيت المقدس وصليب الصليبوت من قبضة الفرس .

وفي أوائل القرن السابع الميلادي ظهرت قوة جديدة في الميدان

بظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، وقيام الدولة العربية الفتية .
واصبح الكفاح منذ ذلك الحين بين المسلمين والبيزنطيين من ناحية ، وبين
المسلمين واللاتين من ناحية أخرى ، أمرا واقعا . وقد امتد حتى أواخر
العصور الوسطى . وكانت اهم مراحلها وأكثرها ضراوة هي الحروب
الصليبية التي شغلت القرون الثانی عشر والثالث عشر والرابع عشر
الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) .

ويستمر الحال على هذا المنوال الى أن برغت شمس النهضة التي
آذنت بنهاية القرون الوسطى بمبادئها ونظمها وفلسفتها ،
وبداية العصور الحديثة بأوضاعها المغايرة . وفيها يأخذ الصراع مظهرا
جديدا يتلائم ومقتضيات الظروف والمتغيرات السياسية والاقتصادية
والاجتماعية في العالم ، ونعني بذلك بداية التوسع الاوروبي في العالم
العربي والشمال الإفريقي بخاصة ، وفي آسيا وإفريقية بصفة عامة .
واستتبع ذلك يقظة الشعوب العربية الآسيوية الإفريقية ، وقيامها من
سبابتها لتحرير نفسها من ربقة الاستعمار في شتى صورته ومظاهره .

واذا امعنا النظر في حقيقة الصراع الذي قلام بين شقى العالم
خلال العصور المتعاقبة ، نجد أنه اتخذ في كل عصر شكلا معيناً يتناسب
والظروف القائمة وقتها ، وان اتحد في الغاية والهدف . فقد كان في
العصور القديمة صراعا سياسيا حربيا حضاريا في عالم يدين بالوثنية ،
بينما اتخذ العالم الاوروبي المسيحي من الدين في العصور الوسطى
ستارا لتحقيق نفس الاغراض والغايات . وفي العصر الحديث بدا
الصراع سافرا ، سواء اتخذ الشكل العسكري أو الاقتصادي أو غيرهما
من الأساليب . وهكذا تشابهت اسباب هذا الصراع الطويل المبر في
شتى مراحلها ، وان بدا في كل مرحلة في ثوب مغاير . أو هو بمثابة
حلقات متتابعة في سلسلة واحدة ممتدة عبر القرون والاجيال .
والاقوى فيه . — عادة — يوجه الضربة الاولى الى الاضعف ، محاولا
احتواءه وفرض سيطرته وحضارته عليه .

ب — الصراع بين المسلمين والمسيحيين حلقة من حلقات الصراع المتصل بين شقى العالم :

كانت الحروب الصليبية التى شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، مرحلة هامة من مراحل الكفاح العنيف بين شقى العالم • وهى لم تقم فجأة ولم تنته فجأة ، انما جاءت نتيجة عمليات تطور بطيئة مستمرة فى فترات متباعدة غير قصيرة ، كما أنها تركت آثارها لاحقاب أخرى بعد نهايتها بمعناها الدقيق • وعلى هذا من الخطأ أن نضع الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين المراحل التى سبقتها وتلك التى اعقبتها • فهذا الصراع عبارة عن مجموعة مترابطة من الوقائع والاحداث ، ومن العقل والفكر والنظم والحضارة ، المترابطة المتماسكة التى لايمكن تفتيتها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها ، وان كل مرحلة فيها ما هى الا فترة انتقال من السابق الى اللاحق • لهذا لايمكن الأخذ بفكرة بدايتها أو نهايتها فى سنة معينة أو يوم بذاته • فتحديد السنين والتواريخ مسألة اعتبارية بحتة المقصود بها تسهيل فهم أى موضوع وتقريبه الى الاذهان قدر الاستطاعة •

ويمكن القول ان هذه الظاهرة التاريخية تمثل روح العالم الاوروبى الوسيط والافكار السائدة فيه وقتذاك تمثيلا صادقا فى ناحيتين هامتين رئيسيتين هما : ناحية الدين وناحية الحرب • فالاولى أوجت بها منذ البداية الديانة المسيحية التى سادت أوروبا بعد صراع رهيب مع الوثنية واباطرة الرومان فى اخريات عهدهم • واصبح للدين والكنيسة قوة عظيمة فى تلك القرون حتى أن كل من كان يخالف تعاليمها كان يعرض نفسه لاشد أنواع العقاب • وما أكثر اسلحة الكنيسة التى كانت تستخدمها ضد معارضيها ، وبخاصة فى ميدان السياسة ، من حرمان ولعنة ونقمة وقطع • لقد تحكمت بحكم الظروف التى احاطت بنشأتها عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، فى مقدرات الافراد ، وفى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الامر والنهى ، وعلى الجميع السمع والطاعة • وبلغت ذروة سطوتها اثناء الصراع الذى قام بينها وبين

انقوى الزمنية في الغرب وعلى رأسها الامبراطورية حول المسائل العلمانية . فأخذت تنكل بالباطرة والملوك والامراء ، تحقيقا لمصالحها واطماعها التي لم تكن تقف عند حد .

وهكذا عاش الفرد في المجتمع الاوروبى الوسيط ، وبخاصة في الشق الغربى منه ، داخل هذه الدائرة الضيقة المغلقة التي وضعت فيها الكنيسة ، لا حول له ولا طول . هذا عن الدين ، أما عن الحرب فهي تقتزن بالعناصر الجرمانية التي غزت أوروبا وقضت على الامبراطورية الرومانية ، واقامت على انقاضها دولا وممالك جديدة ذات أنظمة جديدة مغايرة ، تختلف تماما عما كان سائدا عند الرومان القدماء . وهذه العناصر الجرمانية ترتبط بالنظام الإقطاعى وما يلحقه من نظم الفروسيه ، حيث يبرز الفارس ما تعلمه من فنون القتال . وقد تأثر العقل الاوروبى الوسيط بهاتين الفكرتين تأثرا كبيرا حتى أنه عندما دعا أحد بابوات روما ، وهو البابا اربان الثانى ، الى حمل الصليب في خطبته التي القاها في ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥ م في مؤتمر كليرمون بفرنسا ، وجد تجاوبا عجيبا من كافة الطبقات والطوائف والهيئات . واندفع الناس للانخراط في سلك هذه الحروب من كل فج وصوب في الغرب ، ذلك لانها اصطبغت بصبغة الدين والحرب . فالدين غدا من الصق الاشياء بحياة الناس وقتذاك ، بينما كانت الحرب صناعة الفارس الاولى . ويكفى أن النجاح الذي لاقته تلك الدعوة في بدايتها فاق بكثير ما كان يأمله اربان نفسه بشهادة المؤرخين اللاتين القدماء الذين عاصروا احداثها وكتبوا عنها مثل فوشيه دى شارتر والبرت دكس وريمون داخيل والمجهول مؤرخ حملة بوهيموند النورماندى وروبرت الراهب ، ومن نقل عنهم من الحديثين مثل رينيه جروسيه وستيفن زانسيمن .

والحروب الصليبية ، ولو أنها تتفق مع الحروب السابقة عنها واللاحقة لها في حقيقة دوافعها واتجاهاتها التوسعية ، الا أنها تختلف

عنها اختلافا بينا من حيث طبيعتها وماهيتها وخصائصها • فلها كياناتها ومتوماتها والاسس التي ترتكز عليها ، مما يجعل لها وضعاً خاصاً في تاريخ التوسع والاستعمار • وهى ، ايضا ، كثيرة معقدة امتدت ثلاثة قرون من الزمان ، اتصل فيها الكفاح بين الغرباء الوافدين من الغرب وبين أصحاب البلاد الاصليين • وتعرف حروب القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) بالحروب المبكرة ، والحملة الرئيسية منها تسع لما تميزت به من دوافع أدت بحق الى اعتبارها حملات مستقلة قائمة بذاتها • أما حروب القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) ، فقد عرفت اصطلاحاً بالحروب الصليبية المتأخرة ، وقد تضمنت عدة حملات كبيرة من أهمها حملة بطرس الاول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون على مهدية تونس سنة ١٣٩٠ م ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م • وللم تكن هذه الحملات ، المبكرة منها والمتأخرة ، قاصرة على أمة معينة أو جنس بذاته • فقد اشتركت فيها جميع فئات وطوائف واجناس الغرب الاوروبى ، كل حسب طاقته وظروفه • ولهذا كان المظهر الدولى هو الطابع المميز لها •

وجدير بالذكر ان اصطلاح « الحروب الصليبية » اطلق على كثير من الحروب التي قامت بين المسلمين والمسيحيين ، والتي تختلف عنها في طبيعتها وخصائصها ومميزاتها • فينظر بعض المؤرخين ، وعلى رأسهم رينيه جروسيه وتوماس ارنولد ، الى الامبراطور البيزنطى هرقل باعتباره أول المحاربين الصليبيين فيما يتعلق بحروبه ضد المسلمين وهزيمته امام القوات الاسلامية في واقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م • ويكفى ان المؤرخ اللاتينى وليم الصورى الذى عاصر شطرا من الحركة الصليبية ، اشار في بداية كتابه الى حروب هرقل باعتبارها ممهدة للحركة الصليبية نفسها • وهناك من يرى ان حروب الدولة البيزنطية في عهد

الاسرة المقدونية ضد المسلمين في الشرق الادنى في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (القرنان الثالث والرابع الهجريان) ، وبخاصة في عهد كل من الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ، وخلفه يوحنا ترمسكيس المعروف عند العرب باسم حنا الشمشق (٩٦٩ — ٩٧١ م) ، هي ايضا من قبيل الحروب الصليبية . وأنه من باب التجاوز تعريف هذه الحروب التي قامت بها بيزنطة ضد المسلمين بالحروب الصليبية التي تختلف في مدلولها الدقيق عن تلك الحملات البيزنطية . وهي وان اصطفت بالصبغة الدينية في وقت ما ، فقد كان يغلب عليها العنصر السياسى بحكم متاخمة الحدود بين العالم البيزنطى والشرق الادنى الاسلامى .

وهناك فئة اخرى من المؤرخين تعتبر حروب مسيحيى الغرب ضد المسلمين في اسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا في القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد (القرنان الرابع والخامس الهجريان) ، هي الاخرى حروبا صليبية . وعلى رأس هذا الفريق المؤرخان ارنست باركر ، وشارل هومر هاسكنز . بل أن هناك من يرى ان الحروب التي قامت بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى منذ بدء الدعوة الاسلامية في بدايات القرن السابع وحتى بدايات القرن السادس عشر الميلادى (من القرن الاول حتى القرن العاشر الهجرى) ، دون اعتبار للزمان أو المكان ، حروبا صليبية . وهذه التسمية بعيدة عن الحقيقة . ويمكن تعريف مثل هذه الحروب بأنها مقدمة للحركة الصليبية أو الحروب الممهدة لها . ويأخذ بهذا الرأى كل من جروسىه ورانسىمان . ويطلق بعض المؤرخين الحديثين على الحروب التي قامت في القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) اسم « الحروب الصليبية المتأخرة » تمييزا لها عن الحروب الصليبية المبكرة . ويأخذ بهذا الرأى عزيز سوريال عطية . وهي ، في واقع الامر ، خاتمة الحروب الصليبية الاولى وجزء لا يتجزأ منها ، باعتبارها من أهم نتائجها وآثارها .

وبناء على ماتقدم ، عندما نقول ان الحركة الصليبية بدأت في عام ١٠٩٥ م (٤٨٧ هـ) وانها انتهت في عام ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) ، فهذا لايعنى أنها بدأت دون ممهّدات أو سابق انذار ، أو أنها انتهت دون أن يترتب عليها نتائج وآثار في الاحقاب التالية . لقد اعتبرت سنة ١٠٩٥ م كبدائية لها ، لأنها السنة التي أعلن فيها البابا اربان الثانى تلك الحركة في كيرهنون ، والتي دعا فيها الى حمل الصليب للاستيلاء على فلسطين وتأسيس امارات لاتينية هناك . كما اعتبرت سنة ١٢٩١ م كنهاية لها ، لأنها السنة التي استولى فيها السلطان المملوكى الاشرف خليل على مدينة عكا ، وهى آخر معاقل الفرنج الحضيضة بالساحل الشامى . لذا لايمكن للباحث المدقق أن يأخذ بهذا التحديد الزمنى الجاف . فقد كانت روح هذه الحركة وصفاتها موجودة في الغرب قبل سنة ١٠٩٥ م بعشرات بل بمئات من السنين ، ولم يكن ينقصها سوى أن تصطبغ بالصبغة الرسمية ، وان يوجد الرجل الذى يعلن مولدها ، والظروف التى تسمح بذلك ، وقد تم هذا في عام ١٠٩٥ م . كذلك إتفق المؤرخون على اعتبار سنة ١٢٩١ م بمثابة نهاية هذه الحركة . ولكن بالرغم من ذلك قامت مشاريع وحملات اخرى تحمل نفس الطابع خلال القرن الرابع عشر ، والتي تعتبر امتدادا للفكرة الصليبية واستمرارا لها . والواقع الذى لاخلاف بشأنه انه كانت هناك عوامل كثيرة مختلفة متشابكة معقدة متفاوتة التأثير مهدت لتلك الحركة وادت في نهاية الامر الى قيامها . ولم تكن هذه العوامل بنت يوم وليلة ، وانما استغرقت وقتا طويلا قبل الحروب الصليبية نفسها . كما ظلت هذه الفكرة بعد سقوط عكا نحو قرن من الزمان ، ولم تفقد صفاتها الحقيقية بمدلولها الدقيق الا بعد القرن الرابع عشر . بل ان هناك من يرى ان حروب المسيحيين ضد غرناطة الاسلامية في أخريات القرن الخامس عشر الميلادى (أواخر القرن التاسع الهجرى) هى امتداد طبيعى للحروب الصليبية .

وخلاصة القول ان الصراع السياسى والحضارى بين المسلمين والصليبيين هو ، فى حقيقته ، دور من ادوار الصراع العام بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى ، منذ ظهور الاسلام فى أوائل القرن السابع وحتى نهاية العصور الوسطى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (ق ١ — ٩ هـ) .

ج - تفهم الصراع السياسى والحضارى بين العالمين فى ضوء توازن القوى بينهما :

لا يمكن تفهم حقيقة الصراع السياسى والحضارى بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى الحقبة الوسطى من التاريخ ، الا فى ضوء بعض الافكار والمفاهيم الهامة ، ستلقى بدورها الاضواء على الحضارة العربية الاسلامية ومعايير انتقالها الى العالم الاوروبى . وأول هذه المفاهيم يتعلق بما يعرف بعصور القوة والتماثل والتكفل ، وعصور الضعف والتفكك والتأخر فى كلا العالمين ، منذ أوائل القرن السابع وحتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (ق ١ — ٩ هـ) . وهذا سوف يفسر لماذا كان الخط البيانى يرتفع احيانا ليسجل ذروة القوة والمنعة فى أى من العالمين ، ثم لا يلبث ان ينخفض ليشير الى فترة من التدهور والانحلال ، وما يترتب على ذلك من نتائج وآثار .

وثمة فكرة أخرى ترتبط يسابقتها ، وهى التغير الذى طرأ على توازن القوى بين العالمين واسبابه . وفى الوقت الذى ترجح فيه كفة ان العالم الاوروبى فى أى من جبهتيه ، لا يكون ميزان القوى فى صالح المسلمين اطلاقاً . وبالعكس ، عندما ترجح كفة العالم الاسلامى فى المشرق أو المغرب ، كان يقابل ذلك انحطاط وتدهور فى أوروبا ، ويميل مركز الثقل الى جانب المسلمين . ومن هنا عندما يشعر الاوروبيون بأنهم الاقوى ، كانوا يقومون بهجماتهم على العالم العربى الاسلامى ، ويحرزون عادة انتصارات سريعة خاطفة . وعندما يستجمع المسلمون

قواهم ويكتلون انفسهم ، كانوا يقومون بهجمات وحروب مضادة تنتهى عادة بالحاق الهزيمة والخذلان بالجانب الآخر ، واستعادة ما استولى عليه . وعندما يعتدل ميزان القوى بين العالمين ، يعنى هذا عدم امكان أى منهما من احراز نصر حاسم على الآخر . وباختصار ، فقد اتخذ كل من الاوروبيين والمسلمين فى عصور القوة بالنسبة لكل منهما سياسة الهجرم حيال انطرف الآخر ، بينما التزم كل منهما بسياسة الدفاع عن نفسه وعن كيانه بوجه عام فى عصور الضعف . ويرتبط كل هذا — الى حد بعيد — بالظروف والاحوال السائدة فى كلا العالمين من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وغيرها . وعلى هذا ، عندما يعتدل ميزان القوى فى الصراع بين الفريقين ، كان هذا يعنى نوعا من الهدنة المؤقتة ، أو فترة من التربص والانتظار والاستطلاع وجس النبض ، مع الاستعداد والترقب لحين موافاة الفرصة المواتية للانقضاض . والنجاح يكون آخر الأمر لمن تهيب له الظروف رجحان كفته . واذا حدث أثناء اعتدال ميزان القوى ان وقع اشتباك بين الطرفين ، فانه لا يكون حاسما أو فاصلا . ويرتبط ما ذكرناه ببعض الافكار مثل الافعال وردود الازمال ، والاسباب والمسببات ، والنتائج والخوايتم . بمعنى ان لكل فعل رد فعل ، ولكل نتيجة سبب .

واذا انتقلنا من النظرية الى التطبيق ، فسوف نجد امثلة عديدة نستمدّها من احداث التاريخ . فبعد ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية الاسلامية ، فتية شامخة ، مترامية الاطراف من المحيط الى الخليج ، كانت اوروبا بشقيها الشرقى والغربى تعاني من التدهور والفوضى والاضطراب ، بعد سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة وغزوات البرابرة . ولذلك كانت كفة العالم العربى الاسلامى هى الراجحة فى كفاحه ضد كل من الدولة الرومانية الشرقية والغرب الاوروبى أثناء حركة الفتوحات . وقد لحقت بهما هزائم عديدة خلال القرون الثلاثة الاولى وبدايات القرن الرابع للهجرة (القرون السابع

والثامن والتاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى) • وانتهى الأمر باقتطاع اجزاء كبيرة من ممتلكات دولة الروم فى القطاع الشرقى ، واهمها مصر وانشام وجانب من آسيا الصغرى • وامتد التقدم الاسلامى غربا الى اسبانيا ، فاستولى المسلمون على الاندلس وعبروا جبال البرانس الى فرنسا • وتوقفت فتوحاتهم فى قلب اوروبا بمعركة بواتيه سنة ٧٣٢ م ايام شارل مارتل الذى يعرف فى المصادر العربية باسم شارل المطرقة ، بينما تعرف المعركة باسم معركة بلاط الشهداء • وقد ظل الصراع سجالا بين المسلمين ودولة الروم فى عهد الخلافة الاموية ، وبخاصة أيام كل من معاوية بن ابى سفيان وسليمان بن عبد الملك ، وايضا فى عهد الخلافة العباسية وبخاصة زمن كل من المأمون والمعتصم • وكان هدف هذه المحاولات الاستيلاء على القسطنطينية حتى يأمن المسلمون من مضايقات بيزنطة لهم • كذلك استولى المسلمون على معظم جزر البحر المتوسط مثل كورسيكا وسردينيا • وفى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) استولوا على كريت ، وفى أوائل القرن العاشر الميلادى (أوائل القرن الرابع الهجرى) استولوا على صقلية وجنوب ايطاليا • وهكذا اصبح انبحر المتوسط بحيرة اسلامية بعد أن كان بحرا رومانيا حسبما يقول المؤرخ هنرى بيرين •

وهكذا وقفت اوروبا مكتوفة الايدي امام الفتوحات الاسلامية فى البر والبحر ، التى كانت فى حقيقتها نشرا للدعوة وتأمينا لها من مناوشات ومضايقات جيرانها المستمرة على الحدود • وكان طبيعيا أن يصاحب ذلك انتعاش حضارى فى العالم العربى الاسلامى شمل مختلف النواحي والمجالات ، بينما لازمه ركود وخبو فى حضارة اوروبا ، حيث انعدمت الأصالة فى العلوم والآداب والفنون ، وتدهورت اللغة اللاتينية ، وعم الجهل • وكان طبيعيا ، ايضا ، ان يأخذ الاضعف من الاقوى ، والاقل مدنية من الاكثر رقيا وحضارة • وتم ذلك عن طريق

مراكز الاثناعشر الثقافي العربية الاسلامية التي وجدت آنذاك ، وأهمها صقلية وجنوب ايطاليا والاندلس .

ولكن منذ أوائل القرن العاشر الميلادي (بدايات القرن الرابع الهجري) حدث تغير في توازن القوى بين العالمين العربي الاسلامي والاوروبي المسيحي . اذ بدأت الدولة البيزنطية تسترد قوتها في عهد الاسرة المقدونية ، بينما أخذ التفكك والانقسام يدبان في أوصال العالم العربي الاسلامي . وكانت النتيجة ضربات قوية وجهتها بيزنطة الى المسلمين في الشرق الادنى ، واحرزت فيها عدة انتصارات .

ومع بدايات القرن الحادي عشر الميلادي (بدايات القرن الخامس الهجري) ، كان الغرب الاوروبي ، هو الآخر ، قد آفاق من كبوته بعد قرون طويلة من الظلام ، وبدأ يسترد انفاسه اللاهثة ، ويشق طريقه نحو التقدم ، بعد توقف غزوات البرابرة واستقرار الاحوال هناك . هذا ، بينما ازداد الخلف والانقسام ، السياسي والمذهبي ، في العالم العربي الاسلامي ، واتسعت هوته . وكان هذا يعني أن زمام المبادرة أصبح في يد الغرب . ولذلك وجه الغربيون ضرباتهم ضد العالم العربي الاسلامي بالاستيلاء على صقلية والجنوب الايطالي خلال القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) . بينما كانت الممالك المسيحية في شمال اسبانيا ، وعلى رأسها اراجون ووليون وقشتالة ونافار ، تساندها بقية دول الغرب وفي مقدمتها فرنسا ، في صراع ضد المسلمين لخراجهم من شبه الجزيرة اليبيرية . وبعد ذلك ، وجه الغرب اللاتيني أولى ضرباته القوية ضد الشرق الادنى الاسلامي في أخريات ذلك القرن فيما عرف باسم الحملة الصليبية الاولى التي انتهت بتأسيس مملكة وثلاث امارات صليبية في فلسطين على حساب الضعف والتمزق العربي وقتها . فالدولة الفاطمية في مصر والشام في طور الاحتضار ، والخلافة العباسية في بغداد تعاني من الضعف والانقسام ، والسلاجقة في آسيا الصغرى يقطعون من أملاك هذه وتلك . ونتيجة لذلك توقف

المد الحضارى الاسلامى بصفة مؤقتة ، فلم تكن الظروف السياسية وقتها لتسمح باستمرار انطلاقه . وان كان العالم العربى الاسلامى قد تمتع فى بقية القرن العاشر وخلال القرن الحادى عشر للميلاد (بقية القرن الرابع وخلال القرن الخامس للهجرة) بنوع من الازدهار الحضارى ، فان ذلك يعتبر من نتاج عصر القوة الذى عاش فى ظله هذا العالم .

ومع بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى) ، حدث ، مرة أخرى ، انقلاب فى موازين القوى بين العالمين . اذ استشعر العرب بالخطر الماثل الذى كاد ان يأتى على الأخضر واليابس . وترتب على ذلك أن ظهرت بوادر صحوة عربية اسلامية فى اعالى الشام والعراق ، كان من روادها الاول مودود واق سنقر البرسقى ، وهدفها ايجاد تكتلات ثنائية لوقف الخطر الصليبي ومنع استفحاله . وقد تطورت هذه الصحوة الى يقظة عربية اسلامية شاملة أيام عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي ، استهدفت توحيد مصر والشام فى جبهة واحدة بحيث يصبح افرنج الشام بين شقى الرحى . وهنا حدث اعتدال فى كفتى الميزان اثناء الصراع السياسى بين اوروبا المسيحية والعالم العربى الاسلامى ، بحيث لم يكن بوسع اى منهما توجيه ضربة حاسمة الى خصمه . فكانت فترة ترقب وترقب وانتظار . وبكلمة أخرى ، لم يعد بوسع الغرب الاوروبى مواصلة توجيه ضربات مؤثرة ضد المسلمين . وآية ذلك أن كل الحملات الصليبية التى وجهها الغرب ضد المشرق والمغرب الاسلاميين اعتبارا من الحملة الثانية قد باءت بالفشل . وترتب على ذلك ان الحضارة العربية الاسلامية بدأت ، من جديد ، تستأنف ازدهارها وانطلاقها . بمعنى ان ازدهار الحضارة العربية الاسلامية كان يسير جنبا الى جنب مع القوة السياسية للعالم العربى الاسلامى نتيجة ترابطه وتماسكه ، والعكس صحيح .

ومع التكتل العربى الاسلامى ، وبخاصة فى منطقة الشرق الادنى ، ايام خلفاء صلاح الدين من بنى ايوب وسلاطين دولة المماليك الاولى ، اصبح مركز الثقل يميل بشكل واضح لصالح المسلمين ، بينما بدأ الضعف يدب فى انكيان اللاتينى المتداعى فى الاراضى المقدسة لاسباب عديدة متداخلة فى بعضها ، فى الوقت الذى انشغلت فيه اوروبا عن نجدة اخوانها افرنج الشرق بسبب مشاكلها الداخلية ، وفتور الحماسية الدينية للفكرة الصليبية نفسها ، وتشكك الاوروبيين فيها وفى جدواها وفائدتها . وهكذا اصبح زمام المبادرة فى يد المسلمين الذين اخذوا يوجهون ضرباتهم القوية الى المعقل والحصون الصليبية فى الشام ، الى أن انتهى الامر باخراجهم منها فى عهد الظاهر بيبرس ، والمنصور سيف الدين قلاوون ، وابنه الاشرف خليل فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) . وواصلت الحضارة العربية الاسلامية انتعاشها وتألقها ، ووجد مركز اشعاع آخر كنتيجة للحروب الصليبية ، تمثل فى مصر والشام ، يضاف الى المعابر التى اسلفنا اليها . وعن طريقه انتقلت العلوم والمعارف العربية الاسلامية الى العالم الاوروبى المسيحى ، فى وقت كان فيه متعطشا لذلك . وقد بنى عليها نهضته التى عرفت باسم « عصر النهضة الاوروبية » ، الذى يرتبط بالعصر الحديث ومدنيته العملاقة .

تلك هى الحقيقة الاولى التى ترتبط بموازين القوى ومراكز الثقل فى الصراع بين العالمين ، والارتباط الوثيق بينها وبين الاوضاع السياسية والحضارية فى كل منهما . أما الحقيقة الثانية فتتجلى فى أن الصراع بين العالمين كان يبدأ ، عادة ، بهجمات اوروبية ، كتلك التى قامت بها بيزنطة ضد العرب فى المشرق الاسلامى فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (القرنان الثالث والرابع الهجريان) ، والتى شنّها الغرب ضدهم فى الغرب الاسلامى فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين (القرنان الرابع والخامس الهجريان) ، أو التى قام بها عند بداية الحركة

الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر ، وايضا حملات القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) • وقد استهدفت الحملات الصليبية المبكرة والمتأخرة العالم العربى الاسلامى من اقصاه الى اقصاه • ويلاحظ انه كان يعقب كل هجوم اوروبى يقظة عربية اسلامية ، وحملات مضادة • مثال ذلك يقظة القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) التى اشرنا اليها من قبل • وكذلك الهجمات العربية الاسلامية المضادة التى قام بها المماليك والأتراك العثمانيون خلال القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر للميلاد (القرن التاسع وبدايات القرن العاشر الهجرى) ، ردا على الحروب الصليبية المتأخرة فى القرن الرابع عشر الميلادى •

ولمزيد من الايضاح بالنسبة لهذه الفكرة نقول ان الضربات التى كان انعالم الاوروبى المسيحى يوجهها ضد العالم العربى الاسلامى ، تبدأ عادة عندما يكون الاخير منقسما على نفسه وفى حالة ضعف وتفكك ، وتنتهى غالبا بانتصارات سريعة خاطفة على حساب المسلمين • ثم يعتب ذلك استشعار المسلمين بانفسهم بالخطر وعواقبه ، ومبادرتهم بالتكتل والتجمع « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » و « ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » • وغالبا ما تكون حركات التجمع العربى الاسلامى هذه فى أول الامر محلية وفى مناطق الخطر نفسها ، بقصد العمل على منع امتداده واستفحاله • وكانت تحرز نجاحا جزئيا وليس نهائيا أو حاسما • ولكنها ، على أية حال ، كانت تعتبر البداية الطبيعية لحركة اليقظة الشاملة التى تؤدى الى التثام شمل الشعوب العربية الاسلامية فى وحدة واحدة تحس بالخطر المشترك وتدرئ ابعاده ، وتقدر عواقبه ومضاعفاته ، وتستعد لدفعه ودرء خطره ، « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » •

وكانت هذه المراحل المتتابعة تؤدى فى نهاية الأمر الى المرحلة الاخيرة ، والمقصود بها الجهاد الاكبر أو الجهاد المقدس « انفروا خفافا

وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ، ذلکم خير لکم ان کنتم تعلمون » . ويكون لهذا الجهاد نتائج الحاسمة في ظل الظروف والمتغيرات السياسية ، وينتهي باحراز النصر على الدخلاء « ان ينصرکم الله فلا غالب لکم » و « نصر من الله وفتح قريب » .

ولو امعنا النظر في الصراع السياسى والحضارى بين العالمين العربى الاسلامى والاوروبى المسيحى خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ ، وتتبعنا مراحله من بدايتها الى نهايتها ، لأمكننا تفهم هذه الفكرة التى استعرضناها .

وثمة فكرة أخرى ترتبط بسابقتها ، وهى أنه ضمانا للنصر الحاسم الاكيد ، يجب أن تسبق عملية الجهاد الاكبر ، عملية الجهاد الاصغر . والمقصود بذلك عملية توحيد الجبهة العربية الاسلامية . فهى مرحلة أولى ضرورية من مراحل هذا الجهاد الطويل الممتد . وهذه ظاهرة دورية عامة في تاريخ العروبة والاسلام منذ الفتح فصاعدا . مصداق ذلك ان صلاح الدين ، ومن قبله نور الدين محمود ، لم يقوما بجهادهما المعروف ضد الفرنج في الاراضى المقدسة ، الا بعد اطمئنانهما على تأمين الجبهة الاسلامية في منطقة الشرق الادنى وتوحيدها . لقد كانت السياسة العامة التى سار عليها الزعماء والحكام العرب وقتذاك ، هى الامتناع قدر الاستطاعة عن مهاجمة الامارات اللاتينية بالشرق ، أو المغامرة في حرب واسعة مع الخصم في الوقت الذى كانوا يوحّدون فيه جبهتهم ، اللهم الا اذا دعت الضرورة الى اتخاذ موقف خلاف ذلك . وقد تنبه الى ذلك أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو وليم ستيفنسون ، وأشار الى هذه الحقيقة في كتابه « الصليبيون في الشرق » . والخلاصة أن المسلمين خرجوا من كفاحهم مع اعدائهم عبر العصور بدرس هام هو ان عملية تكتيل القوى العربية الاسلامية مرحلة اساسية لا غنى عنها يجب أن تسبق مرحلة الجهاد المقدس ضمانا لنجاحه .

والواقع الذى لا خلاف بشأنه هو ان الوحدة العربية الاسلامية وجدت منذ أن وجد المسلمون • وهى وحدة قائمة غير مكتوبة على ورق، وحدة لها جذورها التى تمتد فى اعماق التاريخ، وحدة تفرض نفسها فى اوقات المحن والازمات التى مر ويمر بها العالم العربى الاسلامى • فعندما كان العدو يهاجم إحدى الدول العربية، كانت الشعوب العربية تهب من كل مكان للانتقام منه ودفعه • وتروى المصادر أن مصر عندما كانت تتعرض لهجوم صليبي، يبادر أهل الشام بالهجوم على معقل الضربج فى الاراضى المقدسة، وذلك بقصد مضايقتهم ومحاولة صرفهم عن غنائم قادمون عليه • وكان هذا هو نفس ما يحدث عندما تتعرض بلاد الشام لعدوان صليبي، فيبادر المصريون الى مساندة اخوانهم فى الشمال ضد العدو المشترك • كذلك وجد ارتباط روحى ومعنوى قوى بين مسلمى المشرق والمغرب خلال تلك الحقبة من الزمن • فبينما كان الاولون يجاهدون ضد الفرنج فى شرقى البحر المتوسط، كان اخوانهم المغاربة يجاهدون هم أيضا ضد الاوروبيين فى غربى ذلك البحر •

واذا تتبعنا هذه الحقيقة فى شتى مناحى الحضارة والحياة فى العالم العربى الاسلامى من المحيط الى الخليج، سوف نجد أنها حقيقة اصيلة يؤيدها الواقع • وهى تعبر عن وحدة عضوية شاملة لها أصولها وجذورها، ولها عناصرها ومقوماتها، منذ أن وجد الاسلام ليؤدى دوره الانسانى والحضارى على مسرح الحياة • وحدة فى اللغة، وفى الدين، وفى الأصل، وفى الجنس، وفى الارض، وفى التاريخ • فضلا عن وحدة فى التقاليد والعادات والتراث والثقافة والفكر والنظم الاجتماعية • وحدة فى المشاعر والآمال والآلام • وحدة تكشف عنها، كما اثبت الاستاذ الدكتور أحمد فكرى فى موسوعته الرائعة « مساجد القاهرة ومدارسها »، ناحية هامة من نواحي الحضارة العربية الاسلامية، ونعنى بها الفنون التى تعتبر مرآة صادقة تتعكس عليها مبادئ الشعوب ومثلها وافكارها ومنهجها فى الحياة • وحدة كانت تبعثها وتوقظها من غفوتها احداث الزمان للوقوف فى وجه أى عدوان، أيا كان مصدره، وفى شتى صوره ومظاهره، وفى مختلف عصوره •

الحضارة العربية الإسلامية

ومراكز إشعاعها في العصور الوسطى

أ - نظرية هنرى بيرين ورد أرشيبالد لويس عليها :

يقول أحد المؤرخين الغربيين الحديثين ، وهو هنرى بيرين ، في كتابه « تاريخ أوروبا الاجتماعى والاقتصادى في العصور الوسطى » ، ان حركة الفتوحات الإسلامية تعتبر حدا فاصلا بين التاريخ القديم بمثله ومفاهيمه والعصر الوسيط بأوضاعه الجديدة المغيرة . ويرى أن تلك الحركة جعلت من البحر المتوسط حاجزا بين شقى العالم بعد أن كان حلقة وصل بينهما ، وانها سبب ما اصاب أوروبا من كوارث وانهايار اقتصادى . وخلاصة هذه النظرية أن حركة الفتوحات أدت الى سيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وأنه ترتب على ذلك توقف التجارة بين الشرق والغرب ، وتوقف الحياة الاقتصادية في الغرب .

ويزيد بيرين الامر وضوحا فيقول أنه بظهور الاسلام في القرن السابع الميلادى وقيام حركة الفتوحات ، تغير الوضع في العالم المعروف وقتها . فأصبح البحر المتوسط بحرا عربيا اسلاميا يفصل بين الشرق العربى الاسلامى والغرب الاوروبى المسيحى . ويستطرد قائلا ان المسلمين نجحوا في اقتحام البحر الادرياتي ، وغزو جنوب ايطاليا ، والبحر التيرانى ، وتوغلوا حتى اسبانيا ، واصبحت جزر البليارد وكورسيكا وسردينيا وكريت وصقلية مراكز تجارية هامة للامباطيل الاسلامية ، وان كل هذا قضى على نشاط أوروبا التجارى منذ القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) . وخلص من ذلك أن البحر المتوسط بعد أن كان بحرا رومانيا أصبح بحرا عربيا اسلاميا ، وبعد أن كان حلقة اتصال بين الشرق والغرب أصبح حاجزا بينهما ، مما أدى الى كساد النشاط التجارى لدول الغرب ، وتدهور المدن الغربية

وتضاعل سكانها ، واخيرا تدهور الحياة الثقافية فيها ، الامر الذى هيا الجو لظهور عصر الاقطاع .

ولكن احدث البحوث التاريخية المنزهة عن الميل والهوى ، اثبتت عدم صحة نظرية بيرين . اذ اثبت العالم ارشيبالد لويس فى كتابه « القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط » ، ان حركة التجارة بين الشرق والغرب لم تتوقف بسبب حركة الفتح الاسلامى ، بل استمرت وان كان قد تضاعل حجمها نتيجة الظروف التى كان يمر بها العالم وقتذاك ، وان السبب الجوهرى لما حل بالغرب هو انهيار الاقتصاد الاوروبى فى نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط . اذ أصبح اقتصادا زراعيا يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى غير المتطور ، مما قضى على كل نشاط فى المجالين الصناعى والتجارى ، الامر الذى اصاب الحضارة الاوروبية فى الضميم . وقال ان ذلك كله حدث قبل ظهور الاسلام وقبل حركة الفتوحات بمئات من السنين . وبذلك انهارت تماما دعاوى بيرين بعد أن ثبت عدم صحتها ، وقيامها على أساس غير سليم .

ب — تفهم حركة الفتح فى ضوء فكرة الجهاد فى الاسلام :

جدير بالذكر أن عددا من المؤرخين الاجانب ، القدامى والحديثين ، نظروا الى الفتوحات الاسلامية نظرة حقد وتعصب لا تتفق بحال مع الامانة العلمية . وحاول البعض التقليل من شأن العرب وحماستهم . بينما فسر البعض الآخر حركة الفتح بأنها حركة استعمارية توسعية تستهدف الغزو والتوسع .

وبالبحث المدقق يدرك ان حركة الفتح ، وما ترتب عليها من قيام الدولة العربية الاسلامية ، وازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، كانت وليدة ضرورة سياسية وحربية اقتضتها الظروف وقتذاك . اذ

كان هدفها — حسبما اسلفنا — نشر الدعوة وتأمين سلامة الدولة الجديدة من جيران يتاخمونها الحدود ويناصيونها العداء • ولهذا فهي تقوم على فكرة هامة في الاسلام هي فكرة الجهاد • ومن هنا يجب تفهم حركة الفتوح وما استتبعها في ضوء هذه الفكرة •

لقد نص الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم على الفروض الخمسة الواجبة على كل مسلم قادر ان استطاع الى ذلك سبيلا ، وهي : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج • وكتاب الله عامر بالآيات التي توضح ذلك ، وبخاصة في سور البقرة ومريم والتوبة • كذلك حرص الدين الاسلامي على تأكيد الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه ، كفرض واجب الاداء على كل مسلم ، باعتباره مبدأ وعقيدة • لقد حث كتاب الله على الجهاد دفعا للعدوان ، وحفاظا على الارض والعرض وعلى الديار والمقدسات • وآيات الجهاد عديدة في كتاب الله ، وبخاصة في سور البقرة والتوبة والنساء وآل عمران ، وفي السور المدنية بصفة عامة • وكانت دعوة الجهاد كافية لاثارة الحماسة بين الناس ، وكان كل من يشترك في قتال اعداء الله يعتبر مجاهدا ، وكل من يموت في سبيل الله يعتبر شهيدا • كما كانت الخطب والمواعظ الدينية التي تلقى من فوق منابر المساجد ، وكذلك رسائل الحكام وكتيبهم الى ولايتهم بالاقاليم مليئة بالآيات التي تستنهض الهمم وتحت النفوس للقتال كما دعا الداعي • ومن هنا نشأ ما عرف باسم أدب الجهاد وفلسفة الجهاد • وظهرت المؤلفات العديدة في العصر الاسلامي الوسيط في فضائل الشمام والبيت المقدس حيث قبة الصخرة والمسجد الاقصى أولى القبلتين وثاني الحرمين •

لذلك كان المسلمون في حروبهم يجاهدون عن ايمان صادق وعقيدة راسخة ، ابتداء بحركة الفتوح ، وبعد ذلك لمواجهة الهجمات التي تعرضوا لها في العصر الاسلامي الوسيط ، مثل الحركة الصليبية والغزو المغولي • وعندما كان العدو يهاجم احدى البلدان العربية ، كانت خطب

الأئمة ورسائل الحكام تخرج وفيها نذير ووعيد للعدو اذا ماسولت له نفسه المخاطرة بالهجوم • وعادة كانت تستهل أو تختتم بأية قرآنية مثل « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ، أو « أتى امر الله فلا تستعجلوه » ، أو « وستعلمن نبأه بعد حين » • فاذا لم يتراجع العدو وواصل عدوانه ، كانت هذه الخطب وتلك الرسائل تتضمن آيات قرآنية تحض صراحة على الجهاد وقتال عدو الله « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » ، أو « وقتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، أو « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » • وعندما كان المسلمون يلحقون الهزائم بأعدائهم ، وكان هذا يحدث في فترات القوة والتماسك ، كانت خطب الأئمة ومكاتبات الحكام الى الولاة بالاقاليم تبشر بالنصر ، وتختتم — عادة — بأية قرآنية • « نصر من الله وفتح قريب » ، أو « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » • وتزودنا مصادر التاريخ الاسلامي التي ترجع الى الحقبة الوسيطة من التاريخ ، بمعلومات هامة وقيمة بهذا الخصوص ، وهي لا تزال بحاجة الى مزيد من البحث •

وخلاصة القول انه يجب تفهم حركة الفتح ، وموقف العالم العربي الاسلامي من الهجمات التي تعرض لها ، في ضوء فكرة الجهاد التي كان لها اثرها الفعال فيما احرزه المسلمون على اعدائهم من انتصارات عبر القرون الطويلة ، وبخاصة في اوقات الوحدة والترايط • اذ كانت الدعوة للجهاد تجد استجابة سريعة من الناس الذين كانوا يضحون بأنفسهم وبكل غال ونفيس في سبيلها •

ج — التفكير العلمي في اوربا في الفترة المبكرة من العصور الوسطى :

لمعرفة اثر الحضارة العربية الاسلامية على اوربا ، يجب العودة قليلا الى الوراء حيث نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط الذي اقتطع من تاريخ الانسانية عشرة قرون من الزمان أو يزيد • فهو يبدأ

— عادة — بالقرن الخامس ، وينتهى فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى • يبدأ بسقوط روما وانهيار الامبراطورية الرومانية القديمة على أيدى الجرمان البرابرة سنة ٤٧٦ م ، وينتهى بسقوط القسطنطينية فى ايدى الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، أو بحركة الاصلاح الدينى فى الغرب فى القرن السادس عشر • ويقسم المؤرخون الغربيون الحديثون تلك العصور الى فترتين متميزتين : العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ م ، والعصور الوسطى الحقيقية وتشغل القرون الخمسة أو الستة التالية • ومنهم من يقسمها الى ثلاث حقب هى : العصور الوسطى المبكرة وتشغل القرون من الخامس الى العاشر ، والعصور الوسطى الحقيقية أو الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط وتشغل القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، والعصور الوسطى المتأخرة أو نهاية العصور الوسطى وتشغل القرنين أو القرون الثلاثة التالية • وهذا لا يعنى على الاطلاق وجود حد فاصل بين هذه الفترات ، اذ كانت متصلة بطبيعة الحال وان تميزت كل فترة منها بخصائص معينة • بمعنى أنه لا يمكن الاخذ بفكرة التحديد الزمنى الجاف لمختلف الحقب والعصور ، وانما الهدف من مثل هذه التقسيمات هو تسهيل فهم التاريخ وتقريبه الى الاذهان قدر الاستطاعة •

على أية حال ، بدأت العصور الوسطى فى اوروبا بالقرن الخامس عندما وقعت غارات البرابرة على الدولة الرومانية القديمة ، وكانت آنذاك شبحا متهالكا بعد ان انهكتها الازمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية والعسكرية ، بحيث لم يجد الجرمان صعوبة فى القضاء عليها وعلى نظمها وحضارتها ، ليقيموا على انقاضها دولا وممالك مغايرة • وبدأت تلك العصور ، أيضا ، فى وقت انتصرت فيه الديانة المسيحية على الوثنية وعبادة الاباطرة بعد صراع دام عنيف • وكان هذا يعنى ، بكلمة مختصرة ، نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وحضارته وتقاليده ، وبداية عصر جديد له فلسفته ومفاهيمه الخاصة به • فقد

تحطم جهاز العمل الرومانى ، وانهار من اساسه ذلك الصرح الشامخ فى السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفلسفة والقانون والفكر ، الذى كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحل محله أمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها .

وترتب على ذلك ان وجدت حالة واضحة من الفوضى والاضطراب فى كافة انحاء اوروبا ، وبخاصة فى القسم الغربى منها ، مع نهاية التاريخ القديم وبداية العصور الوسطى ، • ولذلك عرفت القرون الاولى من تلك العصور باسم العصور المظلمة • ويقول المؤرخ المعروف ادوارد جيبون فى كتابه « تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، انه كان فى حكم المستحيل ان تحرز الانسانية اى تقدم فى ذلك العهد المضطرب • لقد تسلمت اوروبا العصور الوسطى تركد مثقلة بالمشاكل والصعاب ، حتى ان كثيرا من المؤرخين الغربيين الحديثين المشتغلين فى هذا الميدان ، نظروا الى تلك العصور على أنها عصور جمود وظلام وبرودة ليس فيها اى خير للبشرية ، وعلى رأس هؤلاء و • ب • كير فى مؤلفه « العصور المظلمة » • أما جيبون فيقول فى مقدمة كتابه عندما تعرض لفترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط ، انه انما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط التى تغلبت فيها البربرية والدين على النظام والحضارة • ويعنى بذلك تغلب الجرمان والمسيحية على الجهاز الرومانى العتيق • لقد كانت القرون الاولى من العصور الوسطى فى اوروبا ، فى نظر كل من جيبون وكير ، عصور ظلام ليس فيها من نور العلم والمعرفة شىء يذكر • ذلك أن انهيار الدولة الرومانية بقانونها ونظمها وحضارتها الزاهرة، واقتصادها النقدى وجهازها الادارى المحكم ونظامها الضرائبى المتين ، وقيام الدول والممالك المتبربرة على انقاضها ، وكذلك ظهور المسيحية وقضاءها على الوثنية وعبادة الامبراطور — انما يعنى فى نظر هذا الفريق من المؤرخين انهيار المدنية وبداية البربرية فى التاريخ الأوروبى •

والنتيجة ان الحضارة الرومانية انكمشت مع بداية العصور الوسطى ، ولم تبق منها سوى آثار ذابلة باهتة • اذ انتهت الاصاله في العلوم والآداب والفنون التى تميز بها التاريخ الرومانى القديم • وحدث تدهور وانحلال فى كافة النواحي والمجالات ، وفى شتى افرع المعرفة الانسانية • وساعد على ذلك ان قيام الديانة المسيحية لم يكن ليتفق بحال مع بقايا الحضارة الرومانية التقليدية والتراث الكلاسيكى القديم • لقد كان هذا التراث فى نظرها تراثا ضارا عديم الفائدة لارتباطه بالوثنية وما تدعو اليه من الحرية والانطلاق وتعدد الآلهة بحكم تعدد نواحي الحياة فى المجتمع •

ولمزيد من الايضاح ، فقد جاءت المسيحية كرد فعل للتاريخ القديم ووثنيته التى تدعو الى التمتع بالحياة فى شتى صورها ومظاهرها • وهذا أمر حرمة الديانة الجديدة دون رفق أو هوادة • وجاءت فلسفتها لتقول ان الحياة الدنيا مطية زائلة الى الدار الثانية باعتبارها دار الخلد والنعيم المقيم ، وان الفرد يجب أن يعد نفسه للحياة الابدية بأن يمتنع عن مباحج الدنيا وملذاتها باعتبارها متعا زائلة ، وان يعيش على العبادة والطهر والزهد والتقشف • ونادت بأن الخلاص هو الغاية النهائية لكل كائن حى ، فى حين ان الوثنية كانت تتميز بالقهر والانطلاق والتمتع بالطبيعة وجمالها • وهكذا صبغت المسيحية الحياة فى المجتمع الاوروبى الوسيط بصبغة خاصة ظهر اثرها جليا فى العقل والفكر وفى النظم والحضارة • فالحب ، مثلا ، والتمتع بالجمال ، اعتبرت هما المسيحية اثما وخطيئة مميتة • فلم يكن يسمح للاديب أو الشاعر أو الفنان أو المفكر ، ان يعبر عن مثل هذه المشاعر والاحاسيس التى حرمتها المسيحية وفلسفتها ، تلك الفلسفة التى اعتبرت الاساس الاول للحياة والفكر فى العصور المبكرة • ولهذا ساد الاعتقاد القائل بأن العقيدة والايمان يسبقان العقل والفكر • كذلك لم يكن مسموحا بتدريس آداب اليونان والرومان القدماء لما فيها من عناصر وثنية نبذتها الكنيسة اللاتينية • وبلغ من تعنتها حيال

التراث الكلاسيكى القديم ان حاربته بعنف ، حتى ان المتبقى منه الذى حفظه لنا الزمن من الضياع ضئيل جدا وضعيف فى مستواه •

وان تلك النظرة المحدودة الضيقة للامور فى نطاق المسيحية وفلسفتها ، وتعاليم الكنيسة اللاتينية وقيودها ، والتي عاش الفرد اسيرها قرونا عديدة ، جعلت الناس فى اوروبا لايفكرون فى استنباط قوانين الطبيعة ، ولم يحاولوا نتيجة لذلك التقدم فى العلوم والآداب والفنون • واستعوزتهم القدرة على استخلاص ما فى الطبيعة من ثروات معدنية وزراعية ، وامانت فيهم روح الخلق والابداع • وشغل الناس أغلب حياتهم فى فترة العصور المظلمة بالكفاح من أجل كسب القوت اليومى فحسب ، وكفاهم فى ذلك الكفاف من العيش • ولذلك وجد فى اوروبا مع الزمن شعور عام متزايد بالسأم والملل والضجر ، وحالة واضحة من الضغط والكبت والحرمان • هذا ، بينما كانت اسلحة الكنيسة مسلطة على رقاب الناس ، والويل لمن كان يخالف تعاليمها وقوانينها • اذ كان يتعرض لاشد انواع العقاب من حرمان ونقمة ولعنة وقطع ، بل ومن احتمال حرق المخالف حيا بالنار •

هكذا عاشت اوروبا فى ظلام دامس فى القرون الاولى من العصور انوسطى ، حيث توقفت عجلة الحياة ، وبخاصة فى الغرب ، واحاطت الحياة الثقافية والفكرية ظلام كثيف • وان ما اصاب التراث الكلاسيكى القديم اصاب اللغة اللاتينية أيضا • اذ اهملت قواعد النحو ، واختلطت اللهجات الجرمانية باللغة اللاتينية الفصحى القديمة التى فقدت نقاءها واصالتها • وانتهت تبعا لذلك البلاغة فى اللغة ، وغدت الكتب نادرة الوجود ، وتدهورت صناعة نسخها • كما تدهورت الدراسات الكلاسيكية فى اوروبا بعامة ، وفى غالة وايطاليا بصفة خاصة ، واغلقت المدارس أبوابها • وتدهور الخط ، وانحطت الكتابة ، وكثرت الاخطاء النحوية والمغوية فيها • وانحصر العلم فى تلك القرون المبكرة داخل جدران المؤسسات

الدينية • وغدا العلم دينيا خالصا الهدف منه تعليم الصبية الصغار بعض العلوم الدينية لكي يعملوا بعد تخرجهم في سلك الكهنوت • وانحصر الانتاج الفكرى في اعمال الآباء المسيحيين الاول ، وهو انتاج ضئيل وضعيف في مستواه من حيث اللغة والاسلوب ، ويتميز بصفة دينية واضحة • وحتى فيما يتعلق بالنهضات المحلية التى قامت في غرب اوروبا مثل النهضة العلمية الايرلندية في القرن الثامن ، والنهضة انكارولنجية في عصر شارلمان في أوائل القرن التاسع ، والنهضة التى قامت على اكتاف الملك الفريد الانجلو سكسونى في أواخر ذلك القرن — فقد كانت ترتبط بأشخاص من انتسبت اليهم اكثر من ارتباطها بالعصر نفسه • ثم أنها اتسمت — هى الاخرى — بسمة دينية واضحة • وفيما عدا ذلك ، فقد عاش الشعب في الغرب في جهالة مطبقة ، يستوى في ذلك السادة الاشراف ملاك الارض والعاملون في الارض من عبيد وارقاء واقنان وفلاحين اشباه أو انصاف احرار ، في مجتمع اخذت ملامحه الطبقيّة الاقطاعية في التبلور •

واستمر الغرب يعاني من حالة الفوضى والقلق وعدم الاستقرار والقطط الحضارى حتى أواخر القرن العاشر الميلادى (أواخر القرن الرابع الهجرى) • ومع بدايات القرن الحادى عشر (أوائل القرن الخامس الهجرى) ، بدأ الاستقرار بعد أن خفت حدة غزوات البرابرة وتوقفت الحروب ، وبدأ الغرب يتمتع بحالة من الامن والهدوء بعد أن نفّض عن كاهله كابوس العصور المظلمة • وساعدت على ذلك ظروف عديدة من بينها اسطورة سنة ١٠٠٠ المعروفة التى يرى المؤرخ الفرنسى لويس هالفن انها تتميز بقيمتها الرمزية فحسب ، باعتبارها من اسباب نهضة اوروبا ، حتى اذا كان اواخر ذلك القرن قام الغرب بما عرف اصطلاحا باسم الحركة الصليبية ضد العالم العربى الاسلامى بوجه عام ، وضد الشرق الادنى الاسلامى على وجه الخصوص • وقد استمرت هذه الحركة قرابة ثلاثة قرون من الزمان هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) •

وعلى الرغم من انها ادت الى صدام عسكرى بين الصليبيين والمسلمين ،
الا انه كانت لها آثارها الواضحة على الناحية الفكرية كما سبق القول •
اذ ادت الى احتكاك عقلى وفكرى واتصال تجارى أيضا بجانب الاحتكاك
الحربى • وقد ترتب على ذلك وجود مركز جديد من مراكز الاشعاع
الثقافى هو مصر والشام ، وعن طريقه انتقلت الحضارة العربية الاسلامية
الى العالم الاوروبى المسيحى لتساعده على النهوض من كبوته وشق
طريقه نحو التقدم •

وخلاصة ما تقدم انه لايمكن تتبع جذور النهضة الحضارية ، التى
ادت الى نقل الغرب من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، ومن
انظلام الى النور ، الا بعد ذكر اثر الاسلام والحضارة العربية
الاسلامية وافضالهما عليه •

د - الحضارة العربية الاسلامية : دعائمها ، نشأتها وازدهارها :

أولا - دعائمها :

تقوم الحضارة العربية الاسلامية على دعامين اساسيتين هما :
اللغة العربية والديانة الاسلامية • أما عن العربية ، فهي الاداة التى
عبرت بها القوة الحضارية الجديدة عن نفسها • وتعتبر العربية اغنى
اللغات السامية ، وتتميز بالاصالة والخصب ، مما يجعل منها لغة حياة
دائمة الجدة والتجدد • وقد قامت بدورها خير قيام فى التعبير عن
الافكار ونقلها • ثم أنها تتميز بمرونتها الفائقة ، وقدرتها على التعبير
العلمى • كل هذا ساعد على سرعة انتشارها فى البلاد التى فتحتها العرب
شرقا وغربا بعد أن خرجوا من جزيرتهم الصغيرة للفتح • ولا أدل من
قدرتها وحيويتها ومرونتها وخصوبتها من أن العرب أصبحوا فى زمن
قليل بعد الفتح يعبرون بها عن ادق نظريات اقليدس وفلسفة ارسطو
وطب جالينوس وفلك بطليموس •

هذا عن الدعامة الاولى ، اما عن الدعامة الثانية وهى الديانة الاسلامية فقد انتشرت بسرعة فى البلاد المفتوحة ، وكان انتشارا آمنا تلقائيا فى رقعة واسعة وبين شعوب عديدة كان بعضها قد اعتنق المسيحية، بينما احتفظ البعض الآخر بعقائده الموروثة • وقد نظر بعض الكتاب الاوروبيين الى الاسلام نظرة حقد وتعصب اثناء انتشاره فى البلاد التى فتحها العرب مثل الشام ومصر وشمال العراق • وثبت ان هذه النظرة الضيقة بعيدة عن الحقيقة التاريخية ، وانها كانت تعبر عن وجهة نظر الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى • فقد اكدت الوثائق والاصول التاريخية ان العرب تسامحوا مع اهالى البلاد المفتوحة دون أن يفرضوا عليهم ديانة معينة • وقد نعمت الاقليات فى العالم العربى الاسلامى بسياسة التسامح الدينى على مر العصور • ولاشك ان وحدة اللسان الى جانب وحدة العقيدة الجديدة ، اوجدا رباطا قويا وحد بين الفاتحين العرب واهالى البلاد المفتوحة • وكان من ابرز نتائج المحافظة على اواصر الوحدة العقلية فى المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج • وهكذا أصطبغت الحضارة العربية الناشئة بصبغة دينية واضحة ، مما أكسبها فى التاريخ اسما مركبا شائعا هو الحضارة العربية الاسلامية ، كما يقول الدكتور سعيد عاشور فى مؤلفه « المدنية الاسلامية واثرها فى الحضارة الاوربية » •

ثانيا - نشأتها وازدهارها :

حتى الفتح لم يكن للعرب تراث حضارى ملحوظ فى ميادين الفلسفة والرياضيات والعلوم التجريبية (١) • ولكن حركة الفتح اتاحت

(١) ثمة رأى حديث يقول انه كان للعرب حضارة فى مجالات شتى من المعرفة الانسانية • وقد بنى هذا الرأى على نقوش عثر عليها اخيرا فى الجزيرة العربية • ولايزال التنقيب جاريا ، ويحتمل الكشف عن اشياء لم تكن معروفة من قبل •

لهم الفرصة للاحتكاك بحضارات عظيمة واقدام عهدا من حضارتهم • مثال ذلك حضارات مصر والشام والعراق والفرس واليونان والرومان ، فضلا عن حضارات الشرق الاقصى مثل الهند والصين • وقد افاد العرب من كل تلك الحضارات ، وعملوا على التنسيق بينها • وكانت الثمرة النهائية انصهار كل تلك الحضارات في بوتقة واحدة انتجت حضارة جديدة شامخة لها مقوماتها وكيانها وخصائصها ومميزاتها الخاصة بها ، هي الحضارة العربية الاسلامية • لقد اخذت من هذه العناصر الحضارية السابقة أفضل ما فيها ، تماما مثلما افاد الرومان من حضارة اليونانيين القدماء ، ومثلما افاد اليونانيون القدماء من حضارة قدماء المصريين • فهذا التراث الحضارى للانسانية عبارة عن حلقات متتابعة في سلسلة واحدة ممتدة عبر القرون والاجيال • وهذا لاينفى عن الحضارة العربية الاسلامية صفة الجدة والاصالة ، بل على العكس يؤكد ويدعمه • وليس ادل على اصالة الاسلام من قدرته الفائقة على تكيف كل هذه المدنيات الدخيلة لتلائم وحاجاته ، وبالتالي في نبذ كل مالا يقبل التكيف •

لقد احسن العرب اختيار العناصر الصالحة من الحضارات التي صادفوها ، ومزجوها ببعضها مزجا سليما ، وسدوا فجواتها ، وخرجوا من ذلك كله ببناء حضارى راسخ وشامخ لا يمكن أن يوصف الا بأنه عربى اسلامى • ويذكر العالم جوستاف جرونبيوم في كتابه « حضارة الاسلام » كيف تكيفت هذه العناصر الحضارية الاجنبية في ثوب اسلامى اصيل ، بحيث لا يستطيع احد معه تمييزها • ويستطرد قائلا ان الحضارة العربية الاسلامية كانت تتخير غذاءها من العناصر الحضارية التي احتكت بها تخيرا دقيقا واعيا ، مما ساعدها على الاحتفاظ بهويتها وسماتها العربية الاسلامية •

وهكذا سارت الحضارة العربية الاسلامية اثناء الفتح وانتشار الاسلام في ركاب العرب اينما اتجهوا وحيثما حلوا • وقد ساعد على ازدهارها عدة عوامل ، من بينها انتشار الامن والعدل والاستقرار

والطمأنينة في ربوع البلاد المفتوحة • وكذلك سياسة التسامح الدينى التى انتهجتها السلطات الاسلامية حيال اهل الذمة • كل هذا أدى الى انتعاش الاحوال الاقتصادية فى النواحي الزراعية والصناعية والتجارية • وكانت النتيجة ان عم الرخاء وازدادت الثروات • يضاف الى ما تقدم ان الحضارة التى ارتكزت عليها الدولة العربية الاسلامية كانت حضارة مدنية • اذ كانت المدينة بسكانها الاحرار ونشاطهم الواسع فى الناحيتين الصناعية والتجارية ، هى عصب هذه الدولة وعمودها الفقرى • ولذلك سادها ما يعرف اصطلاحا باسم الاقتصاد النقدى أو الاقتصاد المالى ، الذى يقوم على المعاملات التجارية ، وعلى البيع والشراء ، والتصدير والاستيراد ، وما يرتبط بذلك من أنظمة ضرائبية وعملات • كل هذا أدى الى وجود معين لا ينضب من المال نعم به العالم العربى الاسلامى ، وبخاصة فى فترات قوته وتماسكه • هذا ، بينما كان النظام القائم فى الغرب وقتها هو النظام الاقطاعى ، وحضارته حضارة ريفية زراعية لا تعرف التجارة أو الصناعة الا فى اضيق الحدود • وصلب هذا المجتمع هو القرية باقتصادها الطبيعى أو الاقطاعى ، وبسكانها من السادة المالكين للارض والمسودين العاملين فيها • ولذلك تغلغت فى المجتمع الغربى الوسيط المحلية بدلا من مركزية الحكم والادارة • وانكمشت المدينة ، وقل سكانها ، وتضاءل نشاطها التجارى والصناعى ، ولم يعد المال هو وسيلة التعامل بين الناس • بل اصبحت واجبات التبعية والخدمة الاقطاعية هى اساس التعامل بين أفراد هذا المجتمع • لكل هذا كان الغرب عرضة للويلات والنكبات التى كانت تحل به بين الحين والحين ، وافتقد مقومات الامم والدول والحكومات الشرعية ، وحل به البؤس والفقر والمرض ، وتفشى فيه الجهل •

وبينما كان الغرب المسيحى يعانى من كل هذا ، انتعش العالم العربى الاسلامى ، واصبح لديه موارد هائلة ، مما أدى الى قيام نهضة علمية شاملة فيه • وقد بدأت هذه النهضة الواسعة فى العصر الاموى

(٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) ، وادت الى نقل كثير من مؤلفات الاغريق القدامى في الفلسفة والطب والكيمياء الى اللغة العربية . وتألفت هذه النهضة في العصر العباسي الاول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م) . وجدير بالذكر ان ما كان يميز الحضارة العربية الاسلامية آنذاك كان شيئاً أهم من اتساع رقعة الدولة الاسلامية الكبرى ، الا وهو اتساع عقول ومدارك الخلفاء والملوك والامراء المسلمين في المشرق والمغرب . وثمة ملاحظة أخرى ، وهي ان الحضارة العربية الاسلامية تقبلت الادب اليوناني القديم ، على الرغم من أن عبقرية علمائها ومفكرها لم تقبل صيغه واشكاله التي كانت تتنافى أو تتعارض مع مفاهيم الاسلام وتعاليمه .

وكان من ثمار هذه النهضة الاهتمام بجمع الكتب والمخطوطات ، وانشاء المكتبات . كما نشطت حركة الترجمة ، وبخاصة في الفترة الواقعة فيما بين اواسط القرن الثامن واواسط القرن التاسع الميلادي (من اواسط القرن الثاني حتى اواسط القرن الثالث الهجري) . وظهرت اسماء لامعة من المترجمين امثال ابو يحيى البطريق ، وحنين بن اسحق . ونعل من أهم الآثار المترتبة على هذه الحركة ، ان لم يكن اهمها على الاطلاق ، هو بقاء جانب كبير من تراث اليونان القدماء حيا في التراجم العربية وتعليقات العرب عليها . واذا كانت هذه الحركة قد بدأت بالترجمة ، ثم التقليد والمحاكاة ، فقد اعقب ذلك التجديد والابتكار فالخلق والابداع في نواح عديدة في المعرفة الانسانية كالفلسفة والطب والكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية . وقد بلغت هذه الحضارة ذروتها في القرنين التاسع والعاشر للميلاد (القرنان الثالث والرابع الهجريان) . وكان انتقالها الى العالم الاوروبي المسيحي عن طريق مراكز الاشعاع الحضاري السالف الاشارة اليها . وكانت هذه هي الشرارة الاولى التي أدت الى انطلاقه هذا العالم ، وكسر قيوده التي عاش اسيرا لها عدة قرون .

هـ — مراكز اشعاع الحضارة العربية الاسلامية ، ومعايرها الى العالم الاوروبى المسيحى :

خلصنا مما سبق ان الحضارة العربية الاسلامية شقت طريقها الى العالم الاوروبى المسيحى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (اواخر القرن الخامس الهجرى) ، وكان هذا العالم قد نفخ عن كاهله غبار القرون السابقة • وقد سلكت عدة معاير هى :

١ — الاندلس :

اخذ طلاب العلم من غرب اوروبا يتدفقون عليها منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، بهدف الاستفادة والاستزادة من الدراسات العربية الاسلامية فيها • وقد نشطت حركة الترجمة من اللغة العربية ، واستمرت حتى القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى) • وترجم الى اللغة اللاتينية كثير من مؤلفات العرب فى مختلف العلوم والفنون ، وكذلك كثير من مؤلفات الاغريق القدماء المنقولة الى العربية، مثل كتب جالينوس وافلاطون وارسطو •

٢ — صقلية وجنوب ايطاليا :

كان للحضارة العربية الاسلامية شأن كبير فيهما اثناء حكم المسلمين لهما الذى امتد من سنة ٩٠٢ الى سنة ١٠٩١ م تقريبا • وكانت هذه الحضارة موضع تشجيع ملوك النورمان لها • ونجد مثالا حيا لذلك فى موقف الامبراطور فريديريك الثانى (١٢١٥ — ١٢٥٠ م) من العرب والحضارة العربية الاسلامية • كان من اعجب شخصيات العصور الوسطى ، حتى لقد نعته المعاصرون له بأنه « اعجوبة الدنيا » • نشأ فى صقلية ، وقسم املاكه فيما وراء الالب بين أبنائه ، واستقر هو فى الجنوب الايطالى حيث تأثر بالثقافة المتحررة الموجودة هناك ، وهى

ثقافة متنوعة المصادر والاصول ، امتزج فيها التراث اليونانى القديم بالتراث البيزنطى بالحضارة العربية الاسلامية . كان واسع العلم والثقافة ، كثير الاطلاع ، يجيد عدة لغات من بينها العربية . وامتاز بتحرره من سلطان الكنيسة اللاتينية وقيودها . كان معجباً بالعرب وعلومهم وعاداتهم وأخلاقهم ، وكان على صداقة متينة بعدد منهم ، مثل الكامل محمد سلطان مصر الايوبى وابنه الصالح نجم الدين ايوب . وامتاز بروح التسامح واحترام جميع الاديان ، فى وقت كان فيه الغرب يمتاز بالترمت الاعمى فى هذه الناحية . وكان بلاطه مؤثلاً للعلماء المسلمين والمسيحيين على السواء . وكثيراً ما كان يجتمع بمفكرى الاسلام ، كما كان على صلة بتلامذة ابن رشد والمفكرين فى العالم العربى الاسلامى .

وتروى المصادر العربية ان هذا الامبراطور كثيراً ما كان يتصل بالعلماء المسلمين فى مصر وسورية وغيرها من البلدان ، اذا ما واجهه مشكل فى الرياضة والعلوم . لكل هذا كان المسلمون فى المشرق الاسلامى وفى صقلية وجنوب ايطاليا يكتون له كل تبجيل واحترام ، حتى لقد اعتبره كثير من المؤرخين العرب ، مثل ابو الفدا والعينى ، أنه اميل الى الاسلام منه الى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل . بينما اضطهدته الكنيسة اللاتينية واصدرت ضده قرار الحرمان الكنسى أكثر من مرة ، متهمة اياه بالهرطقة والخروج على الدين . وباختصار ، لم يكن الامبراطور فريديريك الثانى متعصباً ولا صليبيّاً ضيق الافق ، وذلك على عكس من سبقوه ومن جاءوا بعده من الحكام والقادة الغربيين فى عصر الحروب الصليبية .

لقد كان فريديريك الثانى خير معبر عن موقف ذوى العقل والتعقل فى غرب اوروبا فى تلك العصور ، حيث بدأت الانظمة القديمة التى ارتكز عليها العالم الوسيط فى الدين والسياسة والحرب والاقتصاد والفكر فى

التداعى لتحل محلها مثل وانظمة أخرى مغايرة ، تؤذن بقيام عصر جديد له مفاهيم جديدة تتمشى مع الظروف والاوزاع التى طرأت على العالم وقتذاك • ولاخلاف انه كان لانتقال الحضارة العربية الاسلامية الى الغرب المسيحى أكبر الاثر فى ذلك •

٣ — مصر والشام :

ادت الحروب الصليبية الى صدام عسكرى بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى • وقد بلغ هذا الصدام الدامى ، الذى استمر ثلاثة قرون من الزمان ، ذروته فوق رقعة الشرق الادنى • ومع ذلك ، وجد الى جانب الصدام العسكرى احتكاك سلمى يبدو بجلاء فى الناحيتين الثقافية والتجارية • فقد اشتركت فى هذه الحروب الجاليات الايطالية ، وبخاصة البنادقة والجنوية والبيزانة ، الذين كانت حرفتهم الاولى هى الاتجار ، وما كان يعود عليهم من وراء ذلك من مكاسب وارباح • فقد كان هناك احتياج متبادل بين شقى العالم • فالغرب بحاجة الى الملح والفلفل والتوابل والمنسوجات ، الى جانب البخور والعطور التى كان يستوردها من الشرقين الاقصى والادنى ، بينما الشرق بحاجة الى المعادن والاششاب التى زوده بها الغرب • وقد قامت الجاليات التجارية الايطالية بتصدير واستيراد البضائع بين الشرق والغرب فى فترة الحروب الصليبية ، وجنت من وراء ذلك ارباحا طائلة • فلم يكن يعنىها الصالح الصليبي العام الا بقدر ما تحققه من مغنم • وترتب على ذلك انتعاش حركة التجارة فى اوروبا ، وظهور الطبقة المتوسطة ، وازدياد ثرواتها ، ونمو المدن واتساعها ، وازدياد سكانها ، وقيام حضارة مدنية قوامها الصناعة والتجارة •

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى اسهمت الحروب الصليبية بدور كبير فى القضاء على النظام الاقطاعى الذى ساد الغرب قرونا طويلة • اذ تكالب الفرسان والسادة الاقطاعيون على الاشتراك فيها ، املا فى

توسيع دائرة نفوذهم ، وتأسيس امارات جديدة لهم في الشرق بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم ، أو حبا منهم في المغامرة ورؤية بلاد واصناع جديدة ، والاشتراك في حروب يبرزون فيها ماتعلموه من فنون القتال . وكانت النتيجة المباشرة ان قتل عدد كبير من النبلاء وكبار رجال الاقطاع والفرسان . وترتب على ذلك عودة اقطاعياتهم الى سيدهم الاعلى الذى كان قد اقطعها لهم من الناحية النظرية . فانكششت وتضاءلت اقطاعيات النبلاء ، في الوقت الذى اتسعت فيه دائرة الاقطاعيات الملكية .

ثم ان الحروب الصليبية كانت فرصة ذهبية اغتنمها الفلاحون والاقنان الذين كانوا يعملون في اراضى السادة الاقطاعيين ، فبادروا بالانخراط في سلك هذه الحروب التى وجدوا فيها منفذا محققا للتحرر والخلاص من عبودية الاقطاع وقيوده والتزاماته التى اثقلت كواهلهم . وكانت النتيجة الطبيعية ان قلت الايدى العاملة في الغرب التى كانت تعمل في الارض لحساب كبار رجال الاقطاع ، وتحلت بالتالى تلك الرابطة القوية التى كانت تربط بين المسود التابع والسيد المتبوع والتى كانت الارض قوامها . وهكذا تزامن زوال الاقطاع بحضارته الزراعية مع ظهور المدينة بسكانها الاحرار وحضارتها المدنية .

هذا عن الاثر غير المباشر للحروب الصليبية التى احتك فيها الصليب بالهلال ، والذى يتمثل في القضاء على عصر الاقطاع والفروسية الاقطاعية في الغرب ، وتهيئة الجو لظهور عصر جديد وحضارة جديدة مغايرة كان للمسلمين وحضارتهم الفضل فيها . وهنا يجب الا ننسى الاتصالات الثقافية والحضارية بين طرفى الصراع . فمن الناحية اللغوية انسابت كثير من الكلمات والمصطلحات العربية في اللغات الاوروبية . وبكلمة أخرى ، تضمنت القواميس الاوروبية مئات الكلمات ذات اصول وجذور عربية .

كذلك اثرت الحركة الصليبية في تطور فن الحرب والقتال عند

الاوروبيين فيما يتعلق ببناء القلاع والحصون ، وعمليات الحصار ، واستخدام المجانيق والكباش ، وكذلك استخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، وارسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل . كما كان لنمو التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، اثره فى احوال اوروبا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ونتيجة لذلك وجدت المؤثرات العربية الاسلامية طريقها فى الحياة الاوروبية العامة . فانقلبت بعض النباتات والاشجار من شرق حوض البحر المتوسط الى غربه ، مثل السمسم والارز والليمون والبطيخ . وانتشرت كثير من العقاقير والاصباغ والتوابل الشرقية فى الغرب . وانتقلت اليه ، ايضا ، بعض العادات والتقاليد والنظم الاسلامية . ونجد العديد من الامثلة فى « كتاب الاعتبار » لمؤلفه اسامة بن منقذ .

وجدير بالذكر ان المعابر التى ذكرناها كانت اهم الطرق التى انتقلت عبرها الحضارة العربية الاسلامية الى العالم الاوروبى المسيحى . وكانت هناك وسائل اخرى عديدة عن طريقها نقلت معارف المسلمين وعلومهم الى اوروبا ، من بينها الرحلات التى قام بها بعض علماء الغرب ومفكريهم ، حيث طافوا بلاد العالم الاسلامى طلبا للعلم والمعرفة بعد فترة طويلة من الكبت والحرمان فرضتها عليهم الكنيسة اللاتينية . وقد ترك هذا اثارا واضحة على العقلية الاوروبية والفكر الاوروبى .

ولكن الافادة الكاملة من خلاصة الفكر العربى الاسلامى ، تمت عن طريق حركة ترجمة واسعة قامت على اكتاف فريق من المستعربين الذين نقلوا المئات من المؤلفات العربية أو المعربة عن اليونانية القديمة الى اللاتينية .

ومن الثابت ان نهضة القرن الثانى عشر فى اوروبا المعروفة بالنهضة العلمية الاولى ، ارتبطت الى حد بعيد بحركة الترجمة الواسعة عن العربية . فقد ترجم العرب الكثير من التراث اليونانى القديم الى

العربية ، وبذلك حفظوه لنا من الضياع • وكان لهذا اهميته بالنسبة للغرب الذى لم يعثر على ذلك التراث الا فى تلك التراجم وعليها تعليقات العرب • وقد انتعشت هذه الحركة وازدهرت فى العصرين الاموى والعباسى ، وادت الى نهضة القرن الثانى عشر فى الغرب ، فى وقت بدأ فيه الغرب ينتقل من مفاهيم العصر الوسيط المبكر الى اوضاع جديدة • وساعد على ذلك نمو المدن ، وانتعاش التجارة ، وظهور القوميات ، وتطور النظم الدستورية وبخاصة فى انجلترا ، والذى كان خطوة هامة فى سبيل هدم الاسس التى قام عليها العصر الوسيط المبكر فى الحكم والسيادة • كما ساعد على هذا التغير نشأة الجامعات التى تخرج من بين جدرانها الشباب المثقف المستنير ، مما أدى الى تنوير اذهان الناس وزيادة عدد المثقفين • وكذلك الكشوف الجغرافية ، والاستكشافات العلمية ، واختراع الطباعة والورق ونشر الكتب ، وظهور حركات الاصلاح الدينى التى اخذت تنادى باصلاح الجهاز الكنسى البابوى من العيوب التى استشرت فيه • ولذلك لم يكن امام الغرب سوى نقل هذا الكم الهائل من المعارف والعلوم من العربية الى اللاتينية •

والخلاصة ان اوروبا اعتبارا من اخريات القرن الحادى عشر فصاعدا شاهدت العديد من الانتفاضات والاحداث والانقلابات الخطيرة التى شملت كل الميادين والمجالات ، فى عالم قلق متغير غير مستقر • وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى وصلت فيه المعارف والعلوم العربية ، وكذلك اليونانية القديمة المنقولة الى العربية ، الى اوروبا عبر مراكز الاشعاع الثقافى المعروفة ، فأدت الى هذه الانطلاقة الجبارة التى شهدتها اوروبا فى شتى أفرع المعرفة الانسانية ، الأمر الذى ادى بها الى نهضة القرن الثانى عشر التى مهدت لعصر النهضة الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته العملاقة الزاهرة •

بعض الميادين التي اثرت فيها الحضارة العربية الاسلامية

على المدينة الاوروبية في العصور الوسطى

يبدو اثر الحضارة العربية الاسلامية على المدنية الاوروبية في ميادين عديدة ، شملت مختلف افرع المعرفة الانسانية ، في العلوم والآداب والفنون . وفيما يلي بعضها نستعرضها كنماذج فقط وليس على سبيل الحصر . فهذا موضوع آخر ظهرت فيه عشرات المؤلفات باللغة العربية واللغات الاوروبية الحديثة .

أ - الادب :

تأثرت الآداب الاوروبية بموضوعات الادب العربي في الشعر والنثر ، والتي تميزت بالخصوبة والابداع ، في وقت اجذبت فيه الآداب الاوروبية بسبب الظروف السيئة التي مر بها العالم الاوروبي في مرحلة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط وخلال القرون الاولى من ذلك العصر . وجدير بالذكر في هذا المجال ان العرب افادوا كثيرا من الادب اليوناني القديم ، بالرغم من عدم تقبلهم لصيغة واشكاله حسبما اسلفنا . وقام تراجمة من المسيحيين واليهود بنقل هذا الادب من اليونانية القديمة الى السريانية فالعربية .

ففيما يتعلق بالشعر ، يلاحظ ان اشعار التروبادور التي ظهرت في بروفانس بجنوب فرنسا في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي (اواخر القرن الخامس الهجري) مأخوذة من الشعر العربي الاندلسي الذي عرف بالغزل الرقيق والرياء الباكي والعفة وقوة الخيال ، الى جانب اهتمامه بالوزن والقافية والصقل . ونجد مثلا لذلك في وليم التاسع دوق اقطانيا ، وهو أول شعراء التروبادور ، وأول من قلد الازجال العربية . وكان يعرف العربية ، واستخدم بعض الفاظها في اشعاره ، وتردد على الاندلس وغيرها من البلاد الاسلامية . ويكفي ان كلمة « تروبادور »

اصلها لفظة عربية هي « دور طرب » ، ثم قدمت الصفة على الموصوف فأصبحت « طرب دور » ، وحرفت الى « تروبادور » •

لقد كان هذا العصر هو عصر فروسية الحب والحرب • واعتنق العرب في اسبانيا هذه المثل العليا وتفوقوا فيها على الاوروبيين • وكانت حضارتهم ارقى واسمى من حضارة الشعراء المتجولين في جنوب فرنسا • ويقول المؤرخ جورج جوردون كولتون ان العرب المغاربة اعطوا المجتمع الاسباني أكثر مما اخذوا منه في هذه الناحية ، وذلك بدافع من التفاخر بالنسب والشجاعة ، وبدافع من موسيقى الحب والحرب ، وبدافع من احترام المرأة وتقديرها •

أما عن النثر ، فقد قلد الغربيون القصص العربي في ميادين المغامرات والحب والفروسية • ونجد مثالا حيا في اعمال الكاتبين بوكاشيو وتشوسر • فقد تأثر الاول في كتابه « الايام العشرة » ، والثاني في كتابه « قصص كانتربري » بقصص « الف ليلة وليلة » • واثرت قصة الاسراء والمعراج في « الكوميديا الالهية » للشاعر الفلورنسي دانتي اليجيري عندما وصف العالم الآخر ، لايحتاج الى دليل • كذلك تأثر النثر الاوروبي بالنثر العربي في ناحية القصص الخرافية ذات المغزى الاخلاقي • لقد تركت قصص « الف ليلة وليلة » بصماتها الواضحة على الادب الاوروبي الوسيط • وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على مدى الثقافة العربية الاسلامية في الفكر الاوروبي المسيحي •

وفوق هذا وذاك ، فقد اقتبست اللغات الاوروبية ، وبخاصة الاسبانية ، الكثير من الامثال والحكم العربية ذات الدلالات العميقة • كما ان اللغات الاوروبية الحديثة المعروفة بالرومانتيكية ، والمنبثقة عن اللغة اللاتينية فيها الكثير من الالفاظ العربية الدخيلة • وقد حصر دوزي في معجمه الالفاظ العربية في اللغتين الاسبانية والبرتغالية ، وهي غير قليلة • ومما يدل على اهتمام اوروبا في اواخر العصور الوسطى باللغة

العربية وما يتصل بها من دراسات ، انه ادخل دراستها في بعض الجامعات الأوروبية الناشئة منذ القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) •

وللمزيد من التفاصيل والايضاح فيما يتعلق بتأثر الادب الاوروبى بالأدب العربى يمكن الرجوع الى مؤلف الدكتور سعيد عاشور عن المدنية الاسلامية واثرها في الحضارة الاوروبية •

ب — الجغرافية والرحلات :

كانت معلومات الاوروبيين ضحلة في تلك النواحي في العصور الوسطى المبكرة • وبالنسبة لعالم البحار ، يقول كولتون انهم — فيما عدا الدول البحرية — قلما غامروا بالابحار بعيدا عن الارض بما يجاوز مدى البصر ، وان البوصلة لم تعرف طريقها الى اوروبا حتى اواسط القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان استخدامها في الملاحة البحرية حتى ذلك الحين يتقدم ببطىء شديد • وحتى نعرف الى أى حد كانت معلوماتهم قليلة بل وممسوخة في نواحي الجغرافية والرحلات والتجارة الواسعة ، نقول انهم كانوا يعتقدون ان نصف الكرة الجنوبي بحر كله فيما عدا جبلا واحدا في الوسط ، حيث كانت الجنة الارضية في مواجهة بيت المقدس في نصف الكرة الآخر الذى يعيشون فيه • ولكى نعرف ، ايضا ، الى اى حد ظلت الارض والبحر مجهولا امرهما ، واية امور مشوهة كانوا يصدقونها عن هذه الاصقاع الغامضة في نظرهم ، يجب علينا ان نمعن النظر في رحلات سير جون موندفيل التى يقول فيها ان البراكين هي افواه جهنم ، وان خرائب بابل والاهرام تعج بالتنانين والثعابين والحشرات السامة ، وانه يوجد في بعض الارحاء مردة عمالقة • ويكرر الحديث عن اكلة لحوم البشر ، وعن وحوش الاعماق في البحار ، مما يكشف عن جهل تام بتلك الامور •

وفي نفس هذا الوقت وجه المسلمون اهتماما بالغاً لعلم الجغرافية ، وبرعوا فيه ، وخلفوا فيه مؤلفات لا تزال تدرس حتى الآن ، ولا يزال الباحثون وطلاب العلم يرجعون اليها وينهلون منها • وساعد على ذلك اتساع الدولة العربية الاسلامية ، وامتداد حدودها شرقاً وغرباً ، فضلاً عن حب المسلمين للتنقل والترحال في سبيل التجارة وطلب العلم • لذا جابوا بلاد العالم المعروفة وقتها طويلاً وعرضاً ، ابتداءً بشرق آسيا وحتى مجاهل افريقية • كما اقاموا علاقات تجارية مع العديد من البلدان التي لم يسمع الاوروبيون بها في العصور الوسطى • وقد قام الاوروبيون بنقل كثير من مؤلفات العرب الجغرافية الى اللغة اللاتينية في العصر الوسيط • يضاف الى ذلك ، ان اوروبا تدين للعرب بحفظ معلومات اليونانيين القدامى الجغرافية عن طريق الترجمات العربية لها في اواخر العصر الوسيط • وكما قلنا من قبل ، اذا كان العرب قد اعتمدوا في البداية على معلومات اليونانيين القدماء ، الا انهم سرعان ما بزوا اساتذتهم ، وصححوا الكثير من الاخطاء التي وقع فيها جغرافيو اليونان ، و اضافوا اليها الكثير من تجاربهم •

وسوف نحتاج الى مجلدات لو تحدثنا عن كل واحد من كتاب المسالك والممالك العرب ، وعن كل واحد من الرحالة والجغرافيين العرب • فما أكثرهم ، وما اغنى المادة الجغرافية التي زودونا بها • فمن كتاب المسالك نذكر اقدمهم وهو اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) • ويأتى بعده في القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) الاصطخرى ، والمقدس ، والمهلبى ، وابن خرداذبة • ومن جغرافيي القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) الادريسي • ومن القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) القزوينى ، وياقوت الرومى الحموى • ومن القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر الميلادى) ابو الفدا ، والعمرى • ومن القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) ابن شاهين • ومن اشهر الرحالة المسلمين ابن منقذ ، وابن جبير ، وابن بطوطة •

لقد اسهم كل واحد من هؤلاء بسهم وافر في بناء علم الجغرافية ،
وزيادة حصيلتنا عن المعلومات الجغرافية القائمة على المشاهدة والمعاينة .
وظلت كتبهم اساسا لدراسة علم الجغرافية في اوروبا لقرون عديدة . كما
ترجم بعضها الى اللاتينية ، مثل كتاب الادريسي المعنون « نزهة المشتاق
في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » . ويعتبر
الادريسي ، ايضا ، أول من زودنا ببيان حقيقى لمنابع النيل ، وأول من
أوضح المعالم الاساسية للكرة الأرضية على كرة من الفضة . كذلك تمسك
الجغرافيون العرب بفكرة كروية الارض ، مثل ابن خرداذبة ، وابن
رسته المعاصر له ، والمسعودي . ويقال ان العرب هم أول من اكتشف
العالم الجديد قبل كويستوفر كولمبس بوقت طويل ، وان كولمبس اطلع
عنى كتبهم قبل قيامه برحلته المشهورة التى أدت الى اكتشاف امريكا .

كذلك عرف العرب البوصلة قبل الغرب ، وعندهم اخذها الاوروبيون .
ويكفى ان البوصلة احتفظت باسمها العربى فى كثير من اللغات الاوروبية،
مثل الايطالية والفرنسية . وترتب على ذلك ارتياد العرب للبحار ،
وقيامهم بنشاط تجارى واسع ، افادت منه اوروبا فائدة كبرى . وكانت
النتيجة ان انتقلت كثير من المصطلحات التجارية والبحرية الاسلامية الى
مختلف اللغات الاوروبية بنطقها العربى . ونضرب مثلا لذلك بمصطلحات
مثل بازار ، ودينار ، وتعريفة ، وديوان . هذا من بعض المصطلحات
التجارية الاسلامية التى انتقلت الى اللغات الاوروبية . ومن المصطلحات
البحرية نذكر لفظة ادميرال من امير البحر .

وخلاصة القول ان العرب تمكنوا من ارتياد البحار والمحيطات
بمقدرة ومهارة ، حتى ملكوا زمام التجارة بين الشرق والغرب . ويقول
هنرى بيرين ان البحر المتوسط الذى كان حلقة الوصل بين شقى العالم ،
والذى كان حتى قبيل الاسلام بحرا رومانيا خالصا ، اصبح بعد حركة
الفتح وقيام الدولة العربية الاسلامية بحرا اسلاميا . اما آدم ميتز

فيقول في مؤلفه « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى » ، ان
تجارة المسلمين خلال ذلك القرن احتلت المكان الاول في التجارة العالمية •

ج — نظم التعليم والجامعات :

كان تدريس اللغة العربية موضع الاهتمام في الجامعات الاوروبية
في العصور الوسطى ، وذلك باعتبارها لغة العلم والمعرفة • وكان نفوذ
العرب في جامعتى سالرنو وبادوا في ايطاليا وجامعة باريس في فرنسا
ملموسا • واصبح للدراسات العربية الاسلامية فيها شأن كبير • ويجب
الا ننسى ان العالم العربى الاسلامى كان على معرفة بالجامعات ونظمها
قبل الغرب الاوروبى بمئات من السنين • ولدينا مثال في الجامعة
الازهرية في القاهرة التى انشئت في القرن العاشر الميلادى (القرن
الرابع الهجرى) ، والمدارس النظامية في بغداد التى اسست في القرن
الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) ، والمدرسة المستنصرية
في بغداد التى يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن
السابع الهجرى) • ولقد تميزت تلك المؤسسات التعليمية الاسلامية
بفخامة المباني ، واتساع الاروقة ، وثراء مكتباتها بالكتب في مختلف
افرع المعرفة الانسانية ، مع تهيئة وسائل الراحة بالنسبة للاستاذة
والطلاب • هذا ، فضلا عن وجود أوجه شبه عديدة بين النظم التى
اتبعت في الجامعات الاسلامية التى انشئت خلال القرنين العاشر والحادى
عشر للميلاد ، وبين تلك التى اتبعت في الجامعات الاوروبية التى نشأت
بعدها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد • ونجد هذا
التشابه في المواد التى كانت تدرس ، وفي طبيعة الدراسة ، وفي العلاقة
بين الاستاذ والطالب ، وفي مختلف نواحي النشاط في الحياة الجامعية •
وكذلك بالنسبة للهبات المالية ، ونظام المعيدى ، والجرى وراء الاستاذ
صاحب الشهرة العلمية المرموقة ، واجازة التدريس • وان دل هذا على
شئ ، فانما يدل على مدى افادة الغرب من انظمة الجامعات الاسلامية،
ومن لوائحها وقوانينها •

هذه كلمة سريعة عن بعض مآثر المدنية الاسلامية على الغرب والحضارة الغربية في العصور الوسطى ، تبين مدى ما افاده الغربيون من هذا التراث الحضارى الهائل ، كما ونوعا ، فى شتى افرع المعرفة والعلم . وقد اقتصرنا على بعض جوانب هذا التراث ، مثل الادب والجغرافية والرحلات والتجارة والعلم والتعليم ، كنماذج حية على سبيل المثال لا الحصر . ويطول بنا الحديث لو تتبعنا افضال العرب على الغرب فى كافة الميادين . فهناك الفلسفة ، والملاهوت ، والرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ، والكيمياء ، والطب ، و الصيدلة . وهناك ، ايضا ، الموسيقى ، والفنون ، والعمارة . وهناك فن التدوين التاريخى ، وآداب الحياة والسلوك ، والمعنويات ، وغيرها . كل هذا برز فيه العرب ، وتفوقوا فيه على الغربيين باعتراف كثير من المؤرخين الغربيين الحديثين ، وفى مقدمتهم الكاتب المعروف ول ديورانت .

المراجع

أولا — مراجع عربية

- أحمد امين : ضحى الاسلام ، ٣ ج ، القاهرة ١٩٤٣ .
- أحمد امين : ظهر الاسلام ، ٤ ج ، القاهرة ١٩٥٣ .
- جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، ط ٣ ،
اسكندرية ١٩٨٤ .
- زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الاسلامية واثرها في الحضارة
الاوربية ، القاهرة ١٩٦٣ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : الجامعات الاوربية في العصور الوسطى ،
القاهرة ١٩٥٩ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد انيس : النهضة الاوربية في العصور
الوسطى وبداية الحديثة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٠ .
- عباس محمود العقاد : اثر العرب في الحضارة الاوربية ، ط ٤ ، القاهرة
١٩٦٥ .
- قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ، القاهرة ١٩٦٠ .

ثانيا — مراجع معربة

- ارنولد (ت) وجيوم (أ) : تراث الاسلام ، ٢ ج ، القاهرة ١٩٣٦ .
- بروفنسال (ل) : الشعر العربى فى الاندلس واثره فى الشعر الاوروبى
فى العصر الوسيط ، سلسلة محاضرات القاها فى جامعة
الاسكندرية ونشرت فى مجلة الكتاب ، القاهرة مايو ١٩٤٧ .

جرونيياوم (ج • فون) : حضارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق
جاويد ، راجعه عبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٥٦ •

ساليان (ر • أ •) : ورثة الامبراطورية الرومانية : الغرب الجرمانى —
العالم الاسلامى — الدولة البيزنطية ، ترجمة وتقديم
جوزيف نسيم يوسف ، ط اولى ، اسكندرية ١٩٨٥ •

كولتون (ج • ج •) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة
جوزيف نسيم يوسف ، ط ٤ ، اسكندرية ١٩٨٣ •

لوبون (ج •) : حضارة العرب ، نقله الى العربية محمد عادل زعيتر ،
القاهرة ١٩٤٥ •

لويس (ب •) : العرب فى التاريخ ، تعريب نبيه أمين فارس ومحمود
يوسف زايد ، بيروت ١٩٤٥ •

هارتمان (ل • م •) وباراكلاف (ج •) : الدولة والامبراطورية فى العصور
الوسطى ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط ٤ ، اسكندرية
١٩٨٤ •

يعقوب (ج •) : اثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ، ترجمه
بتصرف فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٤٦ •

ثالثاً - مراجع اجنبية

Arnold, T.W., The Preaching of Islam, London, 1935.

Arnold, T. and Guillaume, A., (eds.), The Legacy of Islam, Oxford, 1952.

Atiya, A.S.,

1 The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

2 Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962.

والكتاب الثانى ترجمة باللغة العربية تحت عنوان :

عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب : تجارية — ثقافية —
صليبية ، ترجمة فيليب صابر سيف ، مراجعة احمد خاكي ،
القاهرة ١٩٧٢ •

Bloch, M., Feudal Society, trans. from the French by L.A. Manyon, 2 vols., London, 1967.

Brinton, C. and Others, A History of Civilization, 2 vols., New Jersey, 1967.

Gabrieli, F., Les Arabes, traduit de l'Italien par M. de Wasmer, Paris, 1963.

Gibb, H., Mohammedanism, London, 1957.

Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 vols., Paris, 1948.

Ker, W.P., The Dark Ages, London, 1955.

Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965.

Mahmud, S.F., The Story of Islam, London, 1959.

Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, trans. from the French by I.E. Clegg, London, 1961.

Rosenthal, E.I.J., *Political Thought in Medieval Islam*, Cambridge, 1958.

Runciman, S., *A History of the Crusades*, 3 vols., Cambridge, 1951 - 1955.

Stevenson, W., *The Crusaders in the East*, Cambridge, 1907.

الموضوع الثالث

دراسة في تاريخ الحركة الصليبية

مصادرها ، وعوامل قيامها

أولا — أهم مجموعات الحركة الصليبية ومصادرها :

- أ — أهم المجموعات المتضمنة المصادر الاصلية للحركة الصليبية •
- ب — المصادر الاجنبية والملاحظات عليها •
- ج — المصادر العربية والملاحظات عليها •

ثانيا — عوامل قيام الحركة الصليبية :

- أ — الاحوال السائدة في الشرق والغرب حتى قيام الحركة الصليبية •
- ب — نظرة الغرب الى الشرق ، والاتصال الروحي بينهما •
- ج — تطور فكرة الحج من الغرب الأوروبي الى الأراضى المقدسة منذ فجر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية •
- د — تطور فكرة الحرب المقدسة في الغرب الأوروبي منذ فجر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية •
- هـ — ضعف الدولة البيزنطية ، وتقدم الاتراك السلاجقة في أراضيتها •
- و — الأحوال السياسية والاقتصادية والدينية في الغرب قبيل قيام الحركة الصليبية •
- ز — العامل الدينى وأثره في قيام الحركة الصليبية •

مراجع عن الحروب الصليبية

اثبتت احدث البحوث التاريخية ، كما اثبت الواقع والتاريخ ، ان الحروب الصليبية هي حروب جامعة قام بها الغرب الاوروبى من اقصاه الى اقصاه ضد العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب ، تحت رداء الدين ، استجابة لنداء البابوية فى روما ، وتحت اشرافها ، وبتوجيه منها ، بقصد الاستيلاء على الاراضى المقدسة وتأسيس مملكة بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة ، وتوسيع حدودها ، والمحافظة عليها بثتى الطرق والوسائل ، لتكون نقطة ارتكاز لهم ينقضون منها على العالم العربى الاسلامى من المحيط الى الخليج •

واذا امعنا النظر فى هذه الحروب ، سوف نجد أنها تمثل دورا من ادوار الصراع المميز بين العالمين الاوروبى المسيحى والعربى الاسلامى الذى امتد من القرن السابع حتى القرن السادس عشر الميلادى (من القرن الاول حتى القرن العاشر الهجرى) • وهى تمثل ، فى نفس الوقت ، حلقة من حلقات الصراع الممتد بين شقى العالم منذ القدم وحتى اليوم • وقد شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) • وعرفت حروب القرنين الثانى عشر والثالث عشر بالحروب الصليبية المبكرة ، تميزا لها عن حروب القرن الرابع عشر التى عرفت بالحروب الصليبية المتأخرة • ومن الواضح ان الصراع بين المسيحية والاسلام منذ بدايات القرن السابع وحتى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (من القرن الاول حتى اواخر القرن الخامس الهجرى) قد مهدت للحروب الصليبية نفسها ، وادت فى نهاية الأمر الى قيامها • ومن الواضح ، أيضا ، ان الصراع بين المسيحية والاسلام اعتبارا من القرن الخامس عشر فصاعدا (اعتبارا من القرن التاسع الهجرى فصاعدا) يعتبر نتيجة للحروب الصليبية وخاتمة طبيعية لها باعتبارها أثرا من آثارها •

أولا — أهم مجموعات الحركة الصليبية ومصادرها

غنى عن القول ان الهدف من هذا العرض المركز ليس تناول منابع الحركة الصليبية واصولها بالدراسة التحليلية النقدية المقارنة • فهذا أمر يطول شرحه ويحتاج الى مجلدات • ثم انه ظهرت فيه دراسات هامة قيمة يمكن للمتخصص الرجوع اليها والافادة منها • واخص بالذكر الدراسة التي مهد بها كلود كاهن لكتابه المعنون « شمال الشام في عصر الحروب الصليبية » ، والدراسة التي مهد بها كل من رينيه جروسييه وستيفن رانسيمان لكتابيهما عن الحروب الصليبية • وفي المكتبة العربية دراسات جادة عن منابع الحروب الصليبية ، اذكر من بينها الدراسة التي مهد بها الدكتور محمود سعيد عمران لمؤلفه عن الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، وتلك التي قدم بها السيد محمد عبد العزيز عزيز لرسالته لدرجة الماجستير عن حملة الامبراطور فريدريك الثانى الصليبية على بلاد الشام المعروفة بالحملة السادسة ، والدراسات التي مهدت بها لثلاثة من كتبي هي : « العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى » ، و « العدوان الصليبي على مصر » ، و « العدوان الصليبي على بلاد الشام » •

وسوف يقتصر حديثنا على أهم المجموعات المتضمنة المصادر الاصلية للحركة الصليبية ، من عربية وغير عربية ، والملاحظات العامة على تلك المصادر •

أ — أهم المجموعات المتضمنة المصادر الاصلية للحركة الصليبية :

لعل اهم هذه المجموعات هي مجموعة كل من بونجارز ، وبوكيه ، وميشو ، ورينوه ، بالاضافة الى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، وارشيف الشرق اللاتينى ، وعدد من الدوريات المتخصصة مثل دورية الشرق اللاتينى ، ودورية الشرق المسيحى ، وفيما يلى بيان بها •

Bongars, J. (ed.), *Gesta Dei per Francos, sive orientalium expeditionum et regni Francorum hierosolimitani historia* (ab a. 1095 ad 1420) a varis, sed illius aevi scriptoribus, litteris, 2t., Hanover, 1612.

Bouquet, M. (ed.) *Recueil des Historiens des Gaules et de la France*, 24 vols., Paris, 1738 - 1904.

Michaud, J. (ed.), *Bibliothèque des Croisades*, 4 vols., Paris, 1829 :

- I. Chroniques de France;
- II. Id. et Chroniques d'Italie et d'Angleterre;
- III. Chroniques d'Allemagne, des Pays du nord, grecques, turques;
- IV. Chroniques arabes.

Reinaud, M., (ed.), *Extraits des historiens arabes relatifs aux guerres des Croisades*, Paris, 1829.

Recueil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres, 16 vols., Paris, 1841 - 1906 :

- I. Historiens Occidentaux, 5t. (1844 - 1895);
- II. Historiens Orientaux (Arabes), 5t. (1872 - 1906) ;
- III. Historiens Grecs, 2t. (1875 - 1881);
- IV. Documents Arméniens, 2t. (1869 - 1906);
- V. Lois, 2t. (1841 - 1843).

Les Archives de l'Orient Latin, publiées par la Société de l'Orient Latin, 2 vols., Paris, 1881 et 1887. (Textes, inventaires, et études originales).

Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. and general Index, London, 1887 - 1897.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogüé et Ch. Schefer, Paris, 1893 - 1911.

Revue de l'Orient Chrétien, dirigée par R. Graffin et F. Nau, Paris, 1906 - 1924.

ب — المصادر الأجنبية والملاحظات عليها :

تطور فن التدوين التاريخي في الغرب اعتبارا من القرن الثاني عشر بحيث لم يعد الكاتب أو المؤرخ يعتمد على طريقة السرد الحولي فحسب ، بل وجد من كتبوا في مواضيع متخصصة قائمة بذاتها • وقد زامن هذا قيام الحروب الصليبية • اذ وجد فرسان ومقاتلون شاركوا في هذه الحروب وسجلوا احداثها في مؤلفات لها وزنها لاتزال موجودة حتى اليوم يستمد منها المعنيون بتاريخ هذه الحروب معلوماتهم عنها • ولاشك أن تلك المصادر التي كان اصحابها شهود عيان لتلك الحروب التي شاركوا فيها بنصيب ملحوظ ، مايجعلها تحمل في طياتها صفة الوثائق الرسمية •

من هؤلاء فوشيه دي شارتر Foucher de Chartres والبرت دكس Albert d'Aix ، وريموند داجيل Remond d'Agiles ، والمؤرخ المجهول من مؤرخي الحملة الصليبية الاولى ، وروبرت كلاري Robert Clari ، وفيلهاردوان Villehardouin من مؤرخي الحملة الرابعة ، وجاك دي فيتري Jacques de Vitry من كتاب الحملة الخامسة ، وجان دي جوانفيل Jean de Joinville مؤرخ سيرة الملك الفرنسي لويس التاسع وتاريخ حملته على مصر والشام ، وهكذا • والى جانب هؤلاء يوجد عدد كبير من المؤرخين الغربيين الذين عاصروا الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يشتركوا فيها • ومع ذلك تركوا لنا مؤلفات على جانب كبير من الاهمية ، تناولت فيما تناولته اخبار الحركة الصليبية ، مثل متى الباريسي صاحب كتاب « تاريخ انجلترا » ، وويجلر Wiegler صاحب كتاب « الامبراطور المهرطق » والمقصود بذلك فريدريك الثاني ، ومتى اوف وستمنستر Matthew of Westminster صاحب كتاب « ازاهير التاريخ » ، وهم من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادي •

وثمة عدة ملاحظات تتعلق بالاصول الاجنبية المعاصرة للحركة الصليبية هي :

١ - المصادر الغربية مدونة اصلا اما باللغة اللاتينية أو الفرنسية القديمة أو الايطالية القديمة • وقد نشر معظمها نشرا علميا محققا وترجم الى اللغات الاوروبية الحديثة ، ونقل بعضها الى اللغة العربية ، وقليل منها لا يزال بلغته الأصلية التي كتب بها •

٢ - هدف الجانب الاكبر من المؤرخين الغربيين القدامى المعنيين بالحركة الصليبية ، هو عرض الحملات الصليبية التي عاصروها أو اسهموا فيها بنصيب • الا اننا نأخذ عليهم اهتمامهم الزائد بتمجيد الملوك والاباطرة الذين قادوا تلك الحملات أكثر من الاهتمام بتفاصيل الحملات نفسها • وقد يكون لهم في ذلك عذرهم • فطبيعة العصر ، وظروفة الاقتصادية والاجتماعية حيث ساد الاقطاع والنظام الطبقي ، لم تكن تسمح الا بذلك • وهذه الظاهرة واضحة في معظم حوايل ومصادر العصر • مثال ذلك كتاب جوانفيل عن سيرة لويس التاسع •

٣ - يلاحظ أن بعض الكتاب الغربيين الذين عاصروا احداث هذه الفترة من الزمن ، لم يتحروا الدقة في بعض التفاصيل التي كانوا يروونها • ومعظم هؤلاء لم يكونوا شهود عيان لاحداث الحملات الصليبية ، بل كانوا يدونون ما يصل الى الغرب عن طريق الخطابات واحاديث الرواة والحجاج والمقاتلين العائدين من الشرق ، دون التحقق من صحته أو زيفه • وكثيرا ماتكون هذه الاخبار غير صادقة أو مبالغاً فيها • ولذلك يجب تقبل مثل هذه الروايات بشيء من التحفظ والحذر ، ومقارنتها بغيرها من الاصول للوصول الى اسلم النتائج واصوبها بعيدا عن أي زيف أو افتعال • من ذلك ، على سبيل المثال ، رواية متي انباريسي في كتابه « تاريخ انجلترا » تحت احداث سنة ١٢٥٠ م ، من

استيلاء الفرنج في الحملة الصليبية السابعة على مدينة القاهرة مما لا يتفق والحقيقة التاريخية .

٤ — جدير بالتسجيل عند استعراض الاصول اللاتينية والفرنسية القديمة والايطالية القديمة المعاصرة للحركة الصليبية ، ان المؤرخين والكتاب الغربيين كانوا — بصفة عامة — على المام لا بأس به بأحوال كل من العالم الاسلامي والدولة البيزنطية ابان تلك الفترة من الزمن . وقد اشاروا الى ذلك في رسائلهم وكتبهم وحولياتهم بالقدر الذي يعنيههم . وان رواياتهم في هذا الصدد تعطينا فكرة لا بأس بها عن ظروف العالم الاسلامي وبيزنطة من وجهة النظر الغربية . آية ذلك الرسالة التي بعث بها الملك الفرنسي لويس التاسع من عكا في اغسطس ١٢٥٠ م الى الغرب يشرح فيها اسباب بقاءه في الشرق الادنى بعد هزيمته في مصر . ويلقى الضوء على الخلاف السياسي بين المماليك في مصر وبنى ايوب في الشام ، والخلاف المذهبي بين السنيين والشيعة في المشرق الاسلامي ، مبينا كيف ان هذه الخلافات قد أنعشت آماله ، وسعى لاستغلالها لصالح القضية الصليبية . بل لقد انفرد بعض هؤلاء المؤرخين بذكر وقائع واحداث اغفلتها الاصول العربية والبيزنطية أو على احسن القروض مرت عليها مرورا سريعا . من ذلك ، على سبيل المثال ، رواية جوائفيل عن مقتل المعظم توران شاه آخر ملوك بنى ايوب بمصر ، وبداية دولة المماليك البحرية ، وقد كان شاهد عيان لواقعة مقتله . وان مارواه في هذا الشأن لا يقل ان لم يزد عما جاء في المصادر العربية المعاصرة مثل تاليف ابن واصل ، وابن الجوزي ، وابى شامة .

٥ — تتعلق الملاحظة الاخيرة بتطور فن الكتابة التاريخية في الغرب اعتبارا من القرن الثاني عشر الميلادي . فالى جانب نظام الحوليات المعروف ، بدأ الكتاب يكتبون في مواضيع متخصصة قائمة بذاتها حسبما اسلفنا . وقد ظهر هذا بوضوح في المؤلفات التي تركها

لنا أولئك الذين عاصروا الحروب الصليبية وشاهدوا أحداثها ، بعكس الحال في الشرق ، إذ واصل المؤرخون الكتابة على غرار نظام الحوليات ساردين الأحداث سنة بعد أخرى . وتأتى أخبار الحروب الصليبية في ثنائيا هذا السرد الحولى . ولهذا السبب فقدت في أغلب الأحيان الرابطة الموضوعية والذقائق والتفاصيل المطلوبة .

ج ب المصادر العربية والملاحظات عليها :

هذا عن المصادر الأجنبية ، أما المصادر العربية المعاصرة للحركة الصليبية فتعتبر هي الأخرى الرئيسية بالنسبة للمتصدى لتاريخ هذه الحركة . ففيها مادة ممتازة من الدرجة الأولى فيما يتعلق بأحوال العالم الاسلامى واوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، والعلاقات القائمة بين دولة وبلدانه ، وتفاصيل الأحداث والمعارك التى دارت بين المسلمين والصليبيين فى شتى مراحل الحركة الصليبية .

فمن بين مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) ابن القلانسى ، وابن منقذ ، والاصفهانى . ومن كتاب القرن الثالث عشر (القرن السابع الهجرى) ابن الاثير ، وابن شداد ، وابن الجوزى ، وابو شامة ، وابن خلكان ، وابن واصل . ومن كتاب القرن الرابع عشر (القرن الثامن الهجرى) ابن ابيك ، والنويرى الكندى ، وابن الوردى ، والكتبى ، والصفدى . ومن القرن الخامس عشر (القرن التاسع الهجرى) ابن خلدون ، وابن دقماق ، والمقرئى ، والعينى ، وابن تغرى بردى . ومعظم هذه المصادر مطبوعة ، وبعضها لا يزال مخطوطا لم ينشر بعد .

وإذا كان بعض هؤلاء المؤرخين ينقل عادة عن السابقين ، فقد ترك لنا عدد منهم اشارات سريعة هامة أو شذرات متناثرة بين ثنائيا

السطور عن طبيعة العلاقات بين المسلمين والصليبيين في شتى مراحل الحركة الصليبية. لم ترد في الاصول المعاصرة ، ويغلب على الظن أنهم نقلوها عن اصول مفقودة مما يجعل لها أهمية خاصة . من ذلك الوصية التي تركها الصالح نجم الدين ايوب الى ابنه المعظم توران شاه آخر ملوك الدولة الايوبية بمصر ، والذي كان نائبا عن ابيه في حصن كيفا ببلاد الجزيرة . وقد وردت بها اشارات لها أهميتها عن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر وكيفية التصدي لها ودفعها عن البلاد . وقد عثرنا على نصها كاملا في كتاب « نهاية الارب » للنويري الكندي من مؤرخي القرن الرابع عشر الميلادي ، في حين ان المعاصرين لها مثل ابن واصل وابو شامة وابن الجوزي وابن خلكان لم يتعرضوا لها بكلمة واحدة .

يضاف الى ما تقدم ان بعض هذه المصادر انفردت بذكر وقائع واحداث لم ترد في الاصول الأخرى ، بينما مال البعض الى الاسهاب في ذكر التفاصيل ولجأ البعض الآخر الى التركيز الشديد ، ومر فريق ثالث على احداث هامة في تاريخ الحركة من الكرام في الوقت الذي اشار فيه الى احداث أخرى أقل أهمية ، الامر الذي يحتاج الى عقد المقارنات والموازنات بين مختلف المصادر من عربية وغير عربية بغية سد الفجوات والوصول الى الحقيقة . واخيرا ، فقد اشارت المصادر العربية الى احداث تتعلق بأحوال العالم الغربي زمن الحروب الصليبية اغفلتها المصادر اللاتينية نفسها مما يضيف عليها أهمية كبرى .

ومهما يكن ، فان هذا الاصول العربية تتمم ما جاء في المصادر الاجنبية ، وتغطينا صورة صادقة عن تاريخ الشرق الادنى الاسلامي خلال تلك الفترة من الزمن . واذا كانت المصادر الاجنبية تعبر عن شق واحد من اصول البحث ، فان المصادر العربية تعبر بدورها عن الشق الآخر . ولذلك فان مصادر الحركة الصليبية ، بشقيها ، تعبر

عن وجهتي النظر حيال الأحداث التي كان العالم العربي الإسلامي ، وبخاصة الشرق الإسلامي ، مسرحاً لها إبان الحروب الصليبية ، والقوى المختلفة المتصارعة التي أدت دورها فوقه ، والسياسات والمواقف التي اتخذها كل طرف حيال الأطراف الأخرى ، ومدى ما طرأ عليها من تغير بسبب المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على العالمين الأوروبي المسيحي والعربي الإسلامي وقتذاك .

ثانياً — عوامل قيام الحركة الصليبية

ما أكثر ما كتب عن دوافع قيام الحركة الصليبية ، باعتبارها من الحركات الخطيرة التي انتفض لها كيان العالم الوسيط والتي تركت آثارها لأحقاب طويلة بعد نهايتها . ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية من الإشارة إلى ذلك ، تفصيلاً وتحليلاً أو عرضاً وتركيزاً . ويلاحظ أن كل مؤرخ من المؤرخين الحديثين المعنيين بتاريخ تلك الحروب قد عالجه من زاوية معينة . فهناك من تناولها من مختلف النواحي من سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية وعسكرية وغيرها . بينما نظر إليها فريق آخر نظرة موضوعية شاملة من أعلا ، مع ربط مختلف الظروف والأحداث ببعضها وصولاً للحقيقة . وثمة فريق ثالث قسم أسباب قيامها إلى جوهرية غير مباشرة ترجع إلى مئات السنين قبل اندلاعها ، وثانوية مباشرة أدت مباشرة إلى اشتعال شرارتها الأولى . وحرص هذا الفريق على تحليل كل عامل على حدة . وكانت هذه المنظور ينتمي إلى المدرسة الأخيرة ، علماً بأنه لا يمكن — طبعاً وبداءة — فصل أي عامل عن العوامل الأخرى . فكلها مجتمعة متكاتفـة متداخلة في بعضها ، تفاعلت فيما بينها عبر فترات من الزمن ممتدة متباعدة ، وأدت في نهاية الأمر إلى قيامها .

من أهم هذه العوامل الأحوال السائدة في كل من الغرب الأوروبي

والدولة البيزنطية والعالم الاسلامى فى ذلك الحين • وعلى هذا يجب دراسة الجو الذى نشأت وتطورت فيه ، والقوى المختلفة التى أسهمت فيها ، بنصيب الى أن تبلورت واختفرت فى حركة لها كيانها ومقوماتها • ومن بين العوامل التى أسهمت أيضا فى قيامها نظرة الغرب الى الشرق منذ القدم باعتبارها مهبط الوحي والأديان ومهد العلم والمعرفة ، ثم تطور فكرة الحج والحروب المسيحية المقدسة فى الغرب فى الفترة السابقة لقيام الحركة الصليبية • يضاف الى كل ماتقدم ، وجود أفراد كان لكل منهم دوره فى تهيئة الأذهان لقبول هذه الفكرة • وأخيرا بعض الدوافع غير المباشرة التى أسهمت هى الأخرى فى التعجيل بقيامها ، كالأحوال الاقتصادية فى المجتمع الاوروبى وقتذاك • وعلى ضوء هذه الحقائق تكتمل الصورة التى هيأت الجو لاندلاع الحروب الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى (أخريات القرن الخامس الهجرى) ، والتى أكتوى العالم الاسلامى بنارها قرابة ثلاثة قرون من الزمان •

العامل الاول

الأحوال السائدة فى الشرق والغرب حتى قيام الحركة الصليبية

ونعنى بذلك الأحوال السائدة فى كل من العالم الاسلامى والدولة البيزنطية والغرب الأوروبى منذ القرن السابع وحتى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد • وفى صدد الكلام عن هذه القوى الثلاث وهى : بيزنطة والغرب الأوروبى والاسلام ، يلاحظ أنها كانت مرتبطة ببعضها أشد الارتباط • ولا يمكن للمقصدى للحركة الصليبية فصلها عن بعضها أو غض الطرف عنها • وثمة ملاحظة أخرى وهى أن الصراع كان مستمرا بين القوى المسيحية فى الغرب والشرق من ناحية وبين القوى الاسلامية فى المغرب والشرق من ناحية أخرى • وهو يبدأ بظهور الاسلام وحركة الفتح اعتبارا من القرن السابع ، ويستمر حتى قيام الحروب الصليبية

في أخريات القرن الحادى عشر • ويمكن تقسيم الصراع بين المسيحية في غرب اوزوبا وشرقها وبين الاسلام في القرون الخمسة السابقة لقيام الحروب الصليبية الى مرحلتين رئيسيتين متميزتين : المرحلة الاولى ، وتبدأ من الفتح الاسلامى منذ أوائل القرن السابع وتمتد حتى القرن التاسع الميلادى ، أى أنها تشغل القرون الثلاثة الاولى التى أعقبت حركة الفتح ، وفيها التزمت المسيحية في الجبهتين الشرقية والغربية بجانب الدفاع عن كيانها ضد المسلمين • أما المرحلة الثانية فهى تشغل القرنين العاشر والحادى عشر ، وقد قامت فيهما المسيحية بدور الهجوم ضد الاسلام ، واستمرت هذه المرحلة حتى قيام الحروب الصليبية نفسها •

المرحلة الأولى من الصراع بين المسيحية والاسلام :

هذا يقودنا الى الكلام عن ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن السابع الميلادى • ففي سنوات قلائل تمكنت الدعوة الجديدة ودانت لها كافة القبائل العربية التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها • وعلى هذا الاساس قامت الدولة العربية الاسلامية فتية ناهضة ، وخرجت من جزيرتها للفتح دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها وتأمينها لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود • وكان من الطبيعى أن يبدأ الصراع بينها وبين الامبراطورية البيزنطية التى تعرف في المراجع العربية باسم دولة الروم ، ذلك الصراع الذى انتهى في سنوات قلائل باستيلاء المسلمين على الولايات الشرقية التابعة لدولة الروم • فامتلكوا بلاد الشام وهى تشمل سورية وفلسطين ، كما وضعوا أيديهم على شرقى آسيا الصغرى ومصر وشمال افريقية • ووصلت الجيوش الاسلامية الى اسبانيا نفسها ، وباتت تهدد الغرب الأوروبى تهديدا مباشرا •

وكانت هذه الفتوحات ضرورية لكى يؤمن المجتمع الاسلامى

الجديد نفسه ، ويأمن من مضايقات الروم المستمرة له بحكم متاخمة الحدود . واستمر الصراع بين المسلمين والروم أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية . وفي عهد معاوية أول خلفاء الأمويين فتح المسلمون جزيرتي قبرص ورودرس وبعض الجزر اليونانية . وقاموا في أخريات القرن السابع وأوائل القرن الثامن بأكثر من محاولة للاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية . وكادت أن تقع في أيديهم لولا متانتها ومناعة أسوارها . وكانت المحاولة الاولى سنة ٦٧٣م أيام معاوية حيث دام حصار القسطنطينية أربع سنوات ، ولكن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح ، وكان ذلك في عهد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) . أما المحاولة الثانية فقد كانت سنة ٧١٧م أيام سليمان بن عبد الملك سابع خلفاء الأمويين ، والذي كانت تراوده فكرة الاستيلاء على بيزنطة . ولم تكن هذه الفكرة مجرد حلم ، وانما كانت أقرب ما تكون الى الضرورة السياسية والحربية . بمعنى أنه لو حدث واستولى المسلمون عليها ، لضمنوا سلامة دولتهم التي كانت بيزنطة تقف منها منذ البداية موقف العداء . وهذا أمر طبيعي ، فالاستيلاء عليها كان بمثابة ضمان نهائى لعدم تعرض الروم للمسلمين الذين اقتطعوا من دولتهم اجزاء هامة . وقد تمكن الامبراطور البيزنطي ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤٠ م) من صد هذه المحاولة . والمعروف أنه أعقبها محاولات أخرى لغزو العاصمة لم يقدر لها النجاح .

وهكذا كانت الحرب سجالا بين المسلمين والبيزنطيين طيلة العصر الأموى وخلال العصر العباسى . وكانت محاولات المسلمين الاستيلاء على القسطنطينية والتي نجح في صدّها ليو الثالث في أوائل القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) هى أقصى مراحل تقدمهم فى الجبهة الشرقية لأوروبا المسيحية .

وفى الجبهة الغربية امتدت الفتوحات الاسلامية حتى أسبانيا .

وتمكنت القوات الاسلامية فى القرن التاسع الميلادى (القرن الثالث الهجرى) من الاستيلاء على جزيرة كريت • وفى أوائل القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) أصبحت صقلية وجنوب ايطاليا فى قبضة المسلمين ، وأصبحت فرنسا نفسها مهددة بالغزو بين وقت وآخر •

وقد أجمع المؤرخون الحديثون ، على أن حركة الفتوحات الاسلامية على حساب كل من الدولة البيزنطية والغرب الأوروبى فى هذه المرحلة الأولى من الصراع ، كانت لها آثارها البعيدة المدى ليس فى التاريخ الأوروبى فحسب ، وإنما فى تاريخ البشرية بصفة عامة • ولعل أبلغ ما يحدد هذه الآثار ما كتبه العالم البلجيكى المعروف هنرى بيرين H.Pirenne من أن البحر الأبيض المتوسط الذى كان فيما سبق بحرا رومانيا أو « بحرنا » « Mare Nostrum » حسبما كان الرومان القدماء يسمونه ، أصبح فى معظمه بحيرة اسلامية • ويلقى المؤرخ المعروف جون لامونت J. LaMonte المزيد من الضوء على هذه المسألة •

المرحلة الثانية من الصراع بين المسيحية والاسلام :

تشغل هذه المرحلة القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد (القرنان الرابع والخامس الهجريان) ، وفيها ينقلب ميزان القوى لصالح كل من اللاتين والبيزنطيين ، ويصبح مركز الثقل فى جانبهم ، ويتخذون سياسة الهجوم ضد المسلمين مستغلين ضعفهم وانقسامهم ، بينما قام المسلمون بالدفاع عن أنفسهم وعن كياناتهم بوجه عام •

كان الصراع مستمرا بين المسلمين وبين كل من الروم واللاتين • فالدولة البيزنطية لها تاريخ حافل بالحروب مع المسلمين ، ويكاد يكون هذا الصراع سجالا بين الفريقين منذ الفتح الاسلامى حتى القرن

الثامن الميلادي • وكانت الحروب بينهما تقع في البر والبحر على السواء • وقد وقفت بيزنطة حتى ذلك التاريخ موقف الدفاع عن نفسها وممتلكاتها بسبب الضعف والوهن الذي أصاب أوصالها ، في وقت كانت تتقدم فيه الأمة العربية الإسلامية دفاعاً صادقاً عن عقيدة تؤمن بها وتأميناً لها وحماية لحدودها •

كانت كفة المسلمين هي الراجحة حتى أعتلت الأسرة المقدونية الحكم في بيزنطة (٨٦٧ — ١٠٥٩ م) فانقلب ميزان القوى في المنطقة • وقد أخرجت هذه الأسرة بعض الإباطرة الأقوياء من رجال الحرب والقتال الذين أخذوا على عاتقهم مهمة استرداد أملاك إمبراطوريتهم القديمة ، ومحاولة القضاء على قوة العرب الناهضة • وقد أمكنهم خلال نصف قرن من الزمان أن يصلوا إلى حدود فلسطين وشمال الشام ، واستولوا فيما بين عامي ٩٦٥ و ٩٧٥ م على كثير من المدن التي كانت في قبضة المسلمين • وللمزيد من الإيضاح نقول أن مجرى تلك الحروب تحول أيام مؤسس الأسرة بازيل الأول لمصلحة البيزنطيين • واستمرت الانتصارات في عهد قسطنطين السابع الذي استولى على مدينة حلب لفترة قصيرة عادت بعدها إلى المسلمين • ووصلت قوة بيزنطة مداها أيام نقفور فوكاس الذي استولى على صقلية وقبرص وأنطاكية وبعض المدن في آسيا الصغرى • بينما بلغت القوات البيزنطية حدود أورشليم وبغداد في عهد خليفته يوحنا ترمسكيس أو حنا الشمشق أو الدمستق كما تسميه المراجع العربية • وعلى أية حال ، فإن هؤلاء الإباطرة وإن لم يتمكنوا من مواصلة انتصاراتهم ، إلا أنهم نجحوا في الاحتفاظ ببعض البلدان التي استردوها •

ومما ساعد الأسرة المقدونية على تحقيق هذه الانتصارات ، ذلك الانحلال السياسي الذي أصاب الدولة العباسية في القرن العاشر الميلادي (القرن الرابع الهجري) ، في وقت انتعشت فيه الدولة البيزنطية وقويت فيها سلطة الحكومة المركزية •

هذا بالنسبة للمرحلة الثانية من الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، أما فيما يتعلق بالصراع بينهم وبين مسيحيي الغرب ، فالمعروف أن موقف المسيحيين في الغرب كان دفاعيا حتى القرن العاشر الميلادي . ولم يكن يخطر ببالهم القيام بحرب منظمة للاستيلاء على الاراضي المقدسة من قبضة المسلمين ، بل لم يكن يوسعهم العمل على استعادة البلاد التي استقر فيها المسلمون في أوروبا مثل اسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية . وكان موقفهم ، هم أيضا ، منذ الفتح حتى ذلك الحين هو موقف الدفاع عن أنفسهم في معظم الأحيان وعن بلدانهم التي كانت تسقط الواحدة تلو الاخرى في قبضة المسلمين .

ولتفهم ذلك ينحسن أن نمهد بكلمة سريعة عن الحالة في أوروبا خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد . لقد مرت أوروبا بفترة مظلمة عقب تفكك امبراطورية شارلمان توالى فيها غزوات المسلمين وانتصاراتهم المتلاحقة . واختل النظام وعمت الفوضى والاضطرابات ، وفقدت السلطة المركزية نفوذها وهيبتها . وانحطت الصناعة والتجارة والزراعة ، وأصبح الناس في حالة يرثى لها من الفقر والبؤس والحرمان . وانتشرت الامراض والأوبئة ، وعمت المجاعات وتدهورت الحضارة وانحطت القيم الخلقية انحطاطا لم يسبق له مثيل . كذلك دب الفساد في الجهاز الكنسي البابوي وأصبح في أمس الحاجة الى اصلاح .

وخلاصة القول أن البلاد في الغرب الأوروبي أصبحت مرتعا خصيبا للفوضى والفساد خلال القرنين التاسع والعاشر . أما في القرن الحادي عشر فقد ظهرت اسطورة تقول بأن الناس كانوا ينتظرون نهاية العالم في سنة ألف ، وأن المسيح سيظهر للمؤمن به . فأخذوا في التقرب الى الله والعمل على مرضاته بالتكفير عن خطاياهم ومعاصيهم ، ووجدت موجه من الزهد والتقشف . ويعتقد كثير من العلماء أن سبب نهضة القرن الحادي عشر في أوروبا ترجع الى هذه الأسطورة . ويرى المؤرخ

البلجيكي هنري بيرين Henri Pirenne في كتابيه « مدن العصور الوسطى » و « تاريخ أوروبا الاقتصادية والاجتماعى فى العصور الوسطى » ، أن الاسطورة المذكورة غير صحيحة ، وأنها تمتاز بقيمتها الرمزية فقط ، لأنها بداية عهد جديد فى غرب أوروبا خرج فيه من مساوىء الماضى الى عصر جديد .

وابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى يحدث انقلاب فى ميزان القوى بين الغرب الأوروبى والعالم العربى الاسلامى نتيجة التدهور التدريجى المستمر فى القوى الاسلامية فى منطقة غربى البحر المتوسط . هذا ، فى الوقت الذى أخذ فيه الغرب يستعيد قوته وينفض عن كاهله فساد الماضى القريب . وكان النظام الاقطاعى قد بلغ ذروته ، وازداد نشاط الأمراء الاقطاعيين ومغامراتهم وحروبهم ومحاولاتهم توسيع اقطاعياتهم على حساب جيرانهم . وفى نفس الوقت أخذ عدد السكان فى أوروبا يتزايد بشكل ملحوظ ، سواء أكانت الزيادة بين أفراد الشعب أو طبقة النبلاء الاقطاعيين . وفى مقاطعة نورمانديا ، مثلا ، تكاثر عدد الفرسان المحاربين الذين لا يمتلكون اراض أو اقطاعيات . ولما كان هؤلاء الفرسان حرفتهم الاولى هى الحرب والقتال ، فلم يكن لديهم أى مانع من الخدمة لحساب أى أمير أو سيد اقطاعى ارضاء لهذه الرغبة الدفينة الكامنة فى نفوسهم ، وطمعا فى المال الذى يغدق عليهم ، أو حبا فى المغامرة وامتلاك أراض جديدة . وكان مظهرا عاديا جدا تلك الحروب الدامية بين كبار رجال الاقطاع فى ذلك العصر .

وتحت ظل هذه الظروف استولى النورمان على جنوب ايطاليا خلال النصف الاول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وعلى صقلية فى النصف الثانى منه ، مستغلين فى ذلك المنازعات والخلافات القائمة بين المسلمين والحكام البيزنطيين من ناحية ، وبين المسلمين وبعضهم البعض من ناحية أخرى .

وأما في اسبانيا فقد ضعف نفوذ المسلمين فيها ، وكان ذلك في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى • وبدأ نضال الامارات المسيحية في الشمال وهى ليون وقشتاله وأراجون ونافار ضد المسلمين ، وأحرزت في ذلك نجاحا جزئيا ينحصر في استيلائها على مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، أى قبل قيام الحركة الصليبية بعشر سنوات • وكانت قوات الشمال هذه تجد العون والمساعدة من البلاد المسيحية المجاورة لها ، وخاصة من جنوب فرنسا وشرقها لصلة القرابة والنسب بينها • وقد أحرزت الحملات الاسبانية نجاحا لا بأس به رغم الانتصارات التى حققها الموحدون في هذه المنطقة •

وغير خاف أن هذه الحروب كانت فرصة طيبة أظهر فيها رجال الاقطاع ماتعلموه من فنون القتال ، كما حققوا آمالهم في التوسع والمخاطرة ورؤية بلاد وأصقاع جديدة ، أو على الأقل في القيام بعمل يعتبر في نظرهم كافيا للتكفير عن ذنوبهم وخطاياهم •

نخلص مما سبق أن ميزان القوى في الصراع الناشب بين الشرق والغرب منذ القرن السابع حتى أخريات القرن الحادى عشر للميلاد ، كان في صالح المسلمين في المرحلة الاولى من كفاحهم ضد الدولة البيزنطية والغرب الاوروبى ، حيث أحرزوا انتصارات ضخمة متتالية منذ الفتح حتى أواخر القرن التاسع ، في وقت كان فيه خصومهم في حالة ضعف وتفكك ، وفي وقت قام فيه المسلمون بالفتح دفاعا عن كيانهم ونشرا للدين الجديد • واعتبارا من القرن العاشر الميلادى ينقلب ميزان القوى لصالح الروم واللاتين الذين أخذوا يستعيدون قوتهم وتماسكهم ، واستولوا على كثير من البلاد التى كانت في قبضة المسلمين ، في وقت أصاب فيه العالم الاسلامى التفكك والوهن • ولذلك عندما قامت الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كانت الظروف مواتية تماما لأن يحقق الغرب الأوروبى تلك الانتصارات السريعة المتلاحقة التى لم يكن يحلم بها في يوم ما •

لعلنا نستبين مما تقدم أن فكرة الحروب المسيحية ضد المسلمين فكرة قديمة وعادية عند الأوروبيين الغربيين والروم الشرقيين ، وتعتبر في الوقت نفسه خطوة تمهيدية لتلك الحروب التي اشتهرت في التاريخ باسم « الحروب الصليبية » .

وعلى ذلك عندما نتحدث عن الحروب الأوروبية ضد المسلمين ، أو عن الصراع بين المسلمين وبين كل من الروم واللاتين في الفترة السابقة لقيام الحركة الصليبية ، لانعنى اطلاقا الحروب الصليبية التي لها مميزاتها وخصائصها ومفهومها الدقيق . ويمكن القول ان تلك الحروب اليومية التي شنّها البيزنطيون أو مسيحيو الغرب ضد المسلمين قد مهدت الطريق للحروب الصليبية نفسها وهيأت الجو لقيامها ، تماما مثل تلك الحروب التي قامت في القرن الرابع عشر الميلادي والتي تعتبر في الواقع من أهم آثار الحركة الصليبية نفسها .

العامل الثاني

نظرة الغرب الى الشرق والاتصال الروحي بينهما

إذا كانت الأحوال التي سادت العالم الأوروبي في جبهتيه الشرقية والغربية منذ القرن السابع الميلادي حتى قيام الحركة الصليبية في أخريات القرن الحادي عشر تلقى الضوء على الظروف التي مهدت لقيام هذه الحركة ، فلاشك أن هناك عوامل أخرى متفاوتة التأثير أسهمت بدورها في اخراج هذه الفكرة الى حيز الواقع والأشياء الملموسة . ومن هذه العوامل الرئيسية نظرة الغرب الى الشرق منذ القدم ، وقبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون طويلة .

لقد كان الشرق منذ أقدم العصور محور العلم والمعرفة ومهبط

الوحي والأديان ، ومركز الحضارة والاشعاع الثقافى • وازداد الشرق رفعة ومكانة لدى الغرب عقب سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة عام ٤٧٦م ، واجتياح البرابرة لدول غرب اوروبا ، وقضائهم عليها وعلى معالم الحضارة والمدنية الرومانية الزاهرة ، بل وعلى جهاز العمل الرومانى العقيق فى القانون والسياسة والاقتصاد والدين والفكر ، مما أوجد حالة من الفوضى والدمار عانى منها الغرب الامرين • هذا ، بينما لم يصب الشرق من غزوات أولئك البرابرة الا القليل • وفى الوقت الذى تضاعفت فيه معالم الحضارة والمدنية فى أوروبا ، وفى الوقت الذى تدهورت فيه الصناعة والزراعة والتجارة ، وفى الوقت الذى عم فيه البؤس والفقر والجهل ، وفى الوقت الذى انتشرت فيه الامراض والابوثة والطواعين - فى هذا الوقت بالذات ازدهرت المدنية فى الشرق ، وظهرت على مسرح الاحداث مدن لها مكانتها مثل الاسكندرية والقسطنطينية وانطاكية وبيت المقدس • وفى الشرق قامت الراهبة والديرية التى أخذها عنها الغرب • وفيه عقدت المجامع المسكونية الكبيرة المعروفة فى تاريخ العصور الوسطى • وفيه أيضا نشأ الفن المسيحى الاول • وفيه نشأت الجامعات العلمية التى اقتبسها عنه الغرب • وفيه ظهرت المسيحية التى انتقلت الى الغرب ، كل هذا يدل على مدى التقدم الفكرى والثقافى والحضارى الذى وصل اليه الشرق ، فى وقت كان فيه الغرب الاوروبى يعانى الامرين من عوامل التدهور والاحتلال التى حلت به عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط •

فلا عجب اذا اهتم أهل الغرب بالشرق ذلك الاهتمام الواضح الكبير الذى يرجع الى ما قبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون عديدة • ولا عجب أن يجد أهل الغرب فى الشرق العزاء والسلوى بعد أن أنهكتهم وهدت كياناتهم الازمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أتت على الدولة الرومانية القديمة ، وعلى نظمها وحضارتها • لذلك وجد الغرب المتعب المنهوك القوى فى الشرق بفلسفاته ولا هوياته وأديانه العزاء والسلوى فى عصر تغير وانتقال ، كان كل شىء فيه فى تغير تدريجى مستمر ، ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله •

كذلك كان يحج الى الشرق كثير من الاوروبيين • وكانوا يجدون لذة فائقة ومتعة كبيرة فى سبيل ذلك ، على الرغم من الصعاب والمخاطر التى كانت تواجههم فى الطريق بسبب بعد الشقة وصعوبة المواصلات، فى وقت كانت فيه المواصلات بطيئة مخوفة بالمخاطر • وكان مسيحيو الغرب الاوروبى يتهافتون لسماع اخبار الشرق من الرواة والحجاج العائدين الذين كانوا يروون لهم القصص المثيرة والاخبار التى لا تخلو من المبالغة والتهويل والتى هى أقرب الى الاساطير منها الى الحقائق التاريخية •

هذا ، ومن بين الامور التى نبهت الغرب الى الشرق وجود جالية من التجار الغربيين فى الشرق ، فضلا عن وجود جاليات وفيرة العدد من التجار الشرقيين فى أوروبا نفسها • وكانوا يطلقون عليهم فى أوروبا اسم «السوريين» سواء أكانوا من سورية أو من غيرها من مدن الشرق • وقد احتكر أفراد هذه الجاليات التجارة بين الشرق والغرب ، وأمكنهم بفضل نفوذهم و ثرائهم من الوصول الى أرفع المناصب ، ومنها كرسى البابوية نفسه ، وأصبح بعضهم أساقفة لمدن كبيرة فى أوروبا • ولم تكن تجارتهم قاصرة على استيراد وتصدير السلع والبضائع ، بل انهم جلبوا معهم الى الغرب نظم الرهبنة والديرية وبعض المعارف والعلوم والاداب والفنون • وكانت كل هذه الامور أول معرفة الغرب بها ، فزادتهم تشوقا للشرق وتلهفا لزيارته وسماع أخباره والحج اليه •

فلا غرو ، اذن ، أن يصادف الشرق هوى فى نفوس الغربيين لكل هذه المغريات التى يقدمها لهم ، فى وقت كانوا هم فيه فى أمس الحاجة الى ما يخفف عنهم عبء الحياة فى الغرب والى ما يزيح عن كواهلهم حالة القلق والاضطراب التى كانوا يعانونها • ولا شك أن هذا العامل النفسانى كان له أثره غير المباشر ، الى جانب العوامل الاخرى فى تهيئة الجو لقيام الحروب الصليبية •

العامل الثالث

تطور فكرة الحج من الغرب الاوروبى الى الاراضى المقدسة منذ فجر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية

بالاضافة الى العاملين السابقين اللذين دفعا الغرب الى الاهتمام بالشرق ، فقد كانت توجد فيه مدينة بيت المقدس ، تلك المدينة التى لها فى نفوس المسيحيين مكانة خاصة ، والتى يعتقدون أن المسيح قد قدسها بوجوده فيها . ومن هنا نبتت فكرة زيارة المكان الذى ولد فيه السيد المسيح والبلدان التى زارها أو بشر فيها برسالته . ثم أن بعض الجماعات الرهبانية الغربية أسست لها أديرة فى الشرق وفى الاراضى المقدسة بصفة خاصة ، بقصد ايواء الحجاج الغربيين والسهر على راحتهم وعلاجهم اذا اقتضى الامر ذلك . كما كانت هذه الاديرة أمكنة كرس فيها الرهبان وقتهم للصلاة والعبادة على مقربة من القبر المقدس الذى يطلق عليه العرب اسم الضريح المقدس أو كنيسة القيامة . ومن هذا الوقت بدأت فكرة الحج الى الاراضى المقدسة تأخذ شكلا منظما بقيادة رجال الدين أنفسهم .

وجدير بالذكر قبل استعراض تطور حركة الحج من الغرب المسيحي الى الاراضى المقدسة عبر القرون والاجيال ، أن الدين المسيحي لم ينص فى البداية على مسألة القيام بالحج كفرض واجب الاداء . ولم تنص الكنيسة فى العصور الاولى للمسيحية على ثواب معين لمن يقوم بذلك ، بعكس الدين الاسلامى الذى نص على القيام بالحج الى بيت الله كأحد الفروض الخمسة فى الاسلام الواجبة على كل مسلم قادر ان استطاع الى ذلك سبيلا . وهذه الفروض هى : النطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج . وكتاب الله عامر بالايات القرآنية الخاصة بالحج . فقد جاء فى سورة البقرة « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان

يطوف بهما » و « ولا فسوق ولا جدال فى الحج » و « الحج أشهر معلومات » • ومن هنا يتضح لنا التباين بين نظرة كل من الاسلام والمسيحية الى فكرة الحج كفريضة • كما يتضح أيضا أن زيادة الحجاج الغربيين للمكانة المقدسة فى الشرق كالقبر المقدس وبيت لحم والناصره وصفورية والجليل وجبل الزيتون وغيرها - كل هذا لم يكن له أى جزاء أو ثواب تنص عليه الكنيسة المسيحية صراحة فى فجر تاريخها • انما كان الفرد يقوم به من تلقاء نفسه فى بادى الامر اعتقادا منه أنه بذلك انما يكفر عن اثامته ويقرب نفسه الى الله • ولكن بتوالى السنين أصبحت الزيارة الى الاراضى المقدسة جزءا هاما من شعائر الدين المسيحى كما سيتضح من العرض التالى •

إذا استعرضنا حركة الحج وتتبعنا تطورها منذ فجر المسيحية ، نجد ان الحجاج لاقوا الكثير من الصعاب فى القرون الثلاثة الاولى من ظهور المسيحية • ذلك أن الاباطرة الرومان اعتبروا المسيحية منافسا لهم ولنفوذهم وسلطانهم ، ودولة داخل الدولة ، وتهديدا خطيرا لوحدة الامبراطورية الرومانية التى كان يرمز لها بالسلم الرومانى • وقد كان من الممكن ان يترك الاباطرة الرومان الديانة الجديدة وشأنها لو لم تتعرض لنشئ واحد وهو عبادة الامبراطور ، اذ قالت انه فى نظر الله لا فرق بين سيد ومسود وبين عبد وامبراطور ، كما دعت الى وحدانية الله دون عبادة الاباطرة • ومن ثم قاومها الاباطرة بكل الوسائل والسبل ، وحاولوا طمس معالمها واستئصال شأفتها • ومن هنا قامت حركة الاضطهادات المعروفة فى تاريخ المسيحية ابتداء باضطهاد نيرون فى أواسط القرن الاول الميلادى ، وبلغت أشدها زمن دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث حتى أن عهده عرف باسم عهد الاضطهاد الاعظم • وكان من بين الوسائل التى لجأ اليها أباطرة روما منع الحجاج من السفر الى الاراضى المقدسة • ولهذا لم يكن من المنتظر فى ظل تلك الظروف أن تنتعش حركة الحج فى القرون الثلاثة الاولى من المسيحية •

هكذا كان القيام بالحج خلال تلك القرون الثلاثة أمرا صعبا غير

ميسور بسبب موقف الدولة الرومانية من الديانة المسيحية ومن معتنقيها، وكذلك بسبب موقف الاباطرة الرومان أنفسهم الذين كانوا يعتبرون المسيحية تهديدا خطيرا ومباشرا لنفوذهم وسلطانهم ، حتى أنهم قاوموها بشتى السبل والوسائل * ولكن عندما اعترفت روما بالديانة الجديدة كدين رسمى للدولة فى بدايات القرن الرابع تغير الموقف ، ووجد الحجاج من الاباطرة الرومان التسهيلات الكافية *

وبناء على ذلك كان من الطبيعى أن تنشط وقتذاك حركة الحج الى الاراضى المقدسة * ومما ساعد على ذلك اعتراف الامبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية كدين رسمى للدولة ، وبكنيستها باعتبارها كنيسة الدولة ، وبالامبراطور باعتباره الرئيس الدينى الاعلى لها * كذلك عثر هيلينا أم الامبراطور قسطنطين على موضع الجثة وهو المكان الذى وجدت فيه أدوات تعذيب الرومان واليهود للمسيح وهى : الصليب الذى صلب عليه وتاج الشوك والمسامير والحربة وقطعة الاسفنج ، ثم قيام ابنها ببناء كنيسة فى بيت المقدس أصبحت فيما بعد كعبة الحجاج المسيحيين ومحط آمالهم من كافة أنحاء العالم ، تلك الكنيسة التى لعبت دورا خطيرا لاجيال طويلة ، ولا زالت ماثلة حتى يومنا هذا *

واستتبع القيام بالحج الى الاراضى المقدسة وكنيسة القيامة الاهتمام الزائد الذى أولاه المسيحيون بجمع آثار الرسل والقديسين سواء أكان هذا الاثر اصبع أحد الرسل أو خصلة من شعره أو قطعة من ملابسه * وبمرور الوقت أخذ تبجيل القديسين فى التزايد حتى أن بعض رجال الدين المسيحى فى العصور المبكرة أخذوا يقولون بأنه من الممكن الحصول على مساعدة الرب بالدعاء عند أضرحة أولئك القديسين والتبرك بها والتمسح عندها * وكان من الطبيعى أن يذهب الحجاج العربيون الى الشرق لزيارة هذه الاضرحة والتبرك بها وطلب الشفاعة عندها ، ثم جمع ما يمكن جمعه من اثار الرسل والقديسين حتى ولو كان نقطة من

الدم المقدس أو قطعة من خشب الصليب الذي صلب عليه المسيح أو حفنة من تراب بيت المقدس • وقد بلغ من تسلط هذه الفكرة على أهل الغرب وعلى عقولهم أنهم كانوا يرسلون السفارات إلى الشرق للحصول على بعض هذه البقايا والمخلفات ودفع مبالغ خيالية لشرائها وابتناء الكنائس لحفظها بها • واستمرت هذه العادة عند أهل الغرب وازداد تمسكهم بها مع الزمن • وكان طبيعياً أن تزيد هذه المخلفات الدينية من اهتمام الغرب بالشرق والعمل على الاتصال به والتعرف عليه في هذه الفترة المتقدمة •

هكذا نمت حركة الحج من الغرب الأوروبي إلى الأرض المقدسة خلال القرن الرابع ومعظم القرن الخامس الميلادي • وكانت أفواج الحجاج وقتها تضم في بعض الأحيان الكثير من السيدات والشيوخ الذين لم تمنعهم مشقة السفر وبعد الطريق من أداء هذا الواجب • ولكن هذه الحركة سرعان ما ضعفت مرة أخرى خلال القرنين السادس والسابع بسبب غزوات الجرمان البرابرة في غرب أوروبا التي أدت إلى وجود حالة من الفوضى والاضطراب لم يشهدها الغرب من قبل • وفي ظل هذه الظروف لم يكن من السهل أن تنفتح حركة الحج ، بينما كان الجرمان ينزلون بجحافلهم الجرارة في غرب أوروبا ويكتسحون في طريقهم كل شيء • وفي ذلك الحين قامت الدولة العربية الإسلامية فتية ناهضة لتؤدي دورها على مسرح الأحداث ، وامتدت حدودها من المحيط في الغرب إلى الخليج في الشرق •

ولم يحل القرن الثامن الميلادي حتى كانت حركة الحج قد نشطت من جديد • ومن أهم عوامل ذلك استقرار الأمور في غرب أوروبا بعض الشيء بعد أن هدأت غزوات البرابرة ، وسياسة التسامح الديني التي أبدوها المسلمون حيال الحجاج المسيحيين وتقديم كافة التسهيلات اللازمة لهم • وكانت النتيجة أن ازداد عدد الحجاج الذين كانوا يفدون إلى الشرق

على هيئة جماعات كبيرة بعد أن كانوا يعدون فيما مضى على أصابع اليد الواحدة ، الامر الذى استلزم تفكير المسئولين فى الغرب الى القيام بمحاولات أولية لتنظيم هذه العملية • وقد تم ذلك تحت اشراف الامبراطور شارلمان •

لقد تبادل هذا الامبراطور السفارات والهدايا مع الخليفة العباسى المعاصر له هارون الرشيد • وكان يهدف من وراء ذلك الحصول على تفويض من الخليفة العباسى بحماية مسيحيى فلسطين • ونجح شارلمان فى الحصول على هذا الامتياز ، فى وقت كان يفكر فيه باعادة الامبراطورية القديمة الى سابق مجدها ، وذلك بتوحيد الامبراطوريتين : الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة والامبراطورية الرومانية الشرقية فى امبراطورية واحدة يكون هو على رأسها • ومما يذكر أن الخليفة العباسى منحه فوق ذلك ملكية القبر المقدس الذى كان له فى نفوس الغربيين مكانة كبيرة • وجدير بالذكر فى هذا المقام أن أمر هذه السفارات المتبادلة بين العاهلين الكبيرين المسيحى والمسلم قد ورد ذكرها فى المصادر الغربية فقط ، بينما لم تتعرض لها المصادر العربية من معاصرة وغير معاصرة بكلمة واحدة على الاطلاق • ولا نجد تفسيراً لذلك • وربما يرجع ذلك لحدثة عهد العرب بالتدوين التاريخى وقتها ، فضلا عن اتباعهم نظام السرد الحولى الذى لم يكن يسمح بالكتابة فى مواضيع متخصصة • وكيفما كان الامر، يعتقد بعض المؤرخين الحديثين أن النجاح الذى حققه شارلمان فى هذا السبيل كان له أكبر الاثر فى تقويجه امبراطورا على الغرب فى سنة ٨٠٠م • عندما وضع بابا روما ليو الثالث التاج على رأسه فى ليلة عيد الميلاد من السنة المذكورة ليصبح خليفة القياصرة الاقدمين • هذا ، ومن أهم مظاهر الحماية التى فوضه بها هارون الرشيد هو توسط شارلمان فى سبيل الحجاج المسيحيين لدى الخلفاء المسلمين وارسال المساعدات المادية اليهم والعمل على راحتهم •

هكذا ذاع صيت شارلمان فى الشرق والغرب على السواء • ويقال

ان هارون الرشيد أرسل اليه بعثته المشهورة من بغداد تحمل عذة هدايا
ثمينة من بينها فيل ومجموعة شمعدانات فضية من صناعة الشرق وساعة
مائية . كذلك أرسل اليه بطريارك بيت المقدس الاغريقي مفاتيح قبر
السيد المسيح اعترافا منه بزعامته على العالم المسيحي كله بشقيته
الغربي والشرقي .

وكان من نتيجة هذا التفاهم وذلك الاتفاق ان ازداد عدد المؤسسات
والاديرة اللاتينية في الاراضي المقدسة . وابتداء من هذا التاريخ بدأ
الاوروبيون من بابوات وأباطرة وملوك وكبار رجال الاقطاع في ارسال
المساعدات والهبات بصفة مستمرة منظمة . كما بدأوا هم أنفسهم في الحج
إلى الاراضي المقدسة في أفواج كبيرة اعتبارا من القرن التاسع عشر
الميلادي .

ولكن في أخريات هذا القرن أصاب حركة الحج بعض الضعف بسبب
اضمحلال الامبراطورية الكارولنجية واقتسام أشلائها بين أبناء شارلمان
وأحفاده . وترتب على ذلك تفكك الغرب ووجود حالة من القلق وعدم الاستقرار
الامر الذي لم يتح لحركة الحج أن تزدهر أو تنمو . ولكن هذه الفترة
لم تدم طويلا . ففي القرن العاشر الميلادي انتعشت الحركة من جديد
انتعاشا كبيرا . ويرجع ذلك لاستقرار الاحوال في أوروبا ، وتحديد
الامبراطور الرومانية المقدسة في عهد اوتو الكبير ، فضلا عن عوامل
أخرى عديدة أدت إلى اعتبار القرن العاشر العهد الاكبر لحركة الحج ،
وأصبحت هذه الحركة تجد هوى من نفوس رجال الاقطاع المحبين للمخاطرة
ورؤية بلاد وأراض جديدة . وكان الاقطاع قد تأصلت جذوره في الغرب
الاوروبي وقتذاك ، وكان أمراء الاقطاع يجدون متعة ولذة وهم يستمعون
إلى أحاديث الرواة والحجاج العائدين من الاراضي المقدسة ، كما
تشوقوا هم للقيام بهذه الزيارة التي تشبع رغبة دفينية في نفوسهم .
يضاف إلى ذلك ان فكرة الحج في حد ذاتها كانت مظهرا من مظاهر التقوى
والتدين ، وأن الصعاب التي يلاقيها المسافر ، فضلا عن مشقة السفر

وبعد الشقة وصعوبة الطريق ، كانت كهيئة بالتكفير عن المعاصي والذنوب . ومن منهم بدون معصية أو ذنب . ويلاحظ أيضا ان الادب المتعلق بحركة الحج قد ازداد ازديادا واضحا في أوروبا في ذلك الحين ، وكان من الامور المحببة عند السادة الاشراف وعامة الشعب على السواء . وكان هذا الادب يتضمن الاساطير والروايات الدينية المبالغ فيها عن هذه البقعة المقدسة ومدى ما يجنيه كل من يحج اليها .

وهناك ، بالاضافة الى ما تقدم ، عوامل أخرى ساعدت على انتعاش الحركة ، منها استعادة البحرية البيزنطية لبعض نفوذها في البحر المتوسط ، كذلك تسامح السلطات الاسلامية ، سواء أكانت عباسية أو اخشيديّة أو فاطمية ، حيال المسيحيين الذين يفدون الى الاراضي المقدسة . فقد كان هؤلاء المسيحيون الغربيون ، حسبما تؤكد المصادر القديمة ، يقومون بحجهم الى تلك الاراضي وهم هادئين امنين مطمئنين ، وذلك عندما كانت مدينة بيت المقدس خاضعة للخلافة الفاطمية التي اشتهرت بسعة صدرها وتسامحها في أمور الدين .

وثمة عامل اخر ساعد على انتعاش الحركة هو تلك العقيدة التي أخذت في التمكن من نفوس المسيحيين على مر القرون والخاصة بثواب الحج الى الاراضي المقدسة . ولم يعد بعد المسافة بين الاقطار الاوروبية والاراضي المقدسة حائلا دون القيام بالحج . بل كلما ازدادت المسافة بعدا وكلما ازدادت مخاطر الطريق شدة وهولا ، كلما كان ذلك مدعاة لاطمئنان الحجاج الى غفران خطاياهم واثامهم . وكانت المتاعب والاهوال التي يصاندها الحاج في الطريق ، ومنها الجوع والظما وتشقق الايدي والاقدام والتعرض لحرارة الصيف وبرودة الشتاء ، فضلا عن الامراض التي تداهم - كان يجد في كل ذلك راحة نفسية عميقة من ناحية . وتخليصا لنفسه من الادران والمعاصي العالقة بها من ناحية أخرى .

يضاف الى كل ما تقدم أنه ظهرت في القرن العاشر جماعة رهبانية

قوية هي جماعة دير كلونى الواقع بالقرب من الحدود الفرنسية الالمانية على بعد عدة أميال من مدينة ماسون *Mâcon* الفرنسية . وقد نادت هذه الحركة بالاصلاح الدينى بعد الفساد الذى تغلغل فى الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب ابتداء من أصغر قس حتى البابا نفسه ، وبعد التدهور الذى أصاب الرهبنة والديرية . ولم تخضع هذه الجماعة لاحد من رجال الاقطاع ، وانما كانت تتلقى أوامرها من البابا رأسا . وقد انتشرت مبادئها وأديرتها فى كافة أنحاء الغرب الاوروبى حتى أصبح رئيس دير كلونى الرئيسى يلى البابا فى المرتبة مباشرة . وكان كثير من البابوات الذين جلسوا على الكرسي البابوى فى روما ممن عاشوا وتربوا فى أديرة كلونى ، ومن تشبعوا بآرائها ومبادئها مثل جريجورى السابع واربان الثانى . والامر الهام أن رجال كلونى ساهموا مساهمة فعالة فى تنظيم حركة الحج ومساندتها ، ثم فى الدعوة للحروب الصليبية والتبشير بها فيما بعد . وشيدت عدة مراكز لها يمكن للحجاج الاوروبيين الاستراحة فيها خلال رحلتهم الطويلة الشاقة . وكانت مجهوداتهم فى الترغيب الى الحج فعالة مثمرة .

وفى ظل العوامل سالفة الذكر استأنف الغربيون السفر الى الاراضى المقدسة . وكان زيادة عدد الحجاج أمرا ملحوظا فى القرن الحادى عشر . فأصبحوا فى هذا القرن يذهبون الى الاراضى المقدسة فى قوافل كبيرة يبلغ عدد المشتركين فيها فى بعض الاحيان عدة الاف ، بعكس الحال فى القرون السابقة . وكان أولئك الحجاج فى أغلب الاحيان مسلحين لحماية أنفسهم من أخطار الطريق . وقد حفظ لنا التاريخ أسماء الكثير من كبار رجال الدين وكبار رجال الاقطاع ممن قاموا بهذه الزيارة . كذلك أخذت أمكنة الضيافة وعدد الملاجئ والفساد والاستراحات الخاصة ببايواء الحجاج والعناية بهم تتزايد زيادة مطردة على طول طريق الحج من الغرب الى الاراضى المقدسة فى الشرق .

وكان الحجاج العائدون يستقبلون فى بلادهم استقبال الابطال ،

وكانوا يثيرون فى نفوس مسيحيى الغرب الشوق والحماسة بما يروونه عن مشاهداتهم فى الارض المقدسة • وأغلب هذه الروايات ما يكون مبالغاً فيها ، وكان هدفها اثاره الغرب اللاتينى لزيارة الشرق • وبذلك نشر أولئك الحجاج أبلغ دعاية فى غرب أوروبا للحركة الصليبية نفسها •

ولكن حركة الحج التى بلغت ذروتها فى القرن الحادى عشر مالبث أن ضعفت فى أخريات ذلك القرن • اذ تغير الحال بعد استيلاء السلاجقة على مدينة بيت المقدس سنة ١٠٧٠م من الفاطميين ، وكانت الخلافة الفاطمية فى مصر وقتها فى طريقها الى الزوال • ثم اتجهت جحافل السلاجقة بعد ذلك نحو اسيا الصغرى حيث ألحقت بالدولة البيزنطية فى عهد امبراطورها رومانوس الرابع ديوجينيس هزيمة منكرة فى موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١م ، أى بعد استيلائهم على بيت المقدس بسنة واحدة • وأخذ السلاجقة يتوغلون فى اسيا الصغرى على حساب الضعف الذى استشرى فى كيان كل من بيزنطة والخلافة الفاطمية فى مصر • وكان لهذا أثره على ضعف حركة الحج الى الاراضى المقدسة • والواقع ان الدعايات المبالغ فيها التى يرويها الحجاج الاوروبيون الذين كانوا يرتادون الاراضى المقدسة عن سوء معاملة السلاجقة لهم ومنعهم من زيارة القبر المقدس ، كان لها أثرها فى اثاره الشعور والحماس الدينى لدى مسيحيى الغرب ، وتهيئة الجو فيما بعد عندما قامت الحركة الصليبية •

ولابد لنا فى هذا المقام ونحن نتحدث عن تطور حركة الحج عبر القرون أن نشير الى رحلة لها أهمية خاصة فى تاريخ حركة الحج ، والتى حدث ببعض المؤرخين الغربيين الحديثين الى اعتبارها تجاوزاً حرباً صليبية ، وذلك نظراً لكثرة عدد المشتركين فيها ، وأن هدفها بيت المقدس ووجهتها قبر المسيح • ونعنى بها رحلة جينتر Günther الالمانى سنة ١٠٦٥م ، أى قبل قيام الحركة الصليبية بثلاثين سنة فقط • وكان هذا الرجل يشغل وظيفة رئيس أساقفة بجنوب المانيا ، واشترك

معه في هذه الرحلة حوالي ١٢ ألف مسيحي من حجاج وفرسان ورجال دين ، وكان معظمهم من جنوب المانيا ، كما كان غالبيتهم مسلحين . وقد أعدت كافة ترتيبات الرحلة اعدادا دقيقة منظما . وسافرت عبر بلاد المجر ، وكان أهلها قد اعتنقوا الديانة المسيحية منذ أوائل القرن الحادى عشر الامر الذى سهل عليهم عملية المرور عبر أراضيهم . وقد تعرض جينتر ورفاقه خلال الرحلة لكثير من المخاطر والصعاب . ولكن الشيء الهام من أمر هذه الرحلة أنها أعطت للاروبيين فكرة عن الطريق الذى سيسلكونه فيما بعد . اذ مر جينتر ورفاقه بالقسطنطينية وعبروا اسيا الصغرى ، وأمكنهم بعد مشقات كثيرة الوصول الى بيت المقدس .

ويقول المؤرخ الفرنسى المعروف لويس برييه L. Bréhier فى هذا الصدد ان هذه الرحلة لا يمكن تسميتها بحرب صليبية . فهى سابقة لهذه الحرب وممهدة لها ، شأنها شأن الصراع الطويل الممتد بين الاسلام وبين كل من الغرب الاوروبى والدولة البيزنطية ، منذ القرن السابع وحتى قيام الحركة الصليبية . ويقول أن الرحلة المذكورة لا تختلف عن حركات الحج السابقة عنها الا فى كثرة عدد من اشتركوا فيها من الحجاج . ويستطرد قائلا أنها رغما عن ذلك تحتل مكانة كبيرة فى أصول الحركة الصليبية . فلا يقتصر أثرها على تعريف الاروبيين على طريق الحج ، وهو الطريق الذى سلكته الحملة الصليبية الاولى ، وانما نجحت فى حفظ الحماسة لدى مسيحيى الغرب لزيارة الاراضى المقدسة .

ولقد رأينا من العرض السابق كيف أن حركة الحج من غرب أوروبا الى الاراضى المقدسة انتعشت فى بعض العهود ، وكيف أصابها الضعف والوهن فى عهود أخرى ، وعرفنا ما هى عوامل انتعاشها وما هى أسباب ضعفها ، وكيف أن فكرة الحج هذه لعبت دورا هاما فعلا فى توجيه الغرب المسيحى الى الشرق الادنى الاسلامى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى .

وجدير بالذكر هنا أنه كان للحج فى العصور الوسطى نظمه وأصوله

وتقاليده الخاصة به • وهذه النظم والاصول والتقاليد لم تظهر فجأة أو بين يوم وليلة ، انما استغرقت وقتا طويلا حتى استقرت على الوضع الذى بدت عليه فى القرنين أو الثلاثة قرون الاخيرة السابقة لقيام الحركة الصليبية • فكان يتحتم على الراغب فى الحج أن يستأذن أسقف القرية التابع له فى السفر ، ثم يتناول منه عصا الحج التى تكاد تبلغ طول الحاج نفسه ، وبوسطها عقدة وبأعلاها عصا أخرى معقودة معها على هيئة صليب • ويأخذ معه فى رحلته الطويلة الشاقة مزودا يعطقة برباط يحفظ فيه طعامه ، وغالبا ما يكون كسرة من الخبز وقليل من الماء وبعض الملح امعانا فى التقشف ، ويستوى فى ذلك الجميع لا فرق بين غنى أو فقير •

وكان الحاج يزود بكتب توصية الى جميع الاديرة التى يمر بها فى رحلته الطويلة الشاقة ، وكانت هذه الاديرة تخفف عنه مشاق الطريق • وفى يوم الرحيل يخرج الامل والمعارف لوداعه كما لو كان هذا هو اللقاء الاخير • ويتم ذلك وهم يرتلون الاناشيد الدينية • ثم يقفل الراكب راجعا الى البلدة ، بينما يأخذ الحاج طريقه الى فلسطين • وفى بعض الاحيان كان المسافر يعرج الى روما ليتلقى البركة من البابا نفسه ويتناول منه الصليب ، ثم يمضى الى أحد الموانى الإيطالية ومنها يبحر الى القسطنطينية فالبيت المقدس عبر اسيا الصغرى •

وما أن تطأ قدم الحاج البيت المقدس حتى يذهب لزيارة كنيسة القيامة التى أسسها الامبراطور قسطنطين فى أوائل القرن الرابع الميلادى • ثم يصعد جبل الزيتون ويشاهد مغارة بيت لحم التى ولد فيها المسيح ويستحم بماء الاردن • وعند عودته الى وطنه يأخذ معه حفنة من تراب بيت المقدس أو بعض سعف النخل ليضعها على مذبح الكنيسة أو يحتفظ بها فى منزله كذكرى لهذه الزيارة •

وهكذا عندما تولى البابا اريان الثانى عرش البابوية سنة ١٠٨٨م.

كانت التربة ممهدة في الغرب للقيام بحرب مسيحية ضد المسلمين • نقد
كانت هذه الفكرة موجودة ومختمرة هناك ، وقد أنكأها ذلك التعبير
الطبيعي للتحمس لزيارة الاراضي المقدسة الذي طبعه الحج في قلوب
مسيحيي الغرب منذ عدة قرون ، بالاضافة الى ذكرى شارلمان ورحلته
جيفتر الالماني وغيرها • واذا تجاهلنا أهمية هذا العنصر ، فليس هناك
من سبيل الى تفسير أصول الحركة الصليبية على حد قول لويس برييه
نفسه •

المعامل الرابع

تطور فكرة الحرب المقدسة في الغرب الاوروبى

منذ فجر المسيحية حتى قيام الدركة الصليبية

ومن العوامل الرئيسية غير المباشرة التي مهدت لقيام الحروب
الصليبية ، الى جانب العوامل التي أسلفنا الاشارة اليها ، تطور مبدأ
الحرب المقدسة في غرب أوروبا عبر القرون • وكما اختلفت المسيحية الاولى
عن الاسلام في النظر الى فكرة الحج ، كذلك اختلفت عنه فيما يتعلق بفكرة
الحرب المقدسة •

فقد حث القرآن الكريم المسلمين على الجهاد في سبيل الله ونصرة
دينه • وكان لفكرة الجهاد عند المسلمين أثرها الفعال فيما أحرزوه على
الصليبيين من انتصارات ، ذلك أن دولتهم قامت على أساس الجهاد •
وكانت هذه الكلمة تستعمل لالهاب الحماسة بين الناس • كما كان
يطلق على المحاربين اسم المجاهدين ، واذا مات أحدهم في أثناء المعركة
سمى شهيدا • وكانت الخطب والمواعظ الدينية التي تلقى من فوق منابر
المساجد في أيام الجمع وسيلة هامة من وسائل الحث على الجهاد
ضد أعداء الاسلام • وان نسينا فلا ينبغي أن ننسى الدور الذي لعبه

الجامع الازهر وقتذاك • فمن فوق منبره كانت تلقى الخطب فى الحث على الجهاد كلما تعرض العالم الاسلامى لغزو صليبي •

وكتاب الله زاهر بالايات التى تحض على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله • منها « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » و « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » و « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » و « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، فلکم خير لكم ان كنتم تعلمون » •

وكانت الكتب التى يبعث بها قواد المسلمين وملوكهم وأمرائهم فى الجهاد ضد الفرنج الغزاة مليئة بمثل هذه الايات التى تحض على الجهاد والتطوع فى الحرب المقدسة دفاعاً عن المقدسات ودفعاً لاولئك الغزاة الدخلاء عن البلاد التى كانوا ينزلون فيها • وقد وضعت خلال الحروب الصليبية المؤلفات العديدة فى أدب الجهاد وفى الحث على قتال أعداء الله •

هذا عن الجهاد كمبدأ وعقيدة فى الاسلام ، وكضرورة سياسية وحربية استلزمته سلامة الدولة العربية وأمنها • وفى هذا تختلف المسيحية الاولى عن الاسلام اختلافاً بينا • فقد كان الدين المسيحى فى أصله دين سلام بحكم الظروف التى صاحبت ظهوره فى أخريات التاريخ القديم • وكانت تعاليمه الاولى تنادى بالسلام وعدم الاقتتال وازهاق الارواح باعتبارها من الامور التى حرمها الله • وكانت ظروف العالم القديم وقتها مهياة لقبول مثل هذه الافكار فى وقت كانت فيه الدولة الرومانية فى طريقها الى الزوال • ذلك أن المسيحية جاءت عقب الوثنية التى قامت على العنف والقتال واراقة الدماء ، والتى قامت على الحرية والانطلاق بحكم تعدد الالهة الوثنية • كذلك جاءت المسيحية عقب عبادة

الاباطرة ، وقد دعت المسيحية الى وحدانية الله • وهكذا كانت المسيحية بمثابة رد فعل للمفاهيم والمثل التي قام عليها العالم القديم •

ولكن عندما انتصرت المسيحية في أوروبا وتماثلت جذورها وبخاصة في الغرب ، وبعد قيام دول مسيحية مختلفة هناك ، تغيرت نظرة الدين المسيحي لفكرة الحرب التي أصبحت ضرورة تستلزمها مقتضيات الظروف الجديدة • وأصبح القتال في سبيل المسيحية أمرا عاديا • وكان القتال في بادئ الامر بين المسيحية وبين بقايا العناصر الوثنية بعد اعتراف الامبراطور قسطنطين الكبير بها في أوائل القرن الرابع • ثم تحول القتال بين المسيحية وبين جماعات الهراطقة الذين خرجوا ببدع وارااء اعتبرت خارجة عن تعاليم المسيحية ، كالاريوسية والنسطورية والدوناتية وغيرها • ومن أول من سمح بالقتال في سبيل المسيحية القديس أوغسطين أوف هيبو في كتابه المعروف باسم «مدينة الله» •

وساعد على انتشار وتطور فكرة الحرب المقدسة ذلك المجتمع الذي أصبح يغلب عليه الطابع العسكري أثر غزوات الجرمان البرابرة واستقرارهم في قلب أوروبا • وكان الجرمان من العناصر المقاتلة وغذا استخدمهم الرومان في أخريات عهدهم لحماية حدود دولتهم على الدانوب والراين • ولهذا كانت الحرب والفروسية من الصق الاشياء بحياة الانسان في تلك العصور ، وكان المحارب الشجاع يبرز في ساحة الوعي ما تعلمه من فنون القتال ، ولذلك كان موضع التمجيد • وكانت هذه الناحية من الاركان الاساسية التي قام عليها المجتمع الغربي الوسيط ، والتي عبرت عنها الفكرة الصليبية فيما بعد •

ونظرا لان الغرب كان يعاني الامرين بسبب انهيار الدولة الرومانية وغزوات الجرمان البرابرة الدامية ، فقد بذلت محاولات مبدئية للتخفيف من حدة القتال أو منعه حتى تستتب الامور وتستقر الاحوال بعد فترة غير قصيرة من الفوضى والاضطراب • ولهذا الهدف عقدت مجالس دينية

جديدة عملت على فرض ما يعرف باسم «سلم الله» الذي يرمى لحماية رجال الدين وممتلكات الكنيسة والفقراء من شرور القتال . كما عمل البعض على فرض ما عرف باسم «هدنة الله» التي نصت على الامتناع عن القتال في يومى السبت والاحد وفى بعض الاعياد المقدسة . وهذا المحاولات وغيرها وإن خففت من شدة الحرب بعض الشيء إلا أنها لم تقض عليها نهائيا . وظلت روح القتال متمكنة من المجتمع الاوروبى في الغرب ، كما ظلت مسيطرة على عقلية الفرد الذى عاش في تلك القرون .

وقد رأت الكنيسة اللاتينية والبابوية في الغرب أنه بدلا من العمل على منع القتال ، الاستفادة من هذه الفرقة المتأصلة في المجتمع الوسيط بتحويلها الى وجهة أخرى تخدم مصلحتها وتحقق أهدافها ، بل والعمل فيما بعد على تشجيعها بكل السبل والوسائل وتقديم التأييد الادبى والمادى والمعنوى لها . والمشتريكين فيها . وكانت الظروف مواتية بالنسبة لها . يظهر الاسلام في بدايات القرن السابع على مسرح الاحداث العالمية . اذ يظهر الاسلام كقوة فعالة وامتداد الفتوحات العربية شرقا وغربا وبسط سيادة العرب على البحر المتوسط - أصبحت هذه القوة الجديدة الفتية الناهضة تشكل تهديدا للجزء الغربى من حوض البحر المتوسط . وأصبحت البحرية الاسلامية تغير على السفن الغربية التى تحاول عبور هذا البحر في وقت كان فيه ميزان القوى في صالح الدولة العربية ، بينما كان الغرب يعاني من الضعف والانحلال . وحدث في عام ٨٤٦م ان حاصر المسلمون مدينة روما نفسها ، ولم يتركوها إلا انقاصا . كذلك استولت القوات الاسلامية على صقلية وجنوب إيطاليا في أوائل القرن العاشر ، وبقوا يهددون فرنسا ذاتها . وأقاموا في البلاد التى استولوا عليها مراكز يغيرون منها على البلدان الاوروبية القريبة . وجدير بالذكر في هذا المقام أن هذه الاجراءات كانت ضرورية

لنشر الدين الجديد وتأمينه وحماية الحدود العربية الجديدة من خطر المجتمعات المتاخمة لها شرقا وغربا .

وعندما أصبح المسلمون يهددون الغرب بصفة عامة وجنوب ايطاليا وروما على وجه الخصوص اعتبارا من القرن التاسع فصاعدا ، ظهر عنصر آخر على فكرة الحرب المسيحية المقدسة ، بقيام البابوات بدعوة مسيحيي الغرب للاشتراك في القتال ضد المسلمين . بل قام البابوات بتقديم كافة التسهيلات والمغريات لتشجيع الناس للانخراط في هذه الحروب . ولتحقيق ذلك أعلن البابا ليو الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥) أن كل من يموت دفاعا عن الكنيسة يعتبر شهيدا له الاجر والثواب عند الله .

ويقول المؤرخ الفرنسي فرديناند شالندون F. Chalandon الذي كتب عن الحرب الصليبية الاولى وممهداتها ، انه ابتداء من هذا الوقت تعتبر الحروب المسيحية الغربية ضد المسلمين في غرب أوروبا حروبا مقدسة . وذهب البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢م) الى أبعد من ذلك عندما وعد بغفران خطايا كل من يشترك في هذه الحروب .

وجدير بالذكر أنه ظهرت في النصف الاول من القرن العاشر بعض الاحلاف الغربية هدفها منازلة المسلمين ومنع توغلهم في أوروبا . وكانت اثار هذه المحاولات محدودة ، وإن اعتبرت سابقة للتعاون اللاتيني الغربي ضد المسلمين من المحيط الى الخليج .

ومنذ أوائل القرن الحادي عشر بذلت محاولات جديدة لتكوين أحلاف مسيحية لاتينية للعمل على اخراج المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا . وكانت هذه الاحلاف هي النواة التي انبعثت منها الحركة التي أدت الى إجلاء المسلمين من أسبانيا آخر الامر . وقد جذبت هذه المحاولات نظر جماعة كلوني الديرية التي كانت مهتمة بالامور في شبه الجزيرة الايبيرية . ونظرا للاتصال الوثيق بين جماعة كلوني والبابوية ، فقد استتبسح

ذلك اهتمام البابوات والبابوية بالشئون الاسبانية ، وتشجيعهم للمحاولات المسيحية التي كانت تبذل في هذا المضمار ، خاصة وأن البابوية كان يهملها القضاء على نفوذ المسلمين ، وتوسيع حدود العالم المسيحي الغربي في هذه المنطقة ، وبسط نفوذها الديني والدنيوي عليه . وكانت هذه من الاركاز الاساسية في سياسة البابوات الخارجية من الحرب الصليبية .

وترتب على ذلك أن المقاتلين المسيحيين في اسبانيا ، وبخاصة في الممالك النصرانية في الشمال وهي نافار وقشتالة وليون وأرجوان بدأوا يجدون تشجيعا من كلونى ومن البابوات . وكان هذا التشجيع في بادئ الامر ينحصر في مباركة المحاربين . ثم أخذ تدخل البابوية يزداد في الشئون الاسبانية الى أن أمسكت بزمام هذه الحروب التي كانت قد اكتسبت صفة الحروب المقدسة . وفي العقد السابع من القرن الحادى عشر نجد البابا اسكندر الثانى (١٠٦١ - ١٠٧٣ م) يقوم بجمع المحاربين ويعد من يقاتل منهم ضد المسلمين في اسبانيا بغفران اثمهم وخطاياهم . ومنذ ذلك الحين أخذت سيول متدفقة من مسيحيي الغرب في الانخراط في سلك الحرب المقدسة ضد المسلمين في اسبانيا .

واقفى البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) خطى سلفه اسكندر الثانى في تشجيع المسيحيين على مواصلة القتال هناك ، وفي الدعوة للحرب المقدسة ومنح ميزات روحية للمشتركين فيها . وكان من أثر ذلك أن أعلنت سيادة البابوية على ممالك اسبانيا المسيحية في الشمال . وتشجيعا للمقاتلين وعدهم جريجورى بغفران خطاياهم وبحقهم في الاحتفاظ بالاراضى التي يستولون عليها من المسلمين كاقطاع خاص بهم .

جاء بعد جريجورى بابا ضعيف الشخصية هو فيكتور الثالث (١٠٨٧ م) الذى لم يعمر طويلا على الكرسي البابوى . ثم جاء بعده البابا الشهير اربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) الذى واصل نفس السياسة

التي سار عليها أسلافه في الميدان الخارجي التي ستكون من الخصائص السياسية للحركة القومية من الحروب المسيحية الغربية المقدسة ضد المسلمين ، ونعني بها الحركة الصليبية *

وخلاصة القول ان القتال لم تكن المسيحية تنص عليه في فجر تاريخها ، بعكس الحال في الاسلام حيث كان الجهاد مبدأ وعقيدة . وكان ذلك نتيجة للظروف والملازمات التي أحاطت بظهور كل من الاسلام والمسيحية . ثم أصبحت الحرب عنصرا هاما في المسيحية بسبب ظروف أخرى عديدة . وقد تطورت الحرب المقدسة في غرب أوروبا من حرب كان هدفها في بادئ الامر خدمة الكنيسة اللاتينية والعمل لما فيه صالح المسيحية وذلك في عصورها الاولى ، ثم الى حروب فردية ، وبعد ذلك أخلاف منظمة القصد منها ابعاد المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا . واتخذت منذ ذلك الحين صفة الحرب المقدسة . وكانت هذه فرصة ذهبية لتدخل بابوية روما في تلك الحروب والاشراف عليها تحقيقا لسياستها القديمة ، في محاولة بسط نفوذها دينيا ودنيويا على العالم المسيحي في غرب أوروبا كله ، بما في ذلك أسبانيا باستثناء الاجزاء التي يحتلها المسلمون ، والتخلص كذلك من مناوئة كبار رجال الاقطاع لها باشرافهم في الحروب المذكورة ووعدهم بغفران خطاياهم والاستشهاد ان يموت منهم أثناء القتال ، وغير ذلك من الميزات الروحية والمادية التي منحتها لهم .

العامل الخامس

ضعف الدولة البيزنطية

وتقدم الاتراك السلاجقة في أراضيها

رأينا كيف اتجهت أنظار البابوية الى الغرب قبيل قيام الحركة الصليبية بفترة غير قصيرة . وفي السنوات القليلة السابقة لهذه الحركة

لفتت نظرها أحوال الدولة البيزنطية في الشرق • ذلك أنه منذ الفتح العربي كانت الحرب متصلة بين المسلمين والدولة البيزنطية • وقد تمكنت بيزنطة من صد هجمات المسلمين على عاصمتها لعدة قرون ، وحالت دون تقدمهم في شرق أوروبا حتى لقد اعتبرت حامية أوروبا المسيحية ضد الاسلام في الشرق •

وفي الفترة السابقة لقيام الحروب الصليبية تربع على عرش بيزنطة عدد من الاسر التي تارحت بين القوة والضعف ، في وقت كان فيه زمام المباداة لا يزال في قبضة المسلمين ، ومركز الثقل يميل بقوة الى جانبهم • واستمر الحال هكذا حتى أواسط القرن التاسع الميلادي عندما بلغت الامبراطورية البيزنطية ذروة عظمتها في عهد أسرة من أقوى الاسرات التي حكمت بيزنطة ، وهي الاسرة المقدونية التي امتد حكمها من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٩ م •

كانت الدولة البيزنطية وقتها في حالة من القوة والتماسك تسمح لاباطرتها بالتفكير في التوسع على حساب جيرانها المسلمين • وكانت الخلافة العباسية وقتها تمر بفترة ضعف وتدهور • ففي عهد مؤسس الاسرة الامبراطور بازيل الاول (٨٦٧ - ٨٨٦م) بدأ الصراع بين بيزنطة والمسلمين في الشرق الأدنى ، وكانت نتائجه لصالح بيزنطة وان لم تكن ملموسة أو واضحة بعد • وفي عهد كل من قسطنطين السابع (٩٤٥ - ٩٥٩م) وابنه رومانوس الثاني (٩٥٩ - ٩٦٣م) استولت الامبراطورية على جزيرة كريت ، كما استولى تقفور فوكاس وهو قائد على جيش رومانوس على مدينة حلب ولكنها سرعان ما عادت الى المسلمين • وترجع عظمة تقفور فوكاس عندما تربع على العرش (٩٦٣ - ٩٦٩م) الى استيلائه على صقلية وقبرص وأنطاكية • وفي عهد يوجنا تزمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦م) بلغت الدولة البيزنطية أقصى توسع لها على حساب جيرانها المسلمين عندما وصلت جيوشها الى مشارف بغداد والبيت المقدس حسبما سبق أن ذكرنا •

ولكن ما أن انقضت الاسرة المقدونية وحلت محلها في الحكم اسرة
دوكاس (١٠٥٩ - ١٠٨١م) حتى اختلت الامور داخل الامبراطورية
وخارجها ، وعمت الفوضى والاضطرابات التي شغلت الحكام عن مواصلة
حروبهم الخارجية ، كما ضعف الجيش نتيجة لانشغاله في المنازعات
والحروب الداخلية .

وانتهز الاعداء المتربصون بها هذه الفرصة المواتية ، فقاموا بتوجيه
ضرباتهم ضد الحدود الشرقية والغربية للامبراطورية . فاستولى
النورمان على مدينة باري جنوب ايطاليا سنة ١٠٧١م ، وعبروا بعد
ذلك البحر الادرياتي الى ساحل البلقان ، وباتوا يهددون القسطنطينية
نفسها . وكان الدوق النورماندى روبرت جيسكار يفكر بالفعل في غزو
عاصمة بيزنطة . ففي عام ١٠٨١م عبر النورمان البحر الادرياتي لتنفيذ هذا
المشروع ، وان كانوا قد فشلوا في تحقيقه . ويعتبر فريق من المؤرخين ،
ومن بينهم المؤرخ لويس هالفن ، ان هذه الحروب هي من نوع الحروب
التوسعية الاقطاعية التي تركت جرحا لا يندمل في بيزنطة عندما احتك
اللاتين الغربيون بالاغريق بأعداد هائلة في الحملة الصليبية الاولى ،
حيث قامت العلاقات بينهما على الشك وعدم الثقة وسوء التفاهم .

وفي نفس هذا الوقت تجمع الاتراك السلاجقة على حدود ارمينية
البيزنطية استعدادا لغزو اسيا الصغرى . وكان هذا العنصر من أخطر
اعداء الدولة البيزنطية . وقد بدأ هذا العنصر التركي هجومه على أملاك
الدولة الفاطمية . وكانت في ذلك الحين في طور الاحتضار ، اذ كانت
السلطة الفعلية في أيدي الوزراء والخلفاء لاجلهم ولاطول ليس لهم
من الخلافة سوى الاسم . وفي زحمة هذه الظروف استولى السلاجقة
على مدينة بيت المقدس من الفاطميين سنة ١٠٧٠م ، وهي التي كانت
لها عند مسيحيي الغرب ذكريات وماض طويل تثيرها في نفوسهم حركة
الحج وقرون من الشوق والتلهف لرؤيتها وزيارتها . وبعد ذلك اتجهت

جحافل السلاجقة نحو اسيا الصغرى ، وكانت انثذ تحت حكم الامبراطورية البيزنطية . وألحقوا بجيوش الامبراطورية هزيمة منكرة فى موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١م التى تعتبر من المواقع الهامة الفاصلة ليس فى التاريخ البيزنطى فحسب ، وانما فى تاريخ الحروب الصليبية نفسها .
ففيها تمكن السلطان السلجوقى ألب أرسلان من إلحاق شر أنواع الهزيمة بالامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع نتيجة لجهله بفنون الحرب والقتال . ويعتبر المؤرخ ستيفن رانسيمان موقعة ملاذكرد نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى ، خاصة وأنها حدثت بعد استيلاء التركمان على بيت المقدس بسنة واحدة ، وفى نفس السنة التى وقعت فيها مذبحة بارى الايطالية فى قبضة النورمانديين .

وواصل الاتراك السلاجقة تقدمهم على حساب الدولة البيزنطية ، وتوغلوا فى اسيا الصغرى واستولوا على أزمير ونيقية . وفى عام ١٠٧٥م وقعت مدينة انطاكية فى قبضتهم ، وأصبحت بيزنطة تواجه خطر هجوم السلاجقة على القسطنطينية نفسها . ويمكن القول أنه لولا قيام الحرب الصليبية فى هذا الوقت بالذات ، وانشغال السلاجقة مع الصليبيين لوقعت الدولة البيزنطية فى قبضة هذا العنصر التركمانى .

وفى ظل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالدولة البيزنطية من كل جانب ، انقرضت أسرة دوكاس لتحل محلها أسرة قوية هى أسرة كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥م) . وكان الامبراطور الذى يحكم بيزنطية وقتها هو مؤسس تلك الاسرة الكسيس الاول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) الذى عاصر الحملة الصليبية الاولى ، وكانت له فيها جولات وصولات مع العرب واللاتين على السواء .

كان اذن من حسن حظ بيزنطة أن ولى أمرها وقتذاك الكسيس كومنين . لقد كان هذا الرجل بشهادة المؤرخين من شرقيين وغربيين - وعلى رأسهم ابنته الاميرة ان كومنين - رجل دولة ممتاز . كما كان سياسيا

محنكا من الطراز الاول ، يعرف كيف يعالج الامور والازمات التي تواجهه وكيف يعد لكل أمر عدته ، ومتى يستخدم الشدة أو اللين • كان شديد الذكاء والدهاء ، بعيد النظر ، خبيرا بمجريات الامور والاحوال • كان يعرف جيدا كيف يعد نفسه لكافة الظروف والاحتمالات : كل هذا كان له أثره في توجيه سياسة بيزنطة في فترة حكمه ، وفي أبعاد الأخطار المحيطة بها ، أو على الأقل في تأجيل حدوثها • فلولا السياسة التي اتبعها مع اللاتين الغربيين التي كانت تتسم بالعنف تارة واللين تارة أخرى ، طبقا لما تقتضيه الظروف والاحوال ، ولولا تلك السياسة المرنة الجازمة لوقعت بيزنطة في قبضتهم مبكرا في أخريات القرن الحادى عشر • الا أن هذه السياسة كان لها أثرها الفعال في تأخير وقوع هذا الحدث حوالى قرن من الزمان عندما استولى الصليبيون على القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م ، وأحالوها الى امارة لاتينية تضاف الى اماراتهم الاخرى في الاراضى المقدسة ، وتحقيق بذلك هدف من أهداف الحركة الصليبية نفسها •

على أية حال ، لقد أنقذ هذا الرجل الامبراطورية مما حل بها من ضعف وانقسام فى الداخل • وكان عليه بعد أن دانت له السلطة أن يحارب بدون انقطاع فى كافة الجبهات • وقد تمكن عن طريق الحرب تارة والدهاء والسياسة تارة أخرى من ابتعاد النورمان عن دول البلقان بعد حروب دامية مع روبرت جيسكار وابنه بوهيمند استمرت من سنة ١٠٨١ الى سنة ١٠٨٥م •

وفى تلك الاثناء كانت الدولة السلجوقية قد اخذت تتحول الى أجزاء اقليمية على كل منها سلطان تابع للسلطان السلجوقى الاعظم ملكشاه فى بغداد • وكانت هذه الدولة لا تزال فى عنفوان قوتها على الرغم من توزيعها بين سلاطين تابعين للسلطان الاعظم • لذا كانت فتوحاتها مستمرة فى اسيا الصغرى على حساب الدولة البيزنطية •

وكان نجاح الكسيس في معالجة مشاكله الداخلية والخارجية بالقوة مرة وبالسياسة والدبلوماسية مرة أخرى ، ما جعله يحاول نفس الأسلوب مع دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى . وذلك بإثارة القوى السلجوقية بعضها على بعض . ومع ذلك ، لم يحرز نجاحا يذكر ، ولم يستطع ان يجلى السلاجقة عن المناطق التي استولوا عليها في آسيا الصغرى . وكل ما أمكن عمله هو ايقاف زحفهم وتوغلهم في امبراطوريته فترة من الزمن .

وحيال هذا الخطر الذي بات يهدد الدولة البيزنطية ، واصل الكسيس كومنين سياسة سلفه الامبراطور ميخائيل السابع فان أسرة دوكاس في الاستنجاد بأهل الغرب اللاتيني لدفع خطر السلاجقة عن عاصمته . وكان من الطبيعي أن تصادف هذه الدعوة هوى في نفس البابوية تحقيقا لاغراضها في غرب اوربا ، وتنفيذا لسياستها في هذا الشأن .

ذلك هي الحال التي كانت عليها الدولة البيزنطية في السنوات القليلة السابقة لقيام الحركة الصليبية . محاولات عديدة في الجبهتين الغربية والشرقية للاستيلاء على املكها ، وعيون متجهة اليها تنتظر الفرصة المواتية للانتقاص عليها وابتلاعها . فالنورمان وغيرهم من العناصر اللاتينية لهم معرفة سابقة بأحوال بيزنطة وثراتها الفاحش ، عن طريق الجند المرتزقة الذين كانوا يعملون في خدمتها ، وبحكم اتصالهم بها في الجبهة الغربية . كذلك كان السلاجقة في الجبهة الشرقية يعلمون مدى الضعف الذي وصلت اليه والخلافة وقتذاك . وباتوا يتحينون اللحظة المناسبة للقيام بهجومهم الكبير في المنطقة وان كانت الحرب الصليبية الاولى قد حالت بينهم وبين تنفيذ مشروعهم بعد أن أصبحوا وجها لوجه أمام اللاتين الغزاة الوافدين من الغرب .

وفي غمرة هذه الاحداث المتلاحقة بدأت الباجونية في الغنوب

تفكر جدياً في نقل ميدان الحرب المسيحية الغربية المقدسة من الغرب
الاوروبي الى الشرق الاسلامي ، مستغلة في ذلك استغاثة أباطرة بيزنطة
بها لدفع خطر السلاجقة عن دولتهم .

العامل السادس

الاحوال السياسية والاقتصادية والدينية في الغرب قبيل الحركة الصليبية

وبالاضافة الى ما تقدم من العوامل التي أسهمت في التمهيد للحركة
الصليبية وتهيئة الجو لقيامها ، فقد ساعدت أحوال المجتمع الغربي الى
حد بعيد ، الامر الذي ساعد على نجاح دعوة البابا اربان الثاني في
أخريات القرن الحادي عشر .

لقد كان الغرب الاوروبي وقتذاك مرتعاً للفوضى والفساد في شتى
النواحي والمجالات . اذ استشرى الفساد في الجهاز الكنسي البابوي ،
واخذت المسيحية تسير بخطى سريعة نحو التدهور والانحلال على أيدي
الجميع من رجل الدنيا والدين ، ومن بينها الرشوة والسيمونية وزواج
رجال الدين وبيع صكوك الغفران وانهيار الرهبنة والديرية وانغماس
البابوية في المسائل العلمانية . يضاف الى ذلك أنه في السنوات القليلة
السابقة للحركة الصليبية تعرض الغرب لازمات اقتصادية عنيفة ومنها
حصول الفيضانات وانتشار الأوبئة والمجاعات وتفشي المرض والفقر
وتزايد عدد السكان تزايداً خطيراً . وقد وقع كل هذا بصفة خاصة في
عامي ١٠٩٤ و ١٠٩٥ م ، أي قبل دعوة اربان بعامين . ثم أن الحياة
القاسية التي كان يحياها عبيد الأرض في ظل الاقطاع الذي كان قد
بلغ ذروته وقتذاك في غرب أوروبا ، جعلهم يرغبون في التخلص من
قيود الاقطاع والتزاماته ، ووجدوا في الحروب الصليبية المخرج والخلاص

كما يقول المؤرخ لويس برييه • كما وجد فيها النبلاء فرصة مواتية لتوسيع اقطاعاتهم وامتلاك اراض جديدة بعد أن ضاق الغرب بهم وبمطامعهم • ثم ان انتشار الرؤى والنامات والتنبؤات والاساطير الدينية التي نادت بقرب ظهور السيد المسيح ، كان لها أثرها في اشتراك الناس في الحملة لضمان الذهاب الى بيت المقدس للحصول على التوبة والغفران قبل أن يلتقوا بربهم •

ويلقى ضوءا واضحا على الاحوال السائدة في الغرب قبيل الحملة الصليبية الاولى ، من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة من الزمان وهو المؤرخ الفرنسي فوشيه دى شارتز • فهو يستعرض في كتابه المعنون «أعمال الفرنجة الحاجين الى بيت المقدس » ، ولاة الامر في الغرب عندما اعلن البابا اربان الثانى من مدينة كليرمون فى اواخر عام ١٠٩٥ قيام الحرب الصليبية • وأوضح أن الغرب كان مسرحا للفوضى والفساد اللذين شملا شتى مرافق الحياة • كما تحدث بشجاعة عن الفساد الذى تغلغل فى الجهاز الكنسى البابوى ، والصراعات بين كبار رجال الاقطاع التى تكاد لا تنقطع ، وما سببته من كوارث وويلات • وانتقل الى الحديث عما اصاب الاماكن المقدسة فى الشرق انذاك من خراب ودمار ، فى الوقت الذى استولى فيه السلاجقة على بعض املاك الدولة البيزنطية فى اسيا الصغرى ، وتهديدتهم لعاصمتها القسطنطينية • وقال ان هذه الظروف مجتمعة هى التى حثت البابا الرومانى الى عقد مؤتمر كليرمون الكنسى والدعوة الى الحرب الصليبية •

العامل السابع

العامل الدينى واثره فى قيام الحركة الصليبية

ولا يخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية من الاشارة الى العامل

الديني ، وتحتيد مدى لسهامه في قيام الحروب الصليبية . كما ظهرت دراسات مستفيضة في هذا الشأن تعبر عن وجهات نظر متباينة . فثمة فريق من المؤرخين يعتبره عاملا اساسيا في قيام تلك الحروب ، بينما يرى فريق آخر انه مجرد عامل ساعد على قيامها ، او بكلمة أدق ، هيا الجو لقيامها .

والامر الذي لا خلاف بشأنه ان تلك الحروب تعبر عن روح العصور الوسطى في اوروبا اصدق تعبير في ناحيتين هامتين هما ناحية الدين وناحية الحرب . وليس أدل على ذلك من تسميتها ، فهي حرب وصليب . والحرب ترتبط بالعناصر الجرمانية التي نزلت في غرب اوروبا في أخريات التاريخ القديم ، وقضت على الامبراطورية الرومانية ، واقامت لها على انقاضها دولا وممالك جديدة ذات أنظمة واوضاع مغايرة لما كان سائدا من قبل . وهذه العناصر هي في الاصل عناصر محاربة . وقد وجدت في الحركة الصليبية متنفسا لها لاشباع رغبتها القديمة الدفينة ، ولاظهار مقدراتها في فنون القتال في وقت اصبحت فيه الحرب هي صناعة الفارس الأولى .

هذا عن الحرب ، اما الدين - وهو الذي يهمننا هنا - فيرتبط بالمسيحية وكنيستها التي اصبحت لها مع الزمن سلطة واسعة ، وغدت من الضيق الاشياء بحياة الناس الخاصة والعامة في ذلك الحين . اذ هيمنت على مصائرهم ومقدراتهم ، لها الامر والنهي ، وعلى الجميع السمع والطاعة . وليس ادل على ذلك من قول مؤرخ عاصر بداية الحركة الصليبية ، هو روبرت الراهب ، ومن انها من عمل الله وليس من عمل الانسان . بينما ردد صدى هذا القول واكده احد المؤرخين الغربيين الحديثين ، هو الكونت بول ريان ، عندما ذكر انها حروب دينية خالصة ، وان دوافعها واهدافها دينية بحتة ، وان هدفها الاول والاخير هو تحرير قبر المسيح وتخليص بيت المقدس من قبضة المسلمين .

، وليس مستغربا في مثل هذا العصر السحيق عندما كان الغرب يشكل وحدة واحدة في مجموعه على رأسه الجهاز الكنسي البابوي يمسك بزمام الامور بيد من حديد وقد نمت وازدادت سلطته نتيجة ظروف عديدة متشابكة معقدة ، بينما لم تكن القوميات قد ظهرت بعد - ليس مستغربا ان يمسك هذا الجهاز بزمام الحركة الصليبية بعد ان امسك بزمام الحروب المسيحية الغربية المقدسة ضد المسلمين في الجنوب الاسباني . فقد عرف هذا العصر في الغرب باسم « عصر الايمان » وبلغ من اشراف البابوية على الحركة الصليبية انها هي التي اعلنت قيامها ، وهي التي دعت اليها وباركتها وشجعت المقاتلين على الاشتراك فيها . وهي التي منحتهم مختلف الامتيازات والاعفاءات الروحية والمادية اغراء لهم وترغيبا . وهي التي كان لها مندوب بابوي يمثلها في كل حملة من الحملات الصليبية .

ومع كل ما تقدم يجب ان نعرف ان العامل الديني وحده لم يكن ليكفي لقيام حركة خطيرة كالحركة الصليبية ، تركت اثارها على مجريات الاحداث وقتها ولقرون عديدة تالية . لقد استغله الجهاز الكنسي البابوي بهدف اثارة الحماسة الدينية لدى اهل الغرب تحقيقا لاغراض عديدة ، من بينها سعى الكنيسة الغربية الكاثوليكية لبسط نفوذها الديني على العالم المسيحي المعروف وقتها باجمعه ، وكذلك القضاء على النفوذ الاسلامي في الاراضي المقدسة ، والتخلص من كبار رجال الاقطاع في الغرب الذين كانوا مصدر متاعب ومضايقات بالنسبة لها في وقت كانت تسعى فيه لفرض سلطانها الديني والدنيوي على الغرب الاوروبي بأكمله . ويكفي لتعزيز ذلك والتدليل عليه ، انه عندما انغمست البابوية في الصراع العثماني ضد الاباطرة واللوك في الغرب ، قل حماسها للحرب الصليبية ضد المسلمين ، بينما دعت الى حملات صليبية من نوع اخر لاستئصال شأفة آل هونشتاوفن الالمان الذين سعوا الى سلبها نفوذها

وسلطانها في الغرب • مثال ذلك حملاتها الصليبية ضد الامبراطور
فريديريك الثاني وابنه كونراد الرابع •

لقد كشف عن ذلك عدد من المؤرخين الغربيين الحديثين ، واضعين
النقاط فوق الحروف • من هؤلاء رينيه جروسييه ولويس هالفن
الفرنسيان ، وجورج تريفيليان وبرنارد لويس الانجليزيان : ويكفي ،
هنا ، اقتباس ما قاله برنارد لويس بهذا الخصوص • يقول في كتابه
«العرب في التاريخ» ان الحروب الصليبية كانت « اول محاولة مبكرة في
التوسع الاستعماري للغرب الاوروبي ، تحركها اعتبارات مادية ودينية.
ويغلفها الدين كعامل نفسي » • وهذا القول غني عن اي تعليق •

كل هذه الظروف والعوامل ، متجمعة متكاثفة ، أدت الى اقبال
الناس في الغرب الاوروبي ، من مختلف الاجناس ، ومن مختلف الفئات
والطوائف والطبقات ، على الاشتراك في الحركة الصليبية عندما دعا
اليها البابا اربان الثاني في مؤتمر كليرمون في ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م
وعندما صاح اولئك الذين سمعوا خطبته صيحتهم المشهورة « هذه هي
ارادة الله » •

مراجع عن الحروب الصليبية أولا - مراجع عربية

احمد احمد بدوى :

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة
(بدون تاريخ) .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

- الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية . انظر كتاب :
دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور
الوسطى ، ط . اولى ، الاسكندرية ١٩٨٣ (ص ٤ - ٣٤) .
- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى ، ط . رابعة .
الاسكندرية ١٩٨٣ .
- الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي ، ط .
ثانية ، بيروت ١٩٨١ .
- العدوان الصليبي على مصر ، ط . ثالثة ، الاسكندرية ١٩٨٤ .
- العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ط . خامسة ، الاسكندرية
١٩٨٤ .
- العدوان الصليبي والرأى العام الغربى . انظر كتاب : دراسات
فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى .
ط . اولى ، الاسكندرية ١٩٨٣ (ص ٣٥ - ٦٢) .

حسن حبشى (دكتور) :

- الحرب الصليبية الاولى ، القاهرة ١٩٤٧ .

- نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨ .
- الشرق العربي بين شقى الرجى : حملة القديس لويس على مصر والشام ، القاهرة ١٩٤٩ .

زكى النقاش (دكتور) :

- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج .
- بيروت ١٩٥٨ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

- قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الحركة الصليبية ، ٢ ج ، القاهرة ١٩٦٣ .
- مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

السيد الباز العرينى (دكتور) :

- مصر في عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ .
- مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ .

عبد الرحمن زكى (دكتور) :

- معركة المنصورة وأثرها فى الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٠ .

عبد النعم ماجد (دكتور) :

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، بيروت

• ١٩٦٦

عزيز سوريال عطية (دكتور) :

نقد مؤلفات جروسية عن الحرب الصليبية وعن فلسفة التاريخ ،

انظر المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الاول ، القاهرة. ١٩٤٨ ،

• (ص ٣١٢ - ٣٢٢)

حمر كمال توفيق (دكتور) :

- مملكة بيت المقدس الصليبية ، الاسكندرية ١٩٥٨ •

- الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة ،

الاسكندرية ١٩٥٩ •

- مقدمات العدوان الصليبي : الامبراطور يوحنا تزمسكيس وسياسته

الشرقية ، الاسكندرية ١٩٦٩ •

محمد سيد كيلاني :

الحروب الصليبية واثرها في الادب العربي في مصر والشام ،

القاهرة ١٩٤٩ •

محمد عبد الله عنان :

بين الشرق والغرب : فكرة الحروب الصليبية ، انظر مجلة

الهلال ، ج ٧ ، السنة ٣٤ ، ابريل ١٩٢٦ (ص ٧٠٩ - ٧١٤) •

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في القصوزة ، القاهرة ،
١٩٦١ •

نظير حسان سعادوى (دكتور) :

- ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ •
- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، القاهرة ١٩٦١ •

ثانيا - مراجع معربة

باركر (أ) :

الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ •

جوانفيل (جان دى) :

القديس لويس : حياته وجمالاته على مصر والشام ، ترجمة
وتعليق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ •

رنسيمان (س) :

الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ٣ ج ، بيروت
١٩٦٧ - ١٩٦٩ •

كلارى (ر) :

فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ،
القاهرة ١٩٦٤ •

مؤنزوند (م) :

تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب ، ترجمه
من الفرنسية الى العربية مكسيموس مظلوم ، ٢ ج، اورشليم
١٨٦٥

ثالثا - مراجع أجنبية

Archer, T. and Kingsford, C., The Crusades, London, 1919.

Atiya, A. S.,

- The Crusade of Nicopolis, London, 1934.
- The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.
- Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962.
- The Crusade : Historiography and Bibliography, Bloomington, 1962.

Barker, E., The The Crusades, London, 1925.

Bréhier, L., L'Eglise et l'Orient au Moyen Age: Les Croisades,
Paris, 1928.

Cahen, C., La Syrie de Nord a l'époque des Croisades, Paris, 1940.

Calthrop, M., The Crusades, London [N. D.].

Campbell, G., The Crusades, London, 1935.

Chalandon, F.,

- Essai sur la Règne d'Alexis Ier Comnène, Paris, 1900.
- Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'élection de Godefroi de Bouillon, Paris 1925.

Cønder, C. R., The Latin Kingdon of Jerusalem, 1099 - 1291 A.D.,
London, 1897.

Funck - Brentano, F., Les Croisades, Paris, 1934.

Gibbon, E., The Crusades, London, 1870.

Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume Franc de
Jérusalem, 3 vols., Paris, 1948.

Iorga, N.,

Brève Histoire des Croisades et de leurs Fondations en Terre
Sainte, Paris, 1924.

Lacroix, P., La Chevalerie et les Croisades, Paris, 1887.

Lamb, H.,

The Crusades: The Flame of Islam, London, 1931.

Ludlow, J. M.,

The Age of the Crusades, Edinburgh, 1897.

Maimbourg, P., Histoire Universelle des Croisades d'après les
principaux historiens, Paris, 1868.

Mayer, H. E.,

— Kreuzzüge und lateinscher Osten, London, 1983. (Reprint).

— Probleme des lateinischen Königreichs Jerusalem, London,
1983. (Reprint).

Michaud, M.,

- **Histoire des Croisades, 7 vols., Paris, 1819 - 1822.**
- **Bibliographie des Croisades, 2 vols., Paris, 1822.**

Richard, J., Croisés Missionnaires et Voyageurs : Perspectives orientales du monde latin médiéval, London, 1983. (Reprint).

Röhricht, R., Geschichte des Königreichs Jerusalem (1100 - 1291), Innsbruck, 1898.

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols., Cambridge, 1954 - 1955.

Schlumberger, G. Recits de Byzance et des Croisades, Paris, 1917.

Setton, K. M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I: The First Hundred Years, ed. by M. W. Baldwin, Philadelphia, 1958.

Stevenson, W., The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

الموضوع الرابع

الوحدة وحركات اليقظة العربية

أبان العدوان الصليبي

- البحر المتوسط « بحيرة عربية » *
- الحركة الصليبية عدوان استعماري *
- بربرية الفرنج وتحضر العرب *
- توازن القوى بين العرب والفرنج *
- يقظة العرب في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) *
- المغول والعدوان الصليبي *
- العدوان الصليبي في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) *
- يقظة العرب في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلادي) *
- آراء واستنتاجات *
- المصادر والمراجع *
- الخرائط *

لا يهدف هذا البحث الى دراسة العدوان الصليبي بتفاصيله ومقائمه .
فهذا موضوع كتب فيه وفي مختلف جوانبه أساتذة متخصصون في الشرق
والغرب . ثم أنه موضوع أكبر من أن تتسع له بضعة صفحات . وإنما
يهدف أساسا الى لقاء نظرة موضوعية شاملة على منطقة الشرق الأدنى
العربي التي كانت مسرحا للعدوان الصليبي مدة ثلاثة قرون أو يزيد ،
وذلك في محاولة للتعرف على الجنبات الرئيسية للعدوان ، واستخلاص
النتائج الجوهرية المرتبطة بها ، وما تكشف عنه من آراء واستنتاجات
وأحكام لها مغزاها ودلالاتها .

لقد أصبحت الحركة الصليبية معروفة لنا من وجهة النظر الغربية .
لكنها ، اذ تعتبر عدوانا توسعيا تعرض له العالم العربي الاسلامي في
عصر من عصوره ، لا تزال تنتظر المزيد من البحوث والدراسات التحليلية ،
لاستجلاء ما غمض من خباياها . وهذا هو عين النقص الذي يشوب
الكتب والمراجع الاجنبية ، التي تناولت تاريخ تلك الحركة على نحو
يعبر عن وجهة نظر واحدة ، أتسمت بعدم الحيادة وخرجت لا تصور
الحقيقة والواقع . وجاءت مبتورة مبتسرة معبرة عن شق واحد من أصول
البحث دون الشق الآخر .

وكان طبيعيا أن تعتمد هذه الدراسة التحليلية على العديد من
المصادر عربية وغير عربية . فأما المصادر العربية فمنها ما هو خطي لم
ينشر بعد ، وما هو مطبوع . وأما الاصول الاجنبية فمنها اللاتيني
والبيزنطي والارمني ، وبعضها لا يزال بلغاته الاصلية التي كتب بها ،
والبعض الآخر ترجم الى اللغات الاوروبية الحديثة . يضاف الى ذلك
المراجع العربية والاجنبية في تاريخ مصر والشرق الأدنى في العصر
الاسلامي ، وتاريخ العصر الصليبي ، وتاريخ العصور الوسطى بصفة
عامة .

والامل كبير أن يكون هذا البحث وغيره من البحوث التي ظهرت

أخيرا فى المكتبة العربية ، فاتحة لدراسات جديدة فى هذا الميدان الهام
تلقى الضوء على ما خفى من زواياه ، ونكشف للعروبة حركة من سلسلة
الحركات العدائية التى تعرضت لها على مدى التاريخ .

البحر المتوسط « بحيرة عربية »

فى أخريات القرن الخامس الميلادى سقطت روما فى أيدي العناصر
الجرمانية المتبربرة ، وبذلك أنتهت دولة القياصرة الاقدمين ، وأقام
الجرمان على أنقاضها ممالك لهم فى غربى البحر المتوسط . هذا ، بينما
انتقل الاباطرة الرومان لى الشرق ، وجعلوا من القسطنطينية عاصمة
لدولتهم الجديدة ، ونعنى بها دولة الروم الشرقية أو الدولة البيزنطية التى
كانت تسيطر فى ذلك الحين على شبه جزيرة البلقان والحوض الشرقى
للبحر المتوسط (١) .

هكذا أنهارت الدولة الرومانية القديمة ، وبدأت العصور الوسطى فى
جو من الفوضى والاضطراب . وفى هذا يقول المؤرخ الكبير ادوارد
جيبون E. Gibbon فى كتابه المسمى « انهيار وسقوط الامبراطورية
الرومانية » ، انه انما يمسك بقلمه لى يسرد سيرة مليئة بحوادث
التدهور والانحطاط التى تغلبت فيها البربرية والدين على النظام
والحضارة . (٢) والمقصود بذلك تغلب الجرمان والمسيحية على الجهاز

(١) Cf. N. F. Cantor (ed.), The Medieval World, New York, 1963, 10, 15, 67 ff.; J. L. LaMonte, The World of the Middle Ages, New York, 1949, 5 ff., 40 ff.; S. Kats, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1960, 73, 85, 93, 98 ff.; S. Painter, A History of the Middle Ages, London, 1966, 18 ff., 33 f., 62 ff.

(٢) أنظر رأى جيبون فى الكتاب التالى Cantor, op. cit., 10-11.:
راجع أيضا تعليق كولتون على رأى جيبون فى كولتون (ج.ج) : عالم
العصور الوسطى فى النظام والحضارة - ترجمة وتعليق د. جوزيف
نسليم - ط ٠ رابعة - الاسكندرية ١٩٨٤ - ص ١٠-١١ و ١٣ .

الرومانى العتيق ، أو بكلمة أخرى أنهيار المذنية وبداية البربرية فى التاريخ الاوروبى .

واستمر الغرب الاوروبى ودولة الروم يعانيان من حالة للضعف هذه حتى أوائل القرن السابع الميلادى . ففى العقود الاولى من هذا القرن وقعت فى شبه الجزيرة العربية أحداث كان لها اهميتها البالغة وآثارها البعيدة المدى فى تطور التاريخ البشرى . اذ ظهر الاسلام يدعو الناس عامة الى عبادة الله وحده ونبذ الاصنام ، والعرب بخاصة الى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ للفرقة والخلاف . ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ، ودانت لها كافة القبائل العربية المشتقة المتنازعة ، التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هذا الاساس قامت الدولة العربية الفتية ، وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح ، نشرا لدعوتها ، ودفاعا عن كيانها ، وتأمينا لمجتمعها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . فانطلقت لتصطدم بالدول المتاخمة لها ، وأصبح الكفاح بين العرب والروم من ناحية وبين العرب وأهل الغرب من ناحية أخرى ، أمرا واقعا ، بل ضرورة وسياسة اقتضتها سلامة الدولة العربية وأمنها .

وفى هذه المرحلة التزم كل من الروم واللاتين جانب الدفاع بسبب الضعف الذى انتابهم ، فى وقت كانت تتقدم فيه الامة العربية ، بعد أن اتحدت وتآلفت ، تقدما سريعا فى الجبهتين الشرقية والغربية . ففى الجبهة الشرقية احرزت انتصارات سريعة متلاحقة . فامتلت خلال القرنين السابع والثامن للميلاد بلاد الشام وشرقى آسيا الصغرى ومصر وشمال افريقية وبعض الجزر فى البحر المتوسط . أما فى الجبهة الغربية ، فقد امتدت الفتوحات العربية حتى اسبانيا . ومنها عبر العرب جبال البرانس ووصلوا الى فرنسا نفسها . وأن لم تساعد الظروف على بقائهم هناك . كما أستولوا على جزيرة كريت فى القرن التاسع ، ووقعت

صقلية وجنوبى ايطاليا فى قبضتهم فى أوائل القرن العاشر الميلادى (١) •
ومما يؤسف له أن بعض المؤرخين الغربيين ، من قدامى وحديثين ،
قد نظروا الى حركة الفتح نظرة حقد وتعصب ، بينما حاول البعض الآخر
أن يقلل من شأن قوة العرب وحماسهم ، مما لا يتفق بحال مع الحق
والامانة العلمية (٢) •

كانت هذه مقدمة لا بد منها ، اذ هى أول تجربة حية أثبتت أن
اتحاد العرب وتكتلهم يمكن أن يأتى بالمعجزات • ويكفى أن ميزان القوى
فى هذا الكفاح الحيوى بالنسبة للعرب - والذي أمتد منذ الفتح حتى أوائل
القرن العاشر - كان فى صالحهم • فقد أنتشرت على طول شواطئ البحر
الابيض المتوسط مدن وبلدان عربية ، ذات حضارة عربية ، وتكلم اللسان
العربى ، مما دعا العالم البلجيكى هنرى بيرين H. Pirenne الى أن
يقول بحق ان ذلك البحر أصبح بحيرة عربية خالصة ، بعد أن كان فيما
مضى بحرا رومانيا (٣) ، أو « بحرنا » Mare Nostrum حسبما

(١) Cl. F. Lot, Les Invasions Barbares, Paris, 1942, 13 ff.; R. E. Sullivan, Heirs of the Roman Empire, New York, 1960, 9 - 10, 24 ff.; P. K. Hitti, History of the Arabs, London, 1964, 139 ff., 212 ff., 493 ff., 602 ff.; F. Gabrieli, Les Arabes, French trans. by Marie de Wasmer, Paris, 1963, 57 ff.; S. Runciman, A History of the Crusades, Vol. 1, Cambridge, 1954, 14-19; Painter, op. cit., 191.

(٢) أنظر عن ذلك محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية - الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٤ - ص ١٠-١ •
(٣) H. Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, London, 1961, 2 - 3; idem, Medieval Cities, English Trans. by F. D. Halsey, Princeton, 1948, 15 - 16.

كان الرومان القدماء يسمونه (١) .

غير أن هذا النصر للباهر الذى احرزه العرب نتيجة لتوحيد صفوفهم لم يلبث أن أعقبته ضربات مؤلة . وكانت النكسة الاولى فى القرن العاشر الميلادى عندما انقلب ميزان القوى بين الشرق والغرب . اذ أخذت أوروبا ، بشقيها الشرقى والغربى ، تستعيد من قوتها ، وتقوى من الضربات التى وجهها للعرب اليها . بينما أُنقَاب العالم العربى بعض الضعف والوهن ، بسبب الانحلال السياسى الذى دب فى اوصال الدولة العباسية شرقا ، وفى القوى العربية غربى البحر المتوسط . وكان لهذا الانقلاب فى القوى ، ولتغير مركز الثقل بين أوروبا والعالم العربى فى العصر الاسلامى ، آثاره الوخيمة على العرب وحدودهم المقصلة بكل من الروم واللاتين . اذ تمكنت دولة الروم من الاستيلاء على بعض المدن فى آسيا الصغرى وشمال الشام ، وكان ذلك فى عصر الاسرة المقدونية . كما استطاع النورمان الاستيلاء على جنوبى ايطاليا وعلى صقلية . وَاَحْرَزَ الغربيون أيضا عدة انتصارات فى اسبانيا ، أهمها اسيتلاؤهم على طليطلة سنة ١٠٨٥ م (٢) .

وكانَ هذا الانحسار التدريجى فى القوى العربية فى شرق البحر المتوسط وغربيه نتيجة لضعفهم وتفككهم وقتذاك . وهذه ظاهرة دورية فى تاريخ العرب فى العصر الاسلامى ، وحتى العصر الحديث

لقد خرج العرب من هذه التجربة القاسية التى امتدت من القرن

LaMonte, op. cit., 3 — 4.

(١)

LaMonte, op. cit., 275 ff.; Lot, op. cit., 21 f., 285 ff.; Painter, (٢)

op. cit., 193 ff., 197 ff. أنظر أيضا عمر كمال توفيق :

الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة (٩٦٣-٩٦٩ م) - الاسكندرية ١٩٥٩ - ص ٨ وما بعدها ، سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية - ج ١ - للقاهرة ١٩٦٣ - ص ٥٦ وما بعدها .

العاشر حتى قيام الحركة الصليبية بدرس أقادهم فيما بعد . إذ أوضحت أن انقسامهم هياً للروم واللاتين فرصة الانقضاض على دولتهم والتهام جانب كبير منها . وكان أولى نتائجها أن أستهان الروم وأهل الغرب بالعرب ، واتخذوا حيالهم سياسة هجومية ، فى حين التزم هؤلاء جانب الدفاع عن أنفسهم وعن دولتهم بشكل عام .

الحركة الصليبية عدوان استعماري

فى غمرة هذه الاحداث التى ألت بالعالم العربى فى فترة ضعفه وتفككه ، خرجت من أوروبا فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى دعوة عدوانية تعارف المؤرخون على تسميتها بالحركة الصليبية ، ولقد بدأت هذه الحركة رسميا عندما أعلن أحد بابوات روما ، وهو اربان الثانى (١)، مولدها رسميا فى خطبة القاها فى مؤتمر كليرمون الكنسى بفرنسا فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م ، ودعا فيها أهل الغرب الى حمل الصليب للاستيلاء على الاراضى المقدسة ، وتأسيس مستعمرات لاتينية لهم هناك . وقد حفظ لنا نص الخطبة المذكورة التى تقطر بالحق والكراهية ضد العرب والاسلام كثير من المؤرخين اللاتين الذين عاصروا احداث تلك الفترة من الزمن ، وعلى رأسهم 'فوشيه دي شارتر' Foucher de Chartres و'بودرى دى بورجى' Baudri de Bourgueil و'جيبيرت دى نوجان' Guibert de Nogent (٢) . وتروى المراجع أن

(١) عن اربان الثانى ودوره فى الحركة الصليبية ، أنظر جوزيف نسيم يوسف « اندفاع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - الاسكندرية ١٩٦٣ - ص ١٩٨-٢٠٥ .

(٢) Foucher de Chartres, R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866, 323-4;

Baudri de Bourgueil, R. H. C. - H. Occ., IV, Paris. 1879, 12 - 5;

Guibert de Nogent, R.H.C.-H.Occ., IV, 137 - 40.

المحتشدين لسماع خطاب البابا صاحوا بعد سماعه صيحتهم المشهورة « هذه هي إرادة الله » ، وسرعان ما حملوا شارة الصليب شعارا لهم . * ومن هنا اصطبغت الحركة بالصبغة الدينية ، حتى أن أحد الكتاب الغربيين انقدامي ممن شاهدوا مولدها ، وهو روبرت الراهب Robert le Moine ، قال حرفيا انها من عمل الله وليست من عمل الانسان (١) . * وأيده في ذلك أحد كتابهم الحديثين ، وهو الكونت بول ريان Paul Riant ، عندما قال انها حروب دينية خالصة ، وان دوافعها واتجاهاتها دينية بحتة ، وهدفها الاول والاخير تخليص فلسطين وكنيسة القيامة من أيدي العرب (٢) . *

ولكن احدث البحوث التاريخية ، البعيدة عن الميل والهوى ، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الحركة الصليبية لم تكن من صنع الله ولكنها كانت من صنع الانسان ، وانها كانت تهدف منذ البداية الى التوسع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية ، وان غرضها الحقيقي هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين ، وتأسيس مستعمرات لاتينية بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون رأس جسر لاهل الغرب اللاتينى يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربى وكسر شوكتة ضمانا لبقاء نفوذهم فى المنطقة (٣) . *

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الغربيين الحديثين الذين اشتهروا بتعصبهم لبنى جنسهم ، والذين نظروا الى الحركة الصليبية من وجهة

(١) Robert le Moine, R.H.C.-H.Occ., III, 723.

(٢) P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, A.O L., I, Paris 1881, 2.

(٣) تناولت ذلك بالتفصيل فى كتاب العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى - ط . رابعة - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٥١-٩١ . *

نظر غربية بحتة ، قد اعترفوا ضمنا أو صراحة بحقيقة اتجاهات تلك الحركة • ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه R. Grousset الذى قال فى كتابه « خلاصة التاريخ » ان الحروب الصليبية ادت الى اول توسع استعماري للغرب المسيحى فى الشرق العربى (١) • بينما قال زميله جورج تريفيليان G. Trevelyan الانجليزى فى كتابه « مختصر تاريخ انجلترا » ان الحركة الصليبية هى حلقة اتساع خارجى قامت بها أوروبا المسيحية الاقطاعية ضد العرب (٢) • أما الاستاذ برنارد لويس B. Lewis فقد أوضح فى كتابه « العرب فى التاريخ » ، أن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعماري للغرب ، تحركها اعتبارات مادية دنيوية ، ويغلفها الدين كعامل نفسانى (٣) • ويتحدث المؤرخ المعروف هنرى وليم كارلس ديفز فى كتابه « أوروبا فى العصور الوسطى » عن الحروب الصليبية تحت عنوان « الاستعمار الاوربي (٤) » • ويزيد ديفز الامر وضوحا فيقول : « وكثيرا ما كان ينتحل الباعث الدينى بقصد القاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية » ، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب • وفى موضع آخر يقول انه كلما ازداد اقتراب زعماء الحملة الاولى من الاراضى المقدسة كلما ازداد وضوحا ان انقاذهم للكنيسة المقدسة ليس الا اعتبارا ثانويا • ويستمر قائلا بأن الشغل للشاغل للحكام اللاتين فى الثمانين سنة التى أعقبت تأسيس المستعمرات الاربع فى الارض المقدسة هو

(١) R. Grousset, The Sum of History, Oxford, 1951, 182.

(٢) G. Trevelyan, A Shortened History of England, Aylesbury, 1960, 141.

(٣) B. Lewis, The Arabs in History, London, 1958, 140.

(٤) ديفز (هـ و ك •) : أوروبا فى العصور الوسطى - ترجمة للدكتور عبد الحميد حمدي محمود - الإسكندرية ١٩٥٨ - ص ١٧٨ •

« توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس » • (١)

هذه شهادة عدد من الكتاب الغربيين الحديثين عن حقيقة اتجاهات الحركة الصليبية • ومن حسن الحظ أنه ظهر في المكتبة العربية في السنوات الاخيرة العديد من الكتب والبحوث للجادة الواعية التي تناولت تلك الحركة أو أحد فصولها تناولاً يتسم بالدقة والامانة العلمية ، فأماطت اللثام عن دوافعها الحقيقية • يقول الدكتور جمال الدين الشيال (٢) ان الحملة الصليبية الاولى وما تلاها من حملات انما « تمثل المرحلة الاولى من مراحل الاستعمار الاوربي لمنطقة الشرق الأدنى العربي • وهي انما لبست مسوح الدين واتخذت شارة الصليب لان العصر كان عصر تزلزل ديني » • ويعزز هذا الرأي قول الدكتور محمد مصطفى زيادة (٣) من أن « الحركة الصليبية دلت على اتجاهات توسعية نائية جغرافيا عن فلسطين • • • • • وأن زعماء الصليبيين ، حتى الاولين منهم ، لم يكن غرضهم جميعا الدين فحسب » • وجاء في مقدمة الدكتور حسن حبشي (٤) للترجمة العربية لمذكرات روبرت كلاري عن الحملة الرابعة ، أن التاريخ لا يعرف « حربا شنها الغرب الاوربي تحت ستار

(١) ديفز : نفس المرجع السابق - ص ١٨٣ و ١٩٥ و ١٩٦ • وفي ص ١٨٨ من المرجع نفسه يوضح ديفز كذلك أن النزعة خلال الصراع بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا كانت لا تزال نزعة المطامع المادية للفوز بالسلطة وانتزاع ولايات جديدة من المسلمين •

(٢) جمال الدين الشيال « وحدة مصر وسوريا في العصر الاسلامي » المحاضرة الثانية من المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية في العام الجامعي ٥٧ / ١٩٥٨ - الاسكندرية ١٩٥٨ - ص ٦ •

(٣) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة - القاهرة ١٩٦١ - ص ٤-٥ •

(٤) كلاري (ر •) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين - ترجمة الدكتور حسن حبشي - القاهرة ١٩٦٤ - ص ٥ •

الدين ثم كشف القناع عن حقيقة نواياه الاستعمارية مثل الحرب التي خرجت فيها أوروبا عام ١٢٠٢ م بحجة انقاذ المسيحية واستخلاص بيت المقدس ومحاربة مصر ، ثم غيرت الحملة اتجاهها منذ البداية واسفرت عن وجهها ، فهاجمت امبراطورية الشرق النصرانية وهى الامبراطورية البيزنطية ، • ويزيد فيليب حتى (١) الامر وضوحا فيقول فى كتابه « تاريخ العرب » انه ليس كل للذين حملوا الصليب كانت تدفعهم اعتبارات دينية ، فكثيرون أمثال بوهيمند كانوا يطمعون فى تأسيس

Hitti, op. cit., 636.

(١)

وقد تعرض لهذه المسألة أحد الكتاب الغربيين القدامى ، ويدعى ارنولد أوف ليبك ، عندما ذكر فى حوليته التى كتبها فى بداية القرن الثالث عشر ، والتى تشغل الفترة من سنة ١١٧٢ الى سنة ١٢٠٩م ، أن الصليبيين لم يشتركوا فى تلك الحملات بسبب الحافز الدينى ، ولكن رغبة فى الربح والكسب والاثراء : أنظر

A. H. Hamdy, « The Western Attitude to Islam as Viewed by Arnold of Lübeck, » Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. X, Alexandria, 1956, 80. كما تكشف

الاميرة أنا كومنيننا فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها الامبراطور الكسيس كومنين ، عن حقيقة دوافع العدوان للصليبي عندما أشارت الى اطماع اللاتين وجشعهم وحبهم الزائد للمال ، واستغلالهم للعامل الدينى كستار لتحقيق اغراضهم ومآربهم : أنظر

Anna Comnena, The Alexiad, English Trans. by Elizabeth Dawes, London, 1928, 248, 250, 252, et passim. هذا ، ويكشف

خطاب الكسيس كومنين الذى أرسله الى روبرت الاول أمير الاراضى اللوطة حوالى عام ١٠٨٨ م ، والذي يقال أنه من الاسباب التى أدت الى قيام الحركة الصليبية - يكشف هذا الخطاب عن مدى استغلال للنصرة الدينية لاثارة أوروبا الغربية فى حرب عدائية ضد المسلمين فى الشرق • أنظر نص الخطاب فى

H. Hagenmeyer, Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes, 1901, 129 ff.

راجع أيضا المناقشات حول الخطاب المذكور فى مقالى « الدفاع للشخصى فى قيام الحركة الصليبية » - ص ١٨٨ - ١٩٥ •

امارات لهم هناك . كما كان لتجار بيزا والبندقية وجنوة مصالح تجارية يسعون الى تحقيقها . فضلا عن فئات عديدة من المغامرين والصوص والقتلة والمجرمين وقطاع الطرق والخارجين على القانون وطغام الشعوب وأرقاء الارض ، ممن قدموا من بلدان الغرب مدفوعين بعوامل شتى أهمها السيطرة والاطماع والسلب والنهب وأقلها بلا شك العامل الديني .

وهكذا ، تحت ستار الدين قامت جحافل الصليبيين من أوروبا متجهة صوب الشرق الأدنى العربى . وفى سنوات قلائل أحرزت عدة انتصارات سريعة لم تكن تحلم بها فى يوم ما . فلقد تمكن الصليبيون فى الفترة من مايو ١٠٩٧ م الى يونيو ١٠٩٨ م من القضاء على سلطنة السلاجقة فى آسيا الصغرى وشمال الشام ، ومن تأسيس أول مستعمرتين لهما ، ونعنى بهما امارة الرها فى أعالي الفرات وامارة انطاكية فى أعالي الشام ، وتم هذا كله فى حوالى عام (١) .

ولنا أن نفتعل عن السر فى هذا التقدم السريع الذى أحرزه الاوروبيون ، وهل يرجع الى صفات خاصة تميزوا بها دون العرب والسلاجقة ، كالجرأة أو الاستبسال فى القتال حتى الموت والاستشهاد . يجيب عن هذا السؤال المؤرخ الفرنسى شارل أومان Ch. Oman فى كتابه « فن الحرب والقتال فى العصور الوسطى » ،

يقول ان القوات الصليبية كانت ضعيفة من الناحية العسكرية ، كما كان ينقصها النظام وحسن الاعداد والترتيب والامام الكافى

(١) أنظر عن ذلك

Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matt. d'Edesse, R.H.C. - Doc. Arm., t. I, Paris, 1869, 37 - 38; Foucher de Chartres, R.H.C. - H.Ccc., III, 496 - 7.

بالتكتيكات الحربية السليمة ، وهي كانت تتكون من جيوش إقطاعية متفرقة لا تجمع بينها قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء . ومع ذلك فقد أحرزت انتصارات كبيرة على قوات كانت تفوقها أعدادا وترتيبا وتنظيما وتدريباً . وإن الحقيقة التي تكمن وراء تلك الانتصارات لهي أعمق من ذلك بكثير . فهي ترجع أولا وقبل أى شيء إلى انقسام العرب والسلاجقة على أنفسهم وقتذاك (١) .

كانت هذه إحدى مراحل الهزيمة التي نزلت بالشرق الأدنى العربي في عصر من عصور الضعف التي مر بها عند بداية العدوان الصليبي ، وهي استمرار للحالة التي كان عليها اعتبارا من القرن العاشر الميلادي ، وقد ترتبت عليها أسوأ العواقب وأوخمها . فقد كان الخلاف مستحكما بين ملوك العرب وأمراءهم . ففي مصر خلافة الفاطميين الشيعة على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنية في بغداد ، وقد دب في كيانهما الانحلال والهزال . فالضعف باد ، والانقسام بينهما سياسى ودينى ، والتناحر على أشده . وهكذا كان كلا الفريقين آخذا في القدهور ، بينما القبائل التركمانية ، ومن بينها السلاجقة ، تخطف من أملاك الفاطميين والعباسيين على النساء ما يمكن اختطافه من الأقاليم ، كما حدث مثلا عند استيلائهم على بلاد الشام من الفاطميين . وحتى سلطنة السلاجقة كانت هي الأخرى قد انقسمت إلى دويلات صغرى يحكم كل منها أمير مثلما حدث في أنطاكية وحلب ودمشق (٢) . ويؤكد هذا الوضع أحد المؤرخين العرب ممن عاصروا بدايات العدوان الصليبي

(١) Ch. Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, I, London, 1924, 233.

انظر أيضا عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى - بيروت ١٩٦٦ - ص ١٥٢ :

(٢) Cf. Grousset, Sum of Hist., 172-4; idem, Histoire des Crois.,

وكتبوا عنها ، وهو ابن القلانسي ، اذ فكر انه لو كان صاحباً حلب ودمشق قد اتفقا وقتذاك لاحقا بالعدو الدخيل شر هزيمة ، ولحالا بينه وبين التوغل في آسيا وسورية الشمالية ، وبدلاً من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك ، لم يبذلا مجهوداً ايجابياً في سبيل وقف تقدمه في الشرق العربي (١) .

يحدث كل هذا والعدو الفرنجي واقف يتربص بالعرب الدوائر ، وهو مغتبط اشد الاغتياب لهذا الانقسام الواضح في صفوفهم ، وكان هذا غاية ما يتمناه . واذا ، لا عجب اذا كانت هذه حال العرب في الشرق من أن ينتصر عليهم الصليبيون . ولا عجب ايضاً ان يتم هذا كله في سنوات معدودات .

=
Vol. I, Paris, 1948, pp. VI - VIII, XLVIII - LVIII; Runciman, op. cit., I, 75 - 8; K. M. Setton (ed.), A History of the Crusades, I, Philadelphia, 1958, 96 - 7; W. Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, 19 - 20; Hitti, op. cit., 63 3-3 - 5.

وللمزيد من المعلومات عن الانحلال السياسي والتدهور الاقتصادي في أواخر عهد الخلافة الفاطمية ، أنظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ - مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون - ج١ - باريس ١٨٧٢ - ص ٥٥٠ : المقرئزي : اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة للفاطميين الخلفاء - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ - ص ٢٨٠ و ٢٨٣ : المقرئزي : كتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة - نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٠ - ص ١٨ - ٢٧ : أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر - ج٣ - استانة ١٢٨٦هـ - ص ٤٠-٤٢ . راجع أيضاً جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - ج١ - وثائق الخلافة والوزارة - الاسكندرية ١٩٦٥ - ص ٢٧ وما يليها .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ - ص ١٣٤

بربرية الفرنج وتحضى المصريين.

على أية حال ، بعد ان فرغ الصليبيون من تأسيس أول مستعمرتين
لهما في الشرق ، واصلوا الزحف الى بيت المقدس الذي بلغوه في أوائل
يونيو من عام ١٠٩٩ م ، وكان اذ ذاك في حوزة الفاطميين (١) . وكما
سقطت مدن آسيا الصغرى وسورية الشمالية في قبضة الاوروبيين ،
سقط بيت المقدس بعد حصار استمر حوالى أربعين يوما . ومما تجدر
الاشارة اليه هنا ، أنه بعد أن دخل الاوروبيون المدينة المقدسة أخذوا
يتعقبون الاهالى العزل الآمنين الذين وجدوا أنفسهم وقد احاط بهم العدو
من كل جانب ، فلجأوا الى قبة للصخرة والمسجد الأقصى للاعتصام بهما
من بطش الفرنج وغدرهم ، اعتقادا منهم أنه مهما بلغ تعطش أولئك القوم
لسفك الدماء ، فلن يجرؤا على اقتحام الاماكن المقدسة واتيان المنكر
فيها . ولكن الفرنج - كعادتهم دائما - لم يراعوا حرمة بيوت الله ،
فأخذوا يعملون فيهم سيوفهم دون رحمة او هوادة ، ودون مراعاة لعامل
النسب أو الجنس ، حتى سالت الدماء انهارا ، وخاض فيها الغزاة الى
ركبهم . وهذه الفظائع أيدها وشهد بها اثنان من مؤرخيهم ممن حضروا
المذبحة ، وهما ريمون داجيل Raimond d'Agiles ، والبرت
دكس Albert d'Aix (٢) .

(١) حول استيلاء الفاطميين على البيت المقدس من السلاجقة قبيل
للحملة الاولى ، انظر ابن القلانسي : نفس المرجع - ص ١٣٥ ؛
ابن الوردي : ثغمة المختصر في اخبار البشر - ج ٢ - القاهرة ١٢٨٥ هـ
- ص ١١ .

(٢) Raimond d'Agiles, R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866, 291 ff.;
Albert d'Aix, R.H.C.-H.Occ., IV, Paris. 1879, 470, ff.

هذا وقد تحدثت أنا كومنينا ابنة الامبراطور الكسيس كومنين باسهاب
عن وحشية أولئك القوم ، عندما تعرضت للحملة الشعبية التي سبقت
الحملة النظامية المعروفة بالحملة للصليبية الاولى : أنظر عن ذلك =

وقد أمدنا للكاتب العرب ، وبخاصة ابن القلانسي ، وأبو الفدا ، وابن الوردي ، وابن كثير ، والمقريزي ، وابن العماد ، الكاتب ، بالعديد من الامثلة الدالة على وحشية أولئك القوم وتعصبهم وقسوتهم أيام العدوان للصليبي (١) .

ولم يكتف المغيرون بذلك ، بل رفعوا القناع عن وجههم ، وكشفوا عن حقدهم الدفين على العروبة والاسلام ، وذلك عندما حولوا قبة الصخرة الى كنيسة لاتينية سموها « معبد السيد » *Templum Domini* كما استخدموا المسجد الاقصى لمصالحهم ، واطلقوا عليه باللاتينية اسم « معبد سليمان » (٢) *Templum Solomonis*

ويلاحظ أن هذه كانت نفس السياسة التي سار عليها الصليبيون بصفة عامة في جميع حملاتهم العدوانية ضد العرب . فعندما أغاروا على دمياط سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) في عهد الملك الكامل محمد ، أحالوا مسجد المدينة

= أنظر عن ذلك Anna Comnena, The Alexiad, 251.

وفيما يتعلق بالاستيلاء على بيت المقدس أنظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق - ص ١٣٦ وما بعدها . كما تناول الدكتور حسن حبشي تفاصيل المعركة في كتابه « الحرب الصليبية الاولى » ، - القاهرة ١٩٤٧ - ص ٨١ وما بعدها . أنظر أيضا : Grousset, Hist. des Crois., I, 153 - 163; Runciman, op. cit., I, 279 - 288.

- (١) أنظر عن ذلك ابن القلانسي : نفس المرجع - ص ١٣٦ : أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر - ج ٣ - ص ١٢٨ - ١٢٩ : ابن الوردي : تقمة المختصر في أخبار البشر - ج ٢ - ص ١٣٧ : ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ - ج ١٣ - القاهرة ١٣٥٨ هـ - ص ٨٣-٨٤ : المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ج ١ - القاهرة ١٢٧٠ هـ - ص ٢١٢ : ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ج ٥ - القاهرة ١٣٥١ هـ - ص ٦٦ .
- (٢) أنظر عارف باشا العارف : تاريخ القدس - القاهرة ١٩٥١ - ص ٧١ - ٧٢ و ٧٤ .

العظيم الى كنيسة لاتينية كاثوليكية ، عملوا على تثبيت شعائرهم بها .
كما ابطالوا الطقوس التي جرى عليها المسيحيون الشرقيون ، وأحلوا محلها
طقوسهم . وهذا هو نفس ما فعلوه عندما أغاروا على المدينة بعد ذلك
للتاريخ بثلاثين سنة فى عهد الصالح نجم الدين أيوب (١) . فقد
كان العرب فى نظرهم - مسلمون أو مسيحيون شرقيون - هراطقة لانهم
على غير مذهبهم . ولقد بذلوا قصارى جهدهم لصبح الشرق الأدنى العربى
بصبغة كاثوليكية بحتة ، مما يكشف عن احد دوافع الحركة الصليبية .
ويؤكد هذا الاتجاه المؤرخ الغربى ارنست باركر E. Barker ، عندما
ذكر فى كتابه « الحروب الصليبية » ان الكنيسة اللاتينية كانت تطمح
فى نشر الكاثوليكية فى جميع انحاء العالم العربى المعروف وقتذاك ،
ولو اذى ذلك الى القتال المسلح (٢) . كما أوضح الدكتور عبد الحميد
حمدي محمود فى دراسته التحليلية عن فيليب دى مزيير وهيئة فرسان
آلام المسيح التى دعا الى انشائها فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ،
أن من بين اهداف الهيئة العمل على نشر العقيدة الكاثوليكية فى الاراضى
الاسلامية (٣) . وغير خاف ان فقرات الضعف والتفكك التى امت بالعرب ،

(١) راجع عن ذلك للسيوطى : حسن المحاضرة فى اخبار مصر
والقاهرة - ج٢ - القاهرة ١٣٢٧ هـ - ص ٢٨ ؛ ابو الفدا : المختصر -
ج٣ - ص ١٢٨ ؛ ابن الوردى : تقمة المختصر - ج٢ ص ١٣٧ . ومن
المصادر الاجنبية ، راجع :

Rothelin, Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin, R.H.C.-
H.Occ., II, Paris, 1859, 594; Joinville, Histoire de Saint Louis, Paris,
1874, 98; cf. also Grousset, Hist. des Crois., III, 444.

(٢) أنظر باركر (ارنست) : الحروب الصليبية - ترجمة الدكتور
السيد الباز العرينى - القاهرة ١٩٦٠ - ص ٩ .

(٣) A. H. Hamdy. «Philippe de Mézières and the New Order of
the Passion,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University,
Part I. Vol. XVII, Alexandria 1964, 56, Part II, Vol. XVIII,
1964, 12.

قد ساعدت أولئك القوم على التماذى فى تحقيق اطماعهم ، وفى ارتكاب تلك الشرور والآثام .

وجدير بالذكر فى هذا المقام انه كان يقابل مظاهر الوحشية والقسوة والغدر والتعصب التى تميز بها العدوان الصليبي على المشرق العربى ، صورة أخرى مخالفة تمام الاختلاف ، ونعنى بذلك سماحة العرب ووفاءهم بالعهد وكرمهم ونبل اخلاقهم وانسانياتهم . ومصادر الحركة الصليبية ، من عربية وغير عربية ، غنية بالأمثلة الدالة على ذلك . نذكر منها على سبيل المثال المعاملة الانسانية للكرامة التى عامل بها صلاح الدين الايوبى سكان بيت المقدس من الفرنج بعد سقوط المدينة فى قبضته سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) (١) . وكذلك حسن معاملة المصريين لأسيرهم الملك الفرنسى لويس التاسع عندما وقع فى قبضتهم فى أواسط القرن السابع الهجرى (أواسط القرن الثالث عشر الميلادى) (٢) .

(١) أنظر Runciman, Hist. of the Crusades, II, 466. ونجد أمثلة عديدة على حلم صلاح الدين وعفوه ومروءته فى كتاب ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٤ - ص ٣١ و ٣٢-٣٣ و ١٥٨ - ١٥٩ . أنظر أيضا جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية - ص ٢٠ و ٢٣ . وللمزيد عن سماحة العرب وتحضرهم ، أنظر A. H. Hamdy, «The Western Attitude to Islam», 81 - 82, 84.

(٢) قال الكتبى فى مؤلفه « عيون للتواريخ » - ج ٢٠ - لوحة ٢٥ - نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ ، ان السلطان المعظم توران شاه بن الصالح ايوب أكرم أسيره الملك لويس ، وأقام عنده من يقوم بخدمته ، كما رتب له كل ما يحتاج اليه من طعام وشراب .

راجع أيضا ابن العماد : شذرات الذهب - ج ٥ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ج ٦ - القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ - ص ٣٦٦ .

وعلى أية حال ، فقد انتهى الامر بوقوع فلسطين فى قبضة الغربيين فى منتصف يوليو من عام ١٠٩٩ م ، بعد ان ظلت فى ايدى العرب أكثر من أربعة قرون ونصف . وبذلك تحققت للفرنج أحلام كانت تداعب خيالهم فى يوم ما . وأسسوا مستعمراتهم للصليبية فى تلك الارض العربية ، وجعلوا على رأسها أحد زعمائهم الذى قسمها الى امارات اقطاعية وزعها بين زملائه من القادة اللاتين ، مستغلين فى ذلك فرصة تفكك العرب وانقسامهم . وفى ذلك يقول المؤرخ مارشال بلدوين M. Baldwin مؤكدا انه على ضوء تجارب الغرب المعروفة فى التوسع والاستعمار يمكن اعتبار المستعمرات الصليبية التى تم تأسيسها فى شرقى البحر المتوسط ، هى الفصل الاول من تاريخ أوروبا الطويل فيما وراء البحار (١) .

هكذا انتهى الدور الاول من الكفاح بين العرب واللاتين ، بانقصار ساحق للقوات المعتدية أحرزته فى بضع سنوات . ولنتمعن قليلا فى أحداث هذا الدور تاركين تفصيلاته ومعاركه . لقد تميز - كما رأينا - برجحان كفة للصليبيين الدخلاء على العرب أصحاب البلاد . وتم هذا فى وقت كان فيه الشرق الأدنى العربى منقسما على نفسه مما اعجزه عن مواجهة العدوان الغربى ، ومما هيا للأوروبيين فرصة تحقيق اتجاهاتهم للتوسعية فى المنطقة ، بعد ان اتخذوا الدين قناعا لنشاطهم المعادى للعرب والاسلام .

توازن القوى بين العرب والفرنج

ليس من العسير أن ندرك أن أهل الغرب كانوا يعلمون تماما ، ومنذ اللحظة الاولى ، أنه بوسع العرب في مصر وبلاد الشام ، اذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم وتكتلت قواهم ، في صدق وإخلاص ، أن يدفعوا عنهم الخطر الصليبي ، وأن يفلحوا في القضاء على الفرنج بشتى السبل . ثم أن العرب أنفسهم لم ينسوا أن ما لحقهم من خسارة ، وما أحرزه أولئك الأجانب من مكاسب خاطفة في بداية حركتهم ، إنما كان - في الدرجة الاولى - بسبب ضعف القوى العربية وانقسامها وتفتتها . وكانوا يدركون جيدا أنهم كلما اتحدوا ، كان ذلك بشيرا بحركة يقظة وإفاقة . تعقبها حملات مضادة على الغزاة وإماراتهم في الشرق . ففي اتحادهم قوة ، وفي قوتهم قضاء أكيد على اللاتين وعلى كل أثر لهم . بينما في انقسامهم ضعف ، وفي ضعفهم خذلان لهم ، وتمكين لنفوذ اعدائهم في المنطقة (١) .

لقد انصرف الحكام العرب بسبب المنازعات والحروب التي قامت بينهم عن الجهاد ضد الغزاة القادمين من الغرب . وغير خاف أنه لو كان قد قدر لهم الاتحاد عند قيام الحرب الصليبية الاولى ، ولو كانوا قد نبذوا أسباب الفرقة والخلاف ، لما تمكن اللاتين اطلاقا من احراز أي نصر عسكري أو سياسي في فلسطين ، ولقضى العرب عليهم قبل أن يصلوا اليها ويقيموا مستعمراتهم بها . ولو قدر لهم الاتحاد عندما حل الصليبيون بأراضيهم ، ونسوا ما بينهم من خلافات ، وغلبوا الصالح العربي العام على المصالح الشخصية ، لما اتاحوا للدخلاء فرصة العمل على

(١) تناول الدكتور حسن حبشي في مؤلفه « نور الدين والصليبيون » القاهرة ١٩٤٨ ، بالبحث والدراسة والتحليل حركة الإفاقة والتجمع الاسلامي في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) .

تثبيت دعائم دولتهم ولا يستطيعوا أن يحفظوا فلسطين من عبث الطارق الدخيل .

ومع ذلك . فبالرغم من هذا النجاح المصطنع الخاطف الذي حققه الفرنج ، فاننا نلمس بوضوح أن مجتمعهم الاقطاعي (١) الذي أقاموه بالشرق بدأ متداعيا متهاكاً منهاراً ، ولم تتوافر فيه مقومات الدولة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح . لقد ولد المجتمع الصليبي ضعيفاً هزيعاً لا يقوى على الوقوف على قدميه ، ولم توجد فيه سمات الامم والحكومات ، كالآداب والعرف والتقاليد والجيش القومي أو الثروة العامة ورعوس الاموال النامية ، ولذلك ظل هذا المجتمع الغريب عرضة للتقلبات والهزات والازمات العنيفة ، ونهباً للكوارث والويلات التي كانت تحل به بين الحين والحين . لقد كانت عوامل الضعف تنخر كالسوس في مستعمرات اللاتين بالشرق الأدنى منذ اليوم الاول ، نذكر منها ضالة مواردهم المالية ، وقلة المحاربين الذين كانوا تحت امرتهم ، وتضارب مصالحهم ، وتباين أهوائهم ، واختلاف أجناسهم ، وانحلالهم الخلقي ، وفقدور الحماس الديني عندهم بشكل ملحوظ . فضلاً عن الخلاف والمنازعات المستمرة بين الفرنج الجدد الوافدين من الغرب والفرنج القدامى الذين استوطنوا في الشرق ، حول المصالح الخاصة وامتلاك الاراضي . وأخيراً يجب ألا ننسى ان العداوة كانت قائمة بين الحاكمين والمحكومين . لقد شعر أولئك الدخلاء بأنهم يعيشون بين أصحاب الحق الشرعي الذين

(١) حول الحكم الاقطاعي الصليبي في الاراضي المقدسة ، أنظر كوبلاند (ج. و.) وفينوجرداف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٥٨ - ص ٢٤ - ٢٥ . وللمزيد من التفاصيل عن مفهوم الدولة في المجتمع الغربي الوسيط ، أنظر هارتمان (ل. م.) وباراكلاف (ج) : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى - ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف - ط . رابعة ، الاسكندرية ١٩٨٤ - ص ١٠٣ - ١٢١ .

يتطلبون إلى اليوم الذي تتحد فيه صفوفهم ، توطئة لتوجيه ضربتهم القاضية ، واسترداد أراضيهم المسلوبة (١) .

وكان يقابل هذا التدهور التدريجي في امارات الصليبيين ، شعور الشعوب العربية في المنطقة أن وجود تلك الامارات يبين ظهرائها أصبح يشكل خطرا جسيما يجب عليها المبادرة باستئصاله قبل أن يستفحل ويسرى في بقية أجزاء العالم العربي . وقد أفرك العرب أن كل يوم يمر دون توحيد وجهتهم الداخلية وتقويتها ، فيه خسارة محققة ، وفيه تعويق وتأخير لعملية الجهاد الأكبر .

وشاعت الظروف السيئة ألا يظهر على المسرح وقتذاك زعيم يستطيع تكوين جبهة عربية قوية متحدة ضد أولئك القوم . وكان الفرنج يواجهون في هذه الفترة المبكرة أمراء متفرقين متخاصمين حسبما أسلفنا . فاستغلوا هذا الظروف واعتمدوا على سياسة الايقاع والتفريق بين السلافة والحكام العرب تمكينا لنفوذهم ومضالحهم .

ومع زيادة الخطر على المشرق العربي ، بدت في الافق بوادر افاقة ويقظة اعتبارا من السنوات الاولى من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) . اذ بدأ العرب يستشعرون مدى الخطر الماثل أمامهم ، وأخذوا يعملون على توحيد صفوفهم ، ولم شملهم لمقاومة الدخلاء وطردهم من ديارهم . وظهرت تباشير هذه اليقظة بشكل خاص

(١) أشار إلى ذلك بالتفصيل والتحليل كل من رينيه جروسييه في الجزء الثاني من موسوعته عن الحروب الصليبية ، وستيفن رنسيمن في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » . أنظر : Grousset, Hist. des Crois., II, 24 ff., 310 ff., 609 ff.; Runciman, Hist. of the Crusades, II 291 ff., cf. also Hamdy, «The Western Attitude to Islam,» 77 - 78, 81, 84.

فى مصر والعراق وشمال الشام ، على هيئة وثبات عربية لم تكن قد اختمرت أو نضجت بعد فى حركة واحدة موحدة . نذكر منها تحالف صاحب حلب مع الفاطميين بمصر ضد امارة انطاكية اللاتينية فى مستهل ذلك القرن . وكذلك محاولات أتابكة الموصل ودمشق لتكوين محسور يطوق ممتلكات اللاتين فى الشمال والشمال الشرقى . وكانت هذه المحاولات الجزئية بين مد وجزر ، ولم تؤت ثمارها المرجوة لانها هاجمت بعض معاقل الافرنج مثل امارات الرها وطرابلس وانطاكية قبل أن توحيد جبهتها تماما ، الامر الذى لم يمكنها من تحقيق النصر النهائى وقتذاك (١) .

كل هذا أوجد حالة من التوازن بين الفريقين : العرب أصحاب الديار والفرنج الدخلاء ، بحيث لم يتمكن أى منهما فى هذا الدور الثانى من الكفاح من احراز نصر حاسم على خصمه ، وهو الدور الذى تناوله بشئ من الاسهاب والتحليل المؤرخ رينيه جروسيه وزميله ستيفن رنسيما .

وقد وجدت عدة ظروف ساعدت الغزاة فى المحافظة على كيانهم المتداعى بالشرق الأدنى العربى آنذاك ، على الرغم من الظروف السيئة المحيطة بهم . نذكر منها سياسة بناء الاستحكامات والقلاع ، وتحصين المدن الساحلية ، واستغلالهم كل انقسام بين الحكام العرب ، والعمل على بذر بذور الشقاق بينهم . ثم قدوم نجدات هزيلة أو جماعات قليلة العدد من الحجاج الاوروبيين المسلحين ، وان كان ذلك بصفة غير منتظمة وبأعداد غير كافية . يضاف الى ذلك عامل التزاوج السياسى الذى درجوا عليه للربط بين اماراتهم المتنازعة فيما بينها . واخيرا استعانة الفرنج

(١) ابن الاثير : تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل - مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون - ج٢ - قسم ٢ - ص ٢٣ . راجع أيضا حسن حبشى : نور الدين والصليبيون - ص ٩ وما بعدها ومن المصادر الاجنبية ، أنظر :

Albert d'Aix, R.H.C. - H.Occ., IV, 670; Matti d'Edesse, Extraits, R.H.C. - Doc. Arm., I, 19 - 4, 96 - 7.

بالجماعات الرعبانية العسكرية ، كالداوية والاستبارية والتوتونية ، وبأساطيل الجاليات الايطالية التجارية فى جنوه وبيزا والبندقية ، فى الاستيلاء على الموانى العربية بالساحل الشامى ، نظير صفقات يتقاسم فيه الطرفان المكاسب والاسلاب (١) .

ولولا تلك الظروف لربما انتهى الامر فى هذا الدور بتفوق العرب على الصليبيين الذين أصبحوا محاطين من الشمال والشرق والجنوب الغربى بقوات أعدائهم القوية ، التى كانت تنتظر الفرصة المواتية للقيام بدورها الايجابى فى المنطقة . لكل هذا بات الغزاة القادمون من الغرب يطمون تماما أنهم هالكون لا محالة ، ولم يكن أمامهم الا أحد أمرين كلاهما مر : أما أن ينجوا بأنفسهم عن طريق البحر عائدين الى ديارهم ، وأما أن يقذفوا فيه بواسطة قوات أعدائهم عندما يحين الوقت المناسب . وعلى أية حال ، فقد كان البحر هو المنفذ الوحيد بالنسبة لهم ، سواء رحلوا بمحض اختيارهم أو اجبروا على الرحيل .

هذا عن اللاتين ، أما العرب فلم يكن أمامهم أيضا فى مرحلة التوازن هذه سوى سبيلين لا ثالث لهما : أما أن يسدوا على الفرنج الطريق للساحل شرقى البحر المتوسط ، ولم يكن هذا بالامر المستطاع وقتذاك ، نظرا للقلاع والموانى التى كان الغزاة يتحصنون بها على طول الساحل . ثم ان احراز النصر النهائى عن هذا الطريق لم يكن مضمون النتائج ، بسبب ما قد يحدث من ثغرات داخل الجبهة العربية نفسها قبل استكمال توحيدها ، قد يستغلها العدو لتحقيق اغراضه . وهناك شواهد عديدة على ذلك يمكن أن نستشفها من خلال الصراع اليومى بين الطرفين . هذا عن الحل الاول ، أما الحل الثانى فهو أن يبادر العرب بتكوين جبهة قوية

(١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية - الاسكندرية ١٩٥٨ - ص ٧٣ - ٧٦ و ١٦٤ وما بعدها .

متحدة من أقصى الشمال فى الشام والعراق الى أقصى الجنوب فى مصر ، بحيث يمكنها الاطباق على مستعمرات الغزاة من جميع الجهات ، وبذلك يصبح من السهل دفعها بقوة وعنف نحو البحر حتى تنكمش وتتصاعل الى أن ينتهى الامر بزوالها .

يقظة العرب فى القرن السادس الهجرى

(القرن الثانى عشر الميلادى)

هذا ما حدث بالفعل فى الدور الثالث والاخير من العدوان الصليبي ، هو الذى أثبتت فيه اليقظة العربية وجودها وآتت ثمارها . ففيه برزت أمة العربى الفتية التى أخذت على عاتقها مهمة اتمام توحيد الجبهة العربى المفككة ، واقامة دولة قوية متماسكة ، يمكنها مقاومة الفرنج ودفع خطرهم . وقد تمخضت هذه الحركة عن ظهور شخصيات عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود (١) وصلاح الدين الايوبى الذين عرفوا

(١) Runciman, op. cit., II, 325 - 344, 403 - 435; Grousset, op. cit., 62 ff., 363 ff., 650 ff.

وحول جهاد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ضد الفرنج ، أنظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق - ص ٢٧٩ - ٢٨٠ و ٣٣٣ و ٣٣٩ - ٣٤٢ ؛ ابن الشحنة : الدار المنتخب فى تاريخ مملكة حلب - بيروت ١٩٠٩ - ص ٢١٩ ؛ ابن الاثير : اقباق الموصل - ص ١١٨ - ١٢٥ و ١٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٩ - ٢٢٤ و ٢٣٣ - ٢٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - ج ١ - القاهرة ١٩٥٣ ، وبخاصة صفحات ٧٢ - ٧٥ و ٨١ - ٨٣ و ١٢٠ - ١٢٥ و ١٢٧ - ١٢٨ و ١٣٤ - ١٣٦ و ١٤٣ وما بعدها . راجع أيضا :

Grégoire le Prêtre, Chronique, R. H. C. - Doc. Arm., I, Paris, 1869, 157.

كيف يشقون طريقهم ، وكيف يحشدون القوى العربية ، ويثيرون الحماسة وروح الجهاد في نضال عنيف ضد الفرنج . وكانت النتيجة انهم تمكنوا في سنوات قليلة من توحيد الجبهة العربية من برقة غربا الى الفرات شرقا ، ومن الموصل و حلب شمالا الى النوبة واليمن جنوبا ، في دولة واحدة لها حاكم واحد ، مركزها القاهرة ، ويعمل لها العدو ألف حساب . وبذلك تم تطويق المستعمرات الصليبية بحزام قوى من كل جانب . ولم يكن أمام الفرنج هذه المرة سوى البحر . وحتى من هذه الناحية أصبح مركزهم مهددا بالخطر ، لان الاسطول المصري القوى كان واقفاهم بالمرصاد . (١) وقد انتابهم الخوف والفرع ، حتى لقد قال ولیم الصوري الذي عاصر هذه الحقبة وشاهد أحداثها ، ان هذا التغيير الجوهرى الذى طرأ على القوى العربية قد وقع على رءوس الغربيين وقع الصاعقة ، وكان بمثابة مصيبة كبيرة لمصالح مستعمراتهم فى فلسطين (٢) .

لقد أصبح كل شىء معدا لتوجيه الضربة القاصمة بعد أن قضت حركة اليقظة العربية على كل أمل للغزاة فى الامتداد والتوسع ، بل وفى مجرد البقاء على قيد الحياة . وجاء هذا أيام صلاح الدين الايوبي .

(١) وفى هذا يقول الدكتور جمال الدين الشيال « وقد كانت سياسة زنكى تهدف لتأليف جبهة اسلامية متحدة متكاتفه ليتمكن من مناضلة الصليبيين ، ثم سار على نهجه ابنه نور الدين محمود بن زنكى ، فبذل جهودا طيبة لتكوين الجبهة العربية الاسلامية الموحدة » و « كان (صلاح الدين) يريد ان يعمل على توحيد الشام ومصر فى جبهة اسلامية واحدة نستطيع أن تقف فى وجه الصليبيين وتقضى على ملكهم » . أنظر : وحدة مصر وسوريا فى العصر الاسلامى - ص ٧ و ١٣ .

(٢) Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis

gestarum, R. H. C. - H. Occ., I, 2e. p., Paris, 1844, 895-7.

فبعد أن اطمأن الى سلامة الكيان العربى الواحد ، قام بجهاذه المعروف ضد الصليبيين ، والذي انتهى بهزيمتهم هزيمة ساحقة فى موقعة حطين فى ربيع الآخر ٥٨٣هـ (يوليو ١١٨٧م) ، وردهم عن البيت المقدس فى رجب من نفس العام (اكتوبر ١١٨٧م) (١) ، أى بعد شهر تقريبا من موقعة حطين . وبذلك اعتدل ميزان القوى فى المنطقة لصالح العرب ، وانكششت امارات الغزاة فى رقعة ضيقة بالساحل الشامى . وتوالت انتصارات العرب ، وانكسرت كل الحملات التى شنّها الصليبيون منذ ذلك التاريخ . فحين قامت الحملة الصليبية الثالثة بعد تحرير القدس بعامين لاعادة غزوها ، فشلت فى مهمتها . كما انتهى أمر الحملات التى تعرضت لها مصر خلال النصف الاول من القرن السابع الهجرى (النصف الاول

(١) حول جهاد صلاح الدين ضد الفرنج والحملة الثالثة ، أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٤ - ص - ٢١ - ٢٣ و ٤١ - ٤٣ و ٤٨ - ٤٩ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٤ و ٧٥ وما بعدها ؛ عماد الدين الاصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى - القاهرة ١٣٢١ هـ - ص ١٧ - ٢٥ - ٣٦ - ٤٥ و ١٤٠ - ٢٦٠ و ٣١٤ - ٣١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - الجزء الثانى - القاهرة ١٩٥٧ - ص ١٤٨ وما بعدها و ١٥٧ وما بعدها و ١٨٥ وما بعدها . راجع ايضا :

Vartan le Grand, R. H. C. - Doc. Arm., 1, Paris, 1869, 439;
Ambroise, The Crusade of Richard Lion - Heart, tr. by M. J. Hubert, New York, 1941, 108 - 118, 124 ff.

والكتاب الاخير مترجم شعرا عن الفرنسية القديمة ، ويتألف من اكثر من اثنى عشر الف بيت من الشعر ، وهو مفيل بتعليقات وحواش قيمة بقلم الاستاذ جون لامونت . راجع أيضا عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الايوبى (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ١٠٠ - ١٥٠ .

من القرن الثالث عشر الميلادى) بالاخفاق والخذلان (١) * ولم يكن مصير آخر الحملات الصليبية ، وهى التى قام بها لويس التاسع ملك فرنسا على تونس سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠م) ، بأحسن حظا من الحملات السابقة (٢) *

هكذا أخفقت جميع الحملات التى تعرض لها العالم العربى فى العصر الاسلامى ، بعد يقظته وافاقتة ، وباتت مستعمرات اللاتين المتبقية لهم بالساحل الشامى تنتظر مصيرها المرتقب ، وأصبحت المسألة مسألة زمن فحسب * ومن موقف القوة واصل المماليك البحرية خلال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى)،

(١) المقصود حملة جان دى بريين صاحب عكا والملك الاسمى لبيت المقدس فى عهد الملك الكامل محمد بين سنتى ٦١٥ و ٦١٨ هـ (١٦١٨ - ١٢٢١ م) ، وحملة لويس التاسع ملك فرنسا فى عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب بين سنتى ٦٤٦ و ٦٤٧ هـ (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م) * والمكتبة العربية غنية بالمؤلفات الحديثة فى تاريخ هاتين الحملتين ، وبخاصة الحملة الثانية ، نذكر منها تأليف محمد مصطفى زياده : حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة - القاهرة ١٩٦١ ؛ حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى حملة القديس لويس على مصر والشام، القاهرة ١٩٤٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ط٠ ثالثة - الاسكندرية ١٩٨٤ ، وهزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل - القاهرة ١٩٦٠ * فضلا عن المراجع التى أرخت للعدوان الصليبي بصفة عامة ، وتناولت فيما تناولته تاريخ هاتين الحملتين *

(٢) وذلك فى عهد صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر * أنظر عن الحملة : المقرئى الخطط - ج١ - ص ٢٢٣ ؛ والسلوك - ج١ قسم ٢ - ص ٣٦٤ - ٣٦٥ و ٥٠٢ و ٥٩٠ * وكذلك

Joinville, op. cit., 404 ff.; Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur, R. H. C. - H. Occ., II, Paris, 1859, 458 ff.

وكان قد استتب لهم الامر في مصر والشام ، مهمة طرد الفرنج من الشريط الضيق بالساحل الشامى . فاستولى الظاهر بيبرس على انطاكية في رمضان ٦٦٦ هـ (مايو ١٢٦٨ م) ، بينما وقعت طرابلس في يد المنصور سيف الدين قلاوون في ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ (ابريل ١٢٨٩ م) . وفي جمادى الاول سنة ٦٩٠ هـ (مايو ١٢٩١ م) استولى الاشرف خليل على عكا آخر معاقلهم الهامة بالاراضى المقدسة . وفي نفس السنة تم تصفية باقى الجيوب الصليبية في فلسطين ، عندما طردهم المسلمون من بيروت وصيدا وصور وحيفا (١) . وبذلك انهار سلطان الفرنج تماما من منطقة الشرق الادنى العربى .

المغول والعدوان الصليبي

ان الحديث عن حركات للترباط العربى في مواجهة العدوان الصليبي يستوجب الاشارة الى عنصر ثالث استجد على مسرح الاحداث في اواسط القرن السابع الهجرى (اواسط القرن الثالث عشر الميلادى) ، وكان له دوره في الصراع الدائر بين العرب واللاتين في منطقة الشرق الادنى ، ونعنى بذلك المغول . فقد اصبح المغول منذ اوائل ذلك القرن خطرا يهدد القارة الاوروبية . وراى البابوات واهل الغرب ان خير وسيلة لاتقاء شرهم ، هى العمل على كسبهم الى الكاثوليكية ، واستمالتهم اليهم في حرب صليبية مشتركة ضد الاسلام في الشرق ، في وقت كان فيه افرنج

(١) النويرى نهاية الارب في فنون الادب - نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة - ج٢٨ - لائحة ٩٤ وما بعدها ؛ المقرئى : السلوك ج١ - قسم ٢ - ص ٥٦٧ وما بعدها ، وج١ قسم ٣ - ص ٧٤٧ وما بعدها . راجع أيضا :

A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, 29 ff.

للشام يتلقون اشد الضربات من العرب ، وفى وقت كانت فيه اوروبا الغربية تستجدى العون لحملة عدوانية جديدة .

وتنفيذا لهذه السياسة ارسل البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) اثناء انعقاد مجلس ليون الكنسى سنة ١٢٤٥م عدة سفارات الى المغول اخفقت فى تحقيق اهدافها الرئيسية ، وان كانت قد ابعدت الخطر المغولى عن اوروبا . وتجددت المفاوضات بين الطرفين بعد ذلك بفترة قصيرة . وفى اثناء اقامة الملك الفرنسى لويس التاسع فى جزيرة قبرص قبل ابحاره فى حملته الصليبية الى مصر ، ارسل له احد الحكام المغول فى وسط فارس سفارة تحمل رسالة يطلب فيها الاشتراك مع اللاتين فى حملة صليبية كبرى للاستيلاء على البيت المقدس من العرب . (١)

ويجد الباحث المحقق ان كلا من اللاتين والمغول كان يعمل على استغلال الآخر لمصلحته الشخصية . فاذا نظرنا الى المغول نجد انهم اخذوا منذ وقت غير قريب فى وضع الخطط الاولى لتكوين امبراطورية قوية لهم تدخل فى نطاقها بلاد الشام والعراق . وكانوا يعرفون مبلغ للضعف الذى وصلت اليه الخلافة العباسية فى بغداد آنذاك ، وانها لا بد ان تسقط عند اول ضربة توجه اليها . وادركوا ايضا ان مصر ، باعتبارها زعيمة العالم العربى ، يستحيل ان تقف من هجومهم موقف المتفرج ، بل سوف تهب لصد عدوانهم الذى كان يهددها هى الاخرى تهديدا مباشرا . لذا وجدوا ان اسلم الطرق لتحقيق مآربهم فى رقعة الشرق الادنى العربى هى العمل يدا واحدة مع الصليبيين الغربيين للقضاء على سلطان مصر

(١) Joinville, op. cit., 47; Rothelin, op. cit., 569 ff.; cf. also A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, 233 ff.

وازالة قوتها من الميدان * وكان طبيعيا ان يرحب الجانب اللاتينى بذلك ،
بل كان هذا ما يتمناه ملك الفرنسيين (١) *

لكل هذا رحب الملك اللاتينى بفكرة التعاون المشترك مع المغول *
وأوفد اليهم بعثتين بين سنتى ١٢٤٩ م و١٢٥٢ م ، لم يكن مصيرهما
بأحسن من مصير السفارات السابقة (٢) *

ومع ذلك ، فقد كان لهذه التحركات والاتصالات المغولية اللاتينية
نتيجة اخرى هامة * اذ تأكدت اطماع المغول فى المنطقة العربية * وما
هو اهم ، استشعار مصر والعرب فى الشرق الادنى بالخطر الجديد الملقى
من الشرق الاقصى ، وادراكهم ما كانت تعنيه فكرة تكوين جبهة
لاتينية مغولية مشتركة ضد العروبة والاسلام * فكانوا يعلمون جيدا
ان المغول يستعدون لتوسيع رقعة املكهم على حساب الخلافة العباسية
التي كانت تحتضر آنذاك * ويعلمون كذلك ان انشغالهم فى صراعهم مع
الصليبيين سوف يسهل على المغول مهمتهم * وهذا ما حدث * ففى سنة
٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) قضى المغول على الخلافة العباسية فى بغداد ،
وانطلقوا بعد ذلك يعمثون فسادا فى ربوع الشام الذى كاد ان يقع فى
ايديهم *

كل هذا ايقظ العرب فى مصر والشام ، وادى الى تكتيل القوى
وحشد الجهود فى الوقت الذى كانوا يوجهون فيه الضربات القوية الى
مستعمرات اللاتين المتبقية لهم فى الشام * وانتهى الامر بأن الحقت مصر

(١) حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرعى - ص ٣٦ - ٣٧ ،
وكذلك

L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1928, 222.

Joinville, op. cit., 74, 258 ff., cf. also Atiya, op. cit., 243 ff. (٢)

بالعنصر المغولى هزيمة ساحقة فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) • (١) وبذلك تم انقاذ مصر والشرق الادنى العربى كله عن خطر ماثل • وتفرغ الممالك لتأديب الصليبيين وطردهم من بقية المعقل الساحلية التى كانوا يتحصنون بداخلها على امتداد الساحل الشامى •

العدوان الصليبي فى القرن الثامن الهجرى

(القرن الرابع عشر الميلادى)

لم تمت الفكرة الصليبية تماما بسقوط عكا وآخر معقل اللاتين فى شرقى البحر المتوسط فى اواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وبكبح جماح المغول فى عين جالوت ، بل نجد انها استمرت خلال القرن الرابع عشر ، ولكن فى ظروف تختلف عن الظروف التى بدأت بها • كان الغرب الاوروبى آنذاك فى فترة تغير وانتقال ، ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله • وقل اهتمام الناس بالفكرة الصليبية نفسها نتيجة الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية على المسائل العلمانية • هذا فى الوقت الذى اصبح فيه للمسائل التجارية الاعتبار الاول • واخذ الصراع بين شقى العالم معنى جديدا • اذ اصبح الادعاء الدينى ادعاء ظاهريا مكشوفاً بعد ان اختلط بمصالح عالمية مادية • وخير مثال على ذلك المواطن الايطالى الذى فقد اعتقاداته الدينية الوسيطة بسبب الكسب المادى من التجارة • وعلى هذا كانت محاولة احياء الروح الصليبية فى الغرب بعد سقوط عكا عملية مقضيا عليها بالفشل منذ البداية •

(١) ابو الفرج : تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠ - ص ٤٣٨ وما بعدها و ٤٤٦ و ٤٧١ وما بعدها ؛ أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع - القاهرة ١٣٦٦ - ص ١٩٨ وما بعدها ؛ المقرئى : الخطط - ج ٢ - ص ٢٣٨ •

حقا لقد قام كثير من الدعاة والمبشرين بالدعوة لها فى شتى ارجاء الغرب • ومن اشهر هؤلاء بطرس ديبوا ، ورامون لال ، وبيطرس توما ، وفيليب دى مزيير • وحقا قامت عدة حملات صليبية لتحقيق نفس الاطماع القديمة ، ومن اهمها حملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥م ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠م ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦م • ولكن تلك الحملات فشلت فى تحقيق اهدافها • وتعتبر الحملة الاخيرة منها هى آخر محاولة جدية قامت بها اوروبا باسرها لا لاجراج الاتراك العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب بل للوصول الى بيت المقدس فى قلب دولة المماليك ايضا • ولكن الحملة تحطمت فوق صخرة المقاومة العربية ، كما تحطمت الحملات السابقة لها • واصبحت فكرة الاستيلاء على الاراضى المقدسة حلما من احلام الماضى البعيد حاول اللاتين عبثا احياها ، ولكن النتيجة لم تكن فى صالحهم على الاطلاق •

ولو القينا نظرة فاحصة على مسرح الاحداث وقتذاك للتعرف على الاسباب التى أدت الى انتصار العرب وخذلان اللاتين ، نجد ان دول الشرق الادنى ، ونعنى ممالك مصر والدولة العثمانية ، كانت فى حالة من القوة والانتعاش تساعد على تسديد ضربات قاصمة الى الصليبيين الغربيين ، فى وقت كان فيه الغرب فى حالة ضعف وتدهور وفى فترة تغير وانتقال • لقد كان هذا العصر من عصور القوة العربية الاسلامية ، يقابله عصر تفكك وانحلال فى اوروبا •

يقظة العرب فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر للميلاد)

وكيفما كان الامر ، فقد كان لهذا الفشل الذى منيت به اوروبا اثره الكبير على مجرى الحوادث فى كل من الغرب والشرق الادنى • اذ انصرف الغرب

الى شئونه الداخلية تاركا نهائيا فكرة لتعرب الصليبية . أما فى الشرق الأدنى ، فقد اصبح لمصر بحكم مركزها الجغرافى والحربى السيادة المطلقة على سواحل شرقى البحر المتوسط ، واصبحت تركيا قوة اوروبية الى جانب كونها قوة آسيوية . وقد فشلت محاولات البابا بيوس الثانى (١٤٥٨ - ١٤٦٤ م) الوقوف فى وجه الاتراك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، لانه كان فى الواقع يحاول احياء فكرة اصبحت فى عداد الماضى (١) .

(١) انظر عن ذلك :

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, 3 - 9, 17 - 23, 48 - 52, 74 ff., 128 ff., 345 ff., 398 ff., 435ff., 480 - 3; idem, Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962, 92 - 111; idem, The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

وللمزيد من التفاصيل عن الداعية فيليب دى مزيير وحياته ، وهيئة فرسان آلام المسيح التى دعا الى انشائها واهدافها ، انظر :

A. H. Hamdy, «Philippe de Mézières and the New Order of the Passion,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Part I, 45 - 50, Part II, 8 - 41.

وفيما يتعلق بحملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية ، اشار جمال الدين الشيال فى كتابه « الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من اقدم العصور الى الوقت الحاضر » - القاهرة - طبع دار المعارف - ص ٢٣٤ - ٢٣٥ وص ٢٣٤ ح ٢ ، الى اهم البحوث التى كتبت عن الحملة بالاضافة الى المصدر الرئيسى المعاصر لها وهو مخطوطة النويرى السكندرى المسماه « الامام بما جرت به الاحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية فى سنة سبع وستين وسبعماية وعودتها الى حالتها المرضية » والتى توجد نسخة خطية منها بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢ تاريخ . وقد نشرها نشرا محققا فى سبعة مجلدات الدكتور عزيز =

وكما حدث فى اواخر القرن السابع الهجرى (اواخر القرن الثالث عشر الميلادى) ، كذلك كان رد الفعل الطبيعى فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) . ويتمثل رد الفعل هذا فى هجمات عربية اسلامية مضادة هدفها طرد اللاتين من المناطق التى لا تزال بأيديهم . وهى تتناول الاتراك العثمانيين وهجماتهم المضادة لهجمات الصليبيين . وكان الصراع فى هذه الفترة فى البلقان والقسطنطينية . اذ اخذ العثمانيون يكتسحون البلقان ، ويسددون للضربات القاصمة الى الامبراطورية لابيظنطية - وكانت تعاني آنذاك من الضعف والانحلال - الى ان انتهى الامر بسقوط عاصمتها القسطنطينية فى ايديهم سنة ١٤٥٣ م ، فتحقق بذلك امل كان السلاجقة يسعون اليه فى القرن الحادى عشر . وبسقوطها ينهار آخر صرح من صروح المؤسسات الوسيطة . وكان من نتائج ذلك اختراق اوربا بالعثمانيين كقوة اوروبية جديدة رغم أصلهم الآسيوى ودينهم الاسلامى .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد قام ممالك مصر بهجماتهم المضادة لهجمات الفرنج ، وكان مسرح الصراع هو ارمينية وقبرص ورودس . وكان موقف مصر بمثابة دفاع هجومى ضد الحرب العدوانية التى كانت اوروا اللاتينية تشنها تحت شعار الصليب . وكان من نتيجة ذلك انتصار مصر فى ميادين عديدة فوق اراضى الشرق الادنى ومياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، مدفوعة بواجب الجهاد المقدس باعتباره فرضا واجب الاداء ، يستهدف اساسا للدفاع عن الوطن العربى والقضاء على

== سوريال عطيه تحت عنوان كتاب الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية فى واقعة الاسكندرية - ٧ ج - الهند ١٩٦٨ - ١٩٧٦م / ١٣٨٨ - ١٣٩٦ هـ .

اعدائه • وقد بدأ هذا الهجوم المضاد باحتلال الممالك مملكة ارمنية
المسيحية عام ١٣٧٥ م (١) •

ولضمان احرار انتصارات حاسمة وقاطعة ضد باقى الممالك اللاتينية
فى شرقى البحر المتوسط حيث يعتصم اللاتين فى الجزر البحرية ، كان
من الضرورى على الممالك انشاء اسطول قوى لنقل الجند والعتاد ومهاجمة
السواحل • وقد اوقفت الحاجة الى الاسطول تقدم الممالك قرابة نصف
قرن • ولكن يجب الا ننسى انه من خلال هذه الفترة كان الاتراك
العثمانيون يكتسحون البلقان ويسددون للضربات القوية الى الامبراطورية
البيزنطية •

وهكذا ، ما ان انتهى الامر بالشام اولا ، وبأرمينية ثانيا ، حتى جاء
دور مملكة قبرص اللاتينية التى طالما سببت للشرق الادنى العربى
مضايقات ومتاعب كثيرة • وقد بدأ الهجوم المضاد عليها عام ١٤٢٤ م ،
وكان الممالك مازالوا يذكرون حملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية وما
اقتته من اعمال العنف والتخريب فى الثغر المصرى وما زالوا يذكرون ايضا تلك
الجزيرة كقاعدة للعدوان الغربى وكمرکز لامداداته وتموينه وتجهيزاته
العسكرية ضد الثغور المصرية والشامية • كل هذا جعل الممالك يقررون

(١) تكشف مراجع الحركة الصليبية عن تعاون مملكة ارمنية مع كل
من الصليبيين والمغول ضد العرب • ويتضح هذا فى مناصرتهم للصليبيين
خلال الحملة الاولى • انظر :

Grousset, Hist. des Crois., I, 31 — 43.

كما كان ملكهم المسمى هيتوم الاول (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م)
هو العامل الرئيسى فى اقناع خان المغول بارسال الحملة التى قضت على
الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م • انظر ابو الفرج:
تاريخ مختصر الدول - ص ٤٥٩ وما بعدها • ومن هنا كان انتقام ممالك
مصر من تلك المملكة •

غزو الجزيرة تأميناً لديارهم وعقاباً للفرنجة المعتدين . يضاف الى ماتقدم عامل آخر ، وهو ان الجزيرة غدت وقتذاك مأوى للقراصنة من الفرنج الذين تعاونوا من آل لوزنيان في مهاجمة السواحل الخاضعة لسلطان مصر المملوكي ، واصابوا تجارة الممالك بخسارة كبيرة . وبلغ بهم الامر أن صاروا في القرن الخامس عشر خطراً حقيقياً على مصر . لذلك وجه الممالك ثلاث حملات بحرية اليها ، الاولى عام ١٤٢٤ م وقد الحقت هزيمة كبيرة بقوات آل لوزنيان . وحدثت الحملة الثانية في السنة التالية حيث هزمت القوات القبرصية وكبدتها خسائر فادحة . وكانت الحملة الثالثة والاخيرة عام ١٤٢٦ م . وقد توجهت الى الجزيرة في عدد ضخم من السفن والرجال في وقت كانت فيه قبرص تعاني من الضعف والتفكك . وانتهت بانتصار حاسم للممالك ، وبأسر ملك قبرص المسمى جانوس Janus الذي دفع الثمن غاليا . اذ لم يطلق صراحه الا بعد الموافقة على دفع غرامة باهظة وجزية سنوية ، وتسلم الملكة كقطاع من قبل السلطان المملوكي .

ومنذ ذلك الحين اصبحت قبرص قاعدة عربية قوية توجه منها الضربات الحاسمة الى باقي معاقل اللاتين . وكان طبيعياً بعد ان هذا الظفر الحاسم ان يرنو الممالك بابصارهم الى ميدان جديد . وكان هذا الميدان جزيرة رودس حيث يعتصم فرسان القديس يوحنا . لكنهم وجدوا مقاومة عنيفة من هؤلاء الفرسان خلال الحملات الثلاث التي قاموا بها خلال سنتي ١٤٤٠ و ١٤٤٤ م . ولو ان هذه الحملات لم تؤت ثمارها ، الا انها نبهت سلاطين الاتراك العثمانيين الذين حاصروا الجزيرة مرتين بهدف امتلاكها . فقد قام السلطان محمد الثاني بالمحاولة الاولى عام ١٤٤٨ م ، ولكنها صمدت الى عام ١٥٢٢ م حين استطاع سليمان الاول ان يستولي عليها في عهد القائد الاعظم للفرسان فيليب دي مزيير (١) .

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 463 ff.; idem Crusade, Commerce and Culture, 129 ff.

هكذا كانت الفكرة الصليبية تلفظ آخر انفاسها فى وقت كانت فيه العصور الوسطى نفسها بمثلها ومبادئها وفلسفتها وافكارها فى طريقها الى الزوال ليحل محلها عصر جديد . وادرك الاوروبيون ان تلك الفكرة بمعناها المألوف لم تعد تصلح قناعا لاختفاء اطماعهم القديمة فى العالم العربى ، بل اصبحت ذكرى لماض بعيد بغض . واخذ العالم يتجه نحو مثل ومبادئ مغايرة لما كان معروفا فى القرون الوسطى أيام سطوة الكنيسة وسيطرة البابوية والاقطاع . واخذت عجلة التاريخ تشق طريقها فى سرعة مذهلة وسط أحداث وتقلبات هامة شهدها عصرنا الحديث . وقامت حربان عالميتان قلبتا الاوضاع وميزان القوى فى العالم رأسا على عقب . وظلت الجماع اهل الغرب فى المنطقة العربية كما هى دون تغيير ، بالرغم من التغيير الجوهرى الذى طرأ على كافة الظروف من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وغيرها . لم تنل الاطماع الاستعمارية ولم تتغير ، وانما الشئ الوحيد الذى زال هو الرداء الذى البسوه هذه الاطماع . فبعد ان كان رداء صليبيا فى عصر يقبل مثل هذه الاوضاع ولا يفهم شيئا سواها خلع رداءه وكشف عن حقيقته عارية .

آراء واستنتاجات

مما سبق يمكن ان نستخلص عدة آراء واستنتاجات هامة ، نجملها فيما يلى :

اولا : تكشف الخطوط العريضة البارزة التى اوضحناها فى هذا البحث عن فكرة لها مغزاها ودلالاتها ، تتعلق بعصور القوة والتماسك

الشرق الادنى فى العصر الاسلامى ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : قبرس والحروب الصليبية القاهرة ١٩٥٧ .

والتكتل وعصور الضعف والتأخر فى الشرق الادنى العربى منذ اوائل القرن السابع حتى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ولماذا كان الخط البيانى يرتفع احيانا ليسجل ذروة القوة والمنعة فى الشرق العربى ، ثم لا يلبث ان ينخفض ليشير الى فترة من فترات التدهور والانقسام والانحلال ، وهكذا . وماذا كانت النتائج الخطيرة المترتبة على هذا التفاوت بين القوة والضعف وبين التماسك والتفكك .

وثمة فكرة اخرى ترتبط بسابقتها ، ونعنى بها تغير ميزان القوى فى الصراع السياسى والحضارى بين الغرب اللاتينى والشرق العربى ، ولماذا كان مركز الثقل يتغير بين القوتين هبوطا وصعودا . ففي الوقت الذى ترجح فيه كفة اللاتين الغربيين ، ولم يكن ميزان القوى فى صالح العرب اطلاقا . وبالعكس ، عندما ترجح كفة العرب ، كان يقابل ذلك انحطاط وتدهور فى اوروىا الغربية . ومن هنا عندما يشعر الغرب انه الاقوى ، كان يقوم بهجماته العدوانية على العالم العربى ، ويحرز عادة انتصارات سريعة وخاطفة . وعندما يستجمع العرب قواهم ويكتلون انفسهم ، كانوا يقومون بهجمات وحروب مضادة تنتهى عادة بالحاق الهزيمة والخذلان بالمعتدين ، واستعادة ما استولوا عليه . وباختصار ، فقد اتخذ العرب فى عصور القوة سياسة الهجوم ، بينما التزموا بسياسة الدفاع عن انفسهم وعن ممتلكاتهم بوجه عام فى عصور الضعف . ويرتبط هذا الى حد بعيد بالظروف والاحوال السائدة فى العالم العربى من سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية وغيرها ، وما يقال عن العرب يقال ايضا عن الغرب الاوروبى . لكن عندما يعتدل ميزان القوى بين الفريقين ، كان هذا يعنى نوعا من الهدنة المؤقتة ، او فترة من التربص والانتظار ، مع الاستعداد والتقرب لحين موافاة الفرصة المواتية

للاقتضاى . والنجاح يكون آخر الامر لمن تهىء له الظروف رجحان
كفته (١) .

ثانيا : تنحصر الحقيقة الثانية فى ان الصراع بين الصليبيين
اللاتين وبين العرب فى الشرق الادنى كان يبدأ عادة بهجمات صليبية
كذلك التى قام بها الغرب عند بداية الحركة الصليبية فى اواخر القرن
الحادى عشر ، وحملات القرن الرابع عشر الصليبية ، وكان يعقب كل هجوم
غربى يقظة عربية وحملات مضادة لاسترجاع الاراضى المقدسة من ايدى
الاوروبيين . ونجد مثلا لذلك فى يقظة القرن السادس الهجرى (القرن
الثانى عشر الميلادى) فى عهد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود
وصلاح الدين الايوبى ، والتى انتهت بالحاق الهزيمة بالفرنج عندما
استولى المماليك على انطاكية وطرابلس وعكا فى اواخر القرن السابع
الهجرى (اواخر القرن الثالث عشر الميلادى) . وكذلك الهجمات العربية
الاسلامية المضادة التى قام بها الاتراك العثمانيون ومماليك مصر فى القرن
التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) ردا على الحروب الصليبية
المتأخرة فى القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر الميلادى) .

ثالثا : وهنا يجب ان نفرق بين اليقظات العربية الكبرى التى

(١) قسم كل من رينيه جروسيه وستيفن رنسيماى العدوان
الصليبي الى ثلاثة ادوار رئيسية ، لكل دور ملامحه المميزة ومميزاته
الخاصة به ، وجعلا هذه الادوار اساسا لمؤلفيهما الكبيرين عن ذلك العدوان .
الدور الاول وهو الذى رجحت فيه كفة الصليبيين الغربيين على العرب
فى الشرق الادنى ، والدور الثانى وهو فترة تعادل القوى بين الفريقين
المتحاربين ، والدور الثالث والاخير وهو الذى رجحت فيه كفة العرب على
الفرنج وانتهى بانتصارهم عليهم وطردهم من الاراضى المقدسة فى اواخر
القرن الثالث عشر . أما الحملات الصليبية المتأخرة التى قامت فى القرن
الرابع عشر ، فهى من وجهة نظرهما اثر من آثار الحركة الصليبية .
أو حسبما اطلق عليها جروسيه ، هى خاتمة الحروب الصليبية . وجدير
بالذكر ان كل فكرة من الافكار التى ذكرناها فى هذا الاستنتاج فى حاجة
الى دراسة مستقلة قائمة بذاتها .

أبرزها العدوان الصليبي ، مثل يقظة القرن السادس الهجري ، وحركة
الفاقة التي بدت منذ أواخر القرن الثامن وخلال القرن التاسع الهجري ،
اللتان تكتلت فيهما القوى والجهود في مصر والشام والعراق ، واثمرت
حملات هجومية دفاعية كان لها أكبر الأثر في طرد الفرنج الغرباء من
رقعة الشرق الأدنى العربي ومن الجزر البحرية التي كانوا يعتصمون
بها في البحر المتوسط - يجب أن نفرق بين هذه الیقظات الكبرى وبين
حركات الترابط والتجمع العربي العادي أمام أي خطر صليبي يتهدد العرب
خلال الصراع اليومي بين الطرفين في المنطقة • ونضرب مثلاً لذلك
بالحركات الفردية التي كان العراق وشمال الشام مسرحاً لها بعد بداية
الحركة الصليبية بقليل ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً • وكذلك موقف المماليك
في مصر والأيوبيين في الشام من دسائس ومؤامرات الملك اللاتيني لويس
التاسع في أواسط القرن السابع الهجري (أواسط القرن الثالث عشر
الميلادي) بعد هزيمته على ضفاف النيل وذهابه إلى سورية لتجديد العدوان ،
ومحاولاته الإيقاع بين الفريقين مستغلاً في ذلك بعض الخلافات الطارئة
بينهما • وكانت النتيجة عكس ما توقع ، إذ تنبه الفريقان المتعاديان إلى
خطة الملك الصليبي ، وبادرا بالاتفاق والتراضي ، وبذلك أضاعا عليه
فرصة كان يحلم بها (١) •

ولايضاح هذه الفكرة وبيان فلسفتها نقول ان العدوان الصليبي كان
يبدأ عادة عندما يكون الشرق الأدنى العربي منقسماً على نفسه ، وفي
حالة ضعف وتفكك • وينتهي غالباً بانتصارات سريعة وخاطفة على
حساب العرب • ثم يحدث بعد ذلك استتعار العرب أنفسهم بالخطر

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على بلاد
الشام - ط • خامسة - الاسكندرية ١٩٨٤ - ص ١٨٣ وما بعدها •

وعواقبه ، ومبادرتهم بالتكتل والتجمع » واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، . وغالبا ما تكون حركات التجمع العربى هذه محلية وفى مناطق الخطر نفسها ، بقصد العمل على منع امتداده واستفحاله : وكانت تحرز نجاحا جزئيا وليس نهائيا او حاسما . ولكنها كانت تعتبر البداية للطبيعية لحركة اليقظة والافاقة الشاملة التى تؤدى الى التئام شمل الشعوب العربية فى المنطقة فى وحدة واحدة متكاملة تحس بالخطر المشترك وبأبعاده ، وتدرك عواقبه ومضاعفاته ، وتستعد لدفعه والقضاء عليه . » واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، .

وكانت هذه المراحل المتتابعة تؤدى فى نهاية الامر الى المرحلة الاخيرة الكبيرة ، ونعنى بها الجهاد المقدس . » انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، . والمقصود بذلك الجهاد العسكرى المسلح فى سبيل الله والعروبة والوطن العربى . ويكون لهذا الجهاد نتائجها للحاسمة . اذ يؤتى ثماره الطيبة باجلاء الدخلاء عن المنطقة العربية ، واحراز نصر مبين عليهم . » ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، .

ولو نظرنا الى العدوان للصليبي نظرة الفاحص المدقق المتعمق ، وتتبعنا مراحلها من بدايتها الى نهايتها ، امكنا تفهم هذه الفكرة التى اسلفنا اليها .

رابعا : كذلك ، فان الدور الذى قام به المغول فى اواسط القرن السابع الهجرى (اواسط القرن الثالث عشر الميلادى) ، والسفارات المتبادلة بينهم وبين اللاتين ، والتلاحم الحربى بينهم وبين العرب - يكشف عن استنتاجات تميط اللثام عن حقيقة دوافع العدوان الصليبي . اذ كان هدف اللاتين تحويل المغول الى المسيحية على المذهب الكاثوليكي لتقوى بهم جبهتهم ، وبذلك تقع الاراضى المقدسة بين المغول واوروبا الغربية ، فلا يكون هناك مفر من بقائها فى قبضة الغربيين بقاء دائما .

ثم ان المغول اصبحوا طرفا ثالثا فى الصراع الدائر فوق اراضى المشرق العربى .

وثمة سؤال يثيره منطق الحوادث وهو : ماذا كان المصير لو تم فعلا تكوين جبهة لاتينية مغولية متماسكة ضد العرب والاسلام تؤدى الى حملة صليبية مشتركة ؟ تتوقف الاجابة عن هذا السؤال ، الى حد بعيد ، على تحليل الاحوال السائدة فى كل من الغرب اللاتينى والشرق الادنى العربى وقتذاك . فقد كان الغرب يعانى من الضعف والتدهور (١) ، وأخذ ينصرف تدريجيا عن فكرة الحرب الصليبية (٢) . وكان افرنج الشام يستجدون العون والمساعدة من اهل الغرب دون جدوى ، ولم يبق لهم سوى

(١) Cf. Bréhier, op. cit., 226; Stevenson, op. cit., 331.

(٢) Calmette, op. cit., 418.

ويعبّر عن ذلك اصدق تعبير شاعر فرنسى عاصر فترة احتضار الفكرة الصليبية ، ويدعى ولیم رتيف W. Rutebeuf (١٢٤٥ - ١٢٨٥ م) . اذ قال فى قصيدة له بالفرنسية الوسيطة انه من الحق والغباء ان يخاطر الانسان فى حرب صليبية خارج بلاده طالما كان بوسعه ان يتصل بالله فى وطنه وان يعيش فى يسر ونعمة وسلام . وفيها يتحدث عن رجال الدين، كبارهم وصغارهم . فى سخريه لاذعة وتهكم مرير . فيقول انهم لا هم لهم سوى اشباع بطونهم المتخمة . ويختتم القصيدة بنفس الفكرة التى بداها بها ، وهى الدعوة الى بقاء الغربيين فى بلادهم . انظر

G. Masson, Mediaeval France, London, 1888, 96, 96 - 7.

والواقع ان الفكرة الصليبية لم تعد تلقى القبول والرواج ، خاصة بين المتعقلين المتحررين من اهل الغرب . وقد أخذ الناس ينفضون عنها ، وبدأ كل فرد يتجه الى مصالحه الخاصة، والدول الى مشاكلها الداخلية . وجدير بالذكر انه ظهرت الكثير من المؤلفات التى تسخر من هذه الاوضاع السائدة فى المجتمع الغربى الوسيط وقتذاك .

بعض الحصون والمعاقل المبعثرة على امتداد الساحل الشامى • (١) أما الممالك فى مصر والايوبيون فى الشام ، فقد كانوا مسيطرين على الموقف خاصة بعد اتفاقهم • وكانوا يستعدون فعلا لتوجيه الضربة النهائية الى افرنج الشام (٢) • لكل هذا لم يكن ينتظر أن تحرز أى حملة لاتينية مغولية مشتركة ضد العرب نجاحا ما • وكان أقصى ما يمكن أن تحققه مثل تلك الحملة ، لو خرجت الى حيز التنفيذ ، هو إثارة بعض المتاعب والمضايقات للجانب العربى فحسب • والدليل على ذلك ان الممالك تمكنوا من الحاق الهزيمة بكل من الصليبيين والمغول متفرقين وفى وقت متقارب (٣) •

خامسا : غير خاف ان انكشاف الاتجاهات الاستعمارية للتوسعية للحركة الصليبية منذ اللحظة الاولى التى وطأت فيها اقدام الصليبيين الاراضى المقدسة ، تد ساعد على ظهور حركات الترابط والتكتل العربى فى المنطقة ، تلك الحركات التى وصلت الى دور النضج والكمال فيما يعرف باليقظة العربية للشاملة • ولا شك ايضا ان مظاهر العنف والقسوة والتعصب وانعدام الرحمة التى تميز بها اللاتين ، كانت هى الاخرى عاملا هاما فى إثارة الروح القومية بين العرب ضد أولئك القوم •

سادسا : كانت مصر خلال هذا الكفاح الدامى المرير عبر القرون المتعاقبة هى قلب العروبة النابض بالحياة ، ومعقلها المنيع ، ومركز امدادها بالرجال والمال والميرة والسلاح • واداستقنينا الحملتين الاولى

(١) Cf. Grousset, Crois., III, 494; idem. Sum of Hist., 177 ff.

(٢) انظر المقرئى : السلوك - ج٢ - ص ٣٨٢ وما بعدها.
Joinville, op. cit., 294.

(٣) موضوع ترابط مصالح الصليبيين والمغول فى منطقة الشرق الأدنى العربى ، فى حاجة الى مزيد من البحث والدراسة والتحليل •

والثانية ، حينما كانت دولة الفاطميين بمصر فى طور الاحتضار ، ولم يكن بوسعها سوى اوغيرها من دول الشرق الادنى للوقوف فى وجه الدخلاء ، نجد انه ما من حملة صليبية اخرى امكنها الوقوف فى وجه القاهرة منذ ان استكمل الكيان العربى بناءه ايام صلاح الدين الايوبى . لذا انحصر هدف الغرب منذ ذلك الحين فى ازالة قوتها من الميدان ، يقينا منه انه لن يتم له المحافظة على وجوده بالشرق الا بقهر مصر اولا وقبل كل شىء (١) . وقد اوضح هذه الحقيقة المؤرخ الصليبي جان دى جوانفيل Jean de Joinville (٢) صاحب المذكرات الفريدة فى اسلوبها وفى بابها عن حملة لويس التاسع على مصر . وكان هذا من الاسباب التى ادت الى انتقال مسرح النزاع من الشمال فى الشام الى الجنوب فى مصر ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى ، بعد ان هيا لها جهادها ضد الغزاة

(١) تعرض الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه « مجمل تاريخ دمياط » - الاسكندرية ١٩٤٩ ، لهذه الحقيقة بالدراسة والتحليل . فقد جاء فى ص ٢٠ من الكتاب المذكور ان الحركة الصليبية أصابها انقلاب خطير منذ اواخر عهد الملك العادل ، « اذ لاحظ الصليبيون ان مصر هى حصن الاسلام القوى وضيعته الغنية ، وانها مصدر الامداد القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح الخ . . . » ، انظر حول هذا الموضوع كذلك المراجع التالية :

St. Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, 218; idem, The Story of Cairo, London, 1924, 193; J. Pirenne, Les Grands Courants de l'Histoire Universelle, II, Neochatel, 1947, 100; J. Calmette, Le Monde Féodal, Paris, 1937, 408.

Joinville, op. cit., 100.

(٢)

مركز للقوة والصدارة في العالم العربي في العصر الإسلامي (١) .

ومن مصر أيضا كانت تنبعث دائما صحبة الجهاد ضد الغزاة . فالجهاد كان عقيدة لها اثرها الفعال فيما احرزه المصريون على اعدائهم من انتصارات . وكانت للخطب والمواعظ الدينية التي تلقى من فوق المنابر أكبر الاثر في الحث على الجهاد ضد الغزاة . وقد قام الجامع الازهر بدور رئيسي في تنبيه الازهار الى الخطر الجاسم في ارض فلسطين . فخطب

(١) حول فكرة اتجاه الصليبيين نحو مصر بهدف الاستيلاء عليها ، انظر محمد مصطفى زياده : حملة لويس التاسع على مصر - القاهرة ١٩٦١ - ص ٤ - ٣٦ : حسن حبشي : الشرق العربي بين شقي الرحى - القاهرة ١٩٤٩ - ص ١٠ وما بعدها . كما كشف الدكتور جمال الدين الشيال في مؤلفه : مصر والشام بين دولتين - القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٤٧ - ٨ و ٩٩ وما بعدها ، المعالم الواضحة والخطوط العريضة لهذه الفكرة ، عندما تناول قصة الاحداث التاريخية في مصر والشام بين عامي ٥٥٨ و ٥٦٩ هـ ، ابان تدهور الدولة الفاطمية وقيام الدولة الايوبية . وفي قصة التنافس بين كل من نور الدين سلطان حلب وأموري ملك بيت المقدس اللاتيني في الظفر بمصر ، وتوالى حملات كل منهما عليها ، تلك الحملات التي انتهت بهزيمة الافرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه في ربيع الآخر ٥٦٤ هـ . انظر ايضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية - ج ٢ - ص ٦٧٩ وما بعدها . كذلك تناول هذه الفكرة بالدراسة والبحث استاذنا الدكتور جمال الدين الشيال في دراساته التحليلية المقارنة للوثيقة رقم ١٩ ضمن مجموعة الوثائق الفاطمية ، وهي خاصة بتولية ابن شاور نيابة الوزارة عن ابيه . انظر مجموعة الوثائق الفاطمية - ج ١ - ص ١٦١ - ١٧٠ . ومن المؤرخين الغربيين الحديثين الذين تعرضوا لهذه الفكرة في شيء من التفصيل والتحليل ، جوستاف شلومبرجيه في كتابه الخاص بحملات اموري الاول ملك بيت المقدس ضد مصر . انظر :

G. Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jérusalem en Egypte au XIIe. siècle, Paris, 1906.

العلماء ورسائل الحكام مؤيدة بآيات من كتاب الله تهجد العدو وتنذره بسوء الخاتمة « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ، و « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » وآيات تستنهض عزائم العرب ان يحملوا اعباء الجهاد دفاعا عن مقدساتهم ، « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون » • وآيات تبشر بالنصر وتؤكد « الا ان نصر الله قريب » ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » (١) •

وقصارى القول ان مصر هي التي تصدت لقتال الصليبيين والمغول ، ودونت بجهادها ضدهم صفحة مجيدة في تاريخها • وهي التي طردت الفرنج آخر الامر من الشريط الساحلى الضيق الذى كانوا يستعمرونه بالساحل الشامى ، ومن الجزر البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط • وقامت بدور لا ينكر فى تكتيل القوى العربية لمواجهة هذا العدوان • ثم هى التى حملت لواء الزعامة ابانه ، وتحمل شعبها الكثير من الاعباء فى صده سواء أكان موجها ضدها مباشرة مثل حملة كل من جان دى بريين ولويس التاسع ، أو ضد غيرها من البلدان العربية كالحملة الثالثة (١) • وان دل هذا على شئ فانما يدل على ما كانت تتمتع به مصر فى العصر الاسلامى الوسيط من مكانة وقوة وبأس •

سابعاً : وهناك حقيقة جوهرية ترتبط بسابقتها ، وهى ان الحملات الصليبية التى تعرض لها الشرق الأدنى الاسلامى ، كشفت عن ضرورة

(١) نجد امثلة عديدة على ذلك فى ابن واصل : مفرج الكروب - ج٢ - لوحة ٣٦٤ ب (النسخة المصورة) ؛ المقرئى : الخطط - ج١ - ص ٢٢٠ ؛ والسلوك - ج١ قسم ٢ - ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة - ج٦ - ص ٢٦٧ • والمصادر العربية بصفة عامة زاخرة بالادلة على ذلك • انظر ايضا جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل - القاهرة ١٩٦٠ - ص ٣٥ و ١١٧ •

الاهتمام بأمر للجيش ليصبح قوة رادعة ، وبالاسطول كذلك حيث تمتد الشواطئ العربية لمسافات طويلة * لقد حتم عليها موقعها الجغرافي والاستراتيجي واطماع الغزاة فيها ، الاهتمام الزائد بتدعيم قواتها البرية والبحرية (١) *

وجدير بالذكر ان المصادر العربية في العصر الاسلامي تعرضت للجيش والاسطول في العهدين الايوبي والملوكي ، وأولتهما الكثير من العناية * ويرجع ذلك الى ان هاتين الدولتين قامتتا على فكرة الجهاد ضد الغزاة * فهما دولتان محاربتان جاءتا لطرد الصليبيين وغيرهم من الدخلاء من المنطقة العربية ، وضربتا اروع الامثال التي سجلها التاريخ المصري الوسيط في الكفاح ضد المغيرين *

وهذا يفسر سر اهتمام الايوبيين والمماليك بأمر الجيش الذي كان يعتبر من افضل جيوش العصر الوسيط في الشرق والغرب اعدادا وتنظيما وتدريباً وتسليحاً * (٢) اذ نعرف انه كان يتألف من فرسان ومشاة ، ويتكون من طوائف وفرق وطبقات ، فضلا عن جماعات المتطوعة والعربان والمرتزة * (٣) وكان هذا الجيش مجهزا بكل ما انتجه العصر الوسيط من اسلحة ومعدات ، اهمها السيوف والسهام والرماح والنشاب والدبابيس والقسي والدروع والمقاريس ومكاحل البارود وقوارير النفط والسقائر

(١) تمتاز اوراق البردي العربية باهميتها الكبرى في دراسة للتاريخ الاسلامي والحياة الاجتماعية ونظم الحكم والادارة * ويهمننا انها تضم عددا من الوثائق التي تسلط الضوء على نظام الجيش والاسطول * انظر عن ذلك جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - ج ١ - ص ٣ - ٤ - وص ٣ ح ١ *

(٢) انظر القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا - ج ٤ - ص ١١ - ١٦ *

(٣) انظر القلقشندي : المرجع السابق - ج ٤ - ص ١٤ وما بعدها ؛ ابن منكلى : كتاب الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية - نسخة بالتصوير الشمسي بمكتبة كلية آداب الاسكندرية - لوحة ٧٧ *

والنيران الاغريقية (١) . وكان المحاربون المصريون يستخدمون هذه الاسلحة في قتالهم مع اعدائهم الصليبيين ، كما كانوا على علم بها قبل ان يستخدمها الغربيون انفسهم . وكانت مصر تنفق على جيشها هذا بسخاء ، مع بناء الحصون والقلاع والاستحكامات ودور حفظ السلاح اللازمة له ، وصيانتها وتزويدها بما يلزمها من العدد والرجال والعقاد (٢) .

واما البحرية فقد وجه لها المصريون ايام العدوان الصليبي عناية خاصة لعلمهم انها من اهم وسائل الدفاع عن البلاد ضد المغيرين عليها وضد الغزوات المفاجئة التي كانت الموانىء والمياه العربية تتعرض لها بين وقت وآخر . (٣) وكان الاسطول المصرى يتكون من قطع مختلفة فى اشكالها

(١) القلقشندى : نفس المرجع - ج ٢ - ص ١٣٥ وما بعدها وج ٤ ص ١١ وما بعدها ؛ ابن ممتى : كتاب قوانين الدواوين - القاهرة ١٩٤٣ - ص ٣٥٤ ؛ ابن منكلى : الاحكام المملوكية - لوحة ٨ - ٩ و ٢٣ وما بعدها . راجع ايضا :

C. Cahen, «Un traité d'armurerie composé pour Saladin,» Bulletin d'Etudes Orientales, XII, 1947 - 1948, 15 ff.; Oman Hist. of the Art of War, II, 46 ff.

(٢) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب - نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف - ج ٢٧ - لوحة ٩٢ . راجع ايضا الدكتور نظير حسان سعداوى : جيش مصر فى ايام صلاح الدين - القاهرة ١٩٥٩ .

(٣) تلقى المصادر الاسلامية الاضواء على ذلك . اذ تذكر انه عندما كانت الموانىء المصرية او الشامية تتعرض لعدوان صليبي كانت مصر تبادر باعداد السفن وتجهيزها وارسالها على وجه السرعة الى الجهات المعرضة للخطر لمنع الاعداء من النزول فيها او احتلالها . نجد امثلة لذلك فى ابن واصل : مفرج الكروب - للنسخة الخطية المصورة - ج ٢ - لوحة ١٣٥٦ و ١٣٦٨ ؛ النويرى : نهاية الارب - للنسخة الخطية المصورة - ج ٢٧ - لوحة ٩١ - ٩٢ ؛ المقرئى : السلوك - ج ١ قسم ٢ - ص ٥٨٧ - ٥٨٨ .

واحجامها واسمائها والاغراض التى تستخدم من اجلها ، واهمها الشوانى والحراريق والمسطحات والبطس والطرائد والمهمات والغربان • وكان بعضها يستخدم لنقل المقاتلين كالشوانى ، وكان البعض الآخر كالحراريق يستخدم لنقل الاسلحة النارية المعروفة ومقتذاك ، والبعض لحمل الخبل كاترأند ، والبعض لحمل الميرة والسلاح كالمهمات ، وهكذا (١) •

والامر الهام هنا ان العناية الفائقة التى وجهتها مصر فى عصور النوبة والتماسك الى الجيش والاسطول كان لها ما يبررها • وقد اوحى هذا اليها بالبراعة والخلق والابداع فى شئون الحرب والقتال ضمانا للتفوق العسكرى وحفاظا على أمن المنطقة العربية وسلامتها • وعلى هذا يمكن القول ان هناك صلة وثيقة بين مركز مصر الجغرافى والاستراتيجى والغزوات التى تعرضت لها هى وغيرها من دول الشرق الاذنى العربى ، وبين حتمية وجود قوة ضاربة متفوقة • وكانت هذه القوة - فى الواقع - هى حصن للدفاع الاول عن مصر وبلدان الشرق العربى ضد المعتدين ، واليها يرجع الفضل فيما لحق بالصليبيين والمغول من هزائم وويلات •

ثامنا : ان الحديث عن حركات اليقظة والافاقة العربية ودور مصر الايجابى فيها بفضل جيشها وبحريتها فى العصر الاسلامى ، يقودنا الى مسألة اخرى جوهرية تؤكدنا الاحداث التى كانت المنطقة مسرحا

(١) فيما يتعلق بقطع الاسطول المصرى فى العهد الايوبى ، انظر ابن ممتى : كتاب قوانين الدواوين - ص ٣٣٩ وما بعدها • راجع المقرئى : الخطط - ج ٢ - ص ١٩٤ - ١٩٥ ؛ للسلوك - ج ١ قسم ٢ - ص ٣٣٩ ح ١ • ومن المراجع الحديثة ، أنظر عبد الفتاح عباده : سفن الاسطول الاسلامى وانواعها ومعداتنا فى الاسلام - القاهرة ١٩١٣ ص ٤ وما بعدها ؛ ميخائيل عواد : الماصر فى بلاد الروم والاسلام - بغداد ١٩٤٨ - ص ٦٦ ح ٤ •

لها . وهي ان فكرة توحيد الجبهة العربية في كيان متكامل غير منقسم ووحدة واحدة لا تتجزأ ، تعتبر مرحلة هامة اساسية من مراحل جهاد العرب ضد المغيرين . ذلك ان الوطن العربي عندما كان منقسما على نفسه في بداية العدوان الصليبي ، لم يكن بوسع اطلاقا الوقوف في وجه الصليبيين ، أو احراز أى نصر حاسم عليهم . وأن كل الحملات التي قامت ضد الدخيل كانت حملات ضعيفة لم يقدر لها النجاح بسبب الانقسامات . ولكن عندما تكتل العرب ، وواجهوا العدو صفا واحدا ، واخيرا وطننا واحدا ، سهل عليهم احراز النصر النهائي عليه .

وهذه ظاهرة دورية عامة في تاريخ العروبة والاسلام منذ الفتح وحتى يومنا هذا . وقد اثبتت الاحداث انه ضمانا للنصر الحاسم الاكيد ، يجب ان تسبق عملية الجهاد الاكبر عملية اخرى لا تقل عنها خطرا وشأنا الا وهي عملية توحيد الجبهة العربية ، فهي مرحلة ضرورية من مراحل هذا الجهاد . الدليل على ذلك ان صلاح الدين ، ومن قبله نور الدين محمود ، لم يقوموا بجهادهما المعروف ضد الفرنج الا بعد تأمين الجبهة العربية وتوحيدها . وفي ذلك يقول ولیم ستيفنسون V. Stevenson في كتابه « الصليبيون في الشرق » ، ان السياسة العامة التي صار عليها الزعماء والحكام العرب هي الامتناع قدر الاستطاعة عن مهاجمة الامارات اللاتينية بالشرق ، أو المغامرة في حرب خطيرة مع اللاتين في الوقت الذي كانوا يؤسسون فيه دولتهم (١) . وان كان

Stevenson, Crusaders in the East, 723 - 4.

(١)

انظر ايضا جمال الدين الشيبان : وحدة مصر وسوريا - ص ١٩ . وفي هذا يقول الدكتور جمال الدين الشيبان « ولم يكن صلاح الدين يستطيع القضاء على مملكة بيت المقدس اذا كان حاكما لمصر وحدها ، أو حاكما لسوريا وحدها . وانما هو نجح في القضاء عليها عندما دخل المعركة حاكما واحدا لدولة واحدة ، وكقائد واحد لجيش واحد ، يرفرف عليه علم واحد » انظر : وحدة مصر وسورية - ص ٢٠ .

هذا لا يمنع من القول انه كان يحدث فى بعض الاحيان أن تسبق عملية الجهاد المقدس عملية توحيد الجبهة ، أو أن تسير العمليتان جنبا الى جنب ، وذلك عندما يجد العرب انفسهم - نتيجة لظروف خارجة عن ارادتهم - مضطرين للاحتكاك باعدائهم . وكانت مثل هذه المصادمات أو المناوشات غير حاسمة أو قاطعة . والخلاصة أن العرب خرجوا من كفاحهم مع الفرنج بدرس ينحصر فى أن عملية تكتيل القوى العربية مرحلة أساسية لا غنى عنها يجب أن تسبق مرحلة الجهاد العسكرى ضد العدو ضمانا لنجاحه .

تاسعا : لقد أوضحت الازمات التى تعرض لها العالم العربى فى العصر الاسلامى أن الشعوب العربية لم تكن بمعزل عما كان يجرى حولها من أحداث وتقلبات . فقد أثبتت وعيا كبيرا وفهما عميقا لمجريات اذمور والاحوال ، وأكدت وجودها وشخصيتها حتى فى عصور الضعف والتفكك . لقد أدت المقاومة الشعبية داخل الوطن العربى دورها كاملا الى جانب القوات النظامية فى الذود عن حياض الوطن . وآية ذلك المواقف المشرفة التى وقفها الشعب العربى فى مصر جنبا الى جنب مع جيشه فى الدفاع عن بلاده ضد ملك الفرنسيين لويس التاسع فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، مما سهل على الجيش مهمة الاجهاز على قوات العدوان (١) .

وثمة مسألة اخرى وهى ان اللاتين عندما كانوا يهاجمون احدى الدول العربية ، كانت الشعوب العربية تهب من كل مكان للانتقام منهم والاغارة على مستعمراتهم بالاراضى المقدسة . وتروى المراجع أن مصر

(١) انظر عن ذلك ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب - (النسخة المصورة) - ج٢ - لوحة ١٣٦٦ ؛ المقرئى : الخطط - ج١ - ص ٢٢١ ؛ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - ج١ قسم ٢ - ص ٣٥٠ . راجع أيضا : Joinville, op. cit., 120; Rotheln, op. cit., 605.

عندما كانت تتعرض لعدوان صليبي ، يبادر الشعب السوري بالهجوم على معاقل اللاتين بالساحل الشامى ، وذلك بقصد مضايقتهم ومحاولة صرفهم عما هم قادمون عليه . وكان هذا هو نفس ما يحدث عندما تتعرض بلاد الشام لعدوان غربى ، فيبادر المصريون بمساندة اخوانهم فى الشمال ضد العدو المشترك (١) .

وغير خاف أنه وجد كذلك ارتباط روحى قوى بين العرب فى المشرق والمغرب خلال تلك الحقبة من الزمن . فبينما كان الاولون يجاهدون ضد الفرنج فى شرقى البحر المتوسط ، كان اخوانهم المغاربة يجاهدون هم ايضا ضد الاوروبيين فى غربى ذلك البحر (٢) .

(١) نجد امثلة لذلك فى الكتب التالية ابن واصل : مفرج الكروب (النسخة الخطية المصورة) ج٢ - لوحة ٣٥٧ ب ؛ المقرئى : السلوك ج١ قسم ٢ - ص ٢٣٧ ، أنظر ايضا الحقائق التاريخية الهامة المتعلقة بوحدة مصر وسوريا فى العصر الاسلامى ، والتي أشار إليها الدكتور جمال الدين الشيال فى مستهل محاضراته « وحدة مصر وسوريا فى العصر الاسلامى » - ص ٣ و ٩ راجع :
G. Wiet, Histoire de la Nation Egyptienne, IV, Paris, 1937, 379.

(٢) أنظر سعد زغول عبد الحميد « العلاقة بين صلاح الدين وابى يوسف يعقوب » - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - المجلدان السادس والسابع - الاسكندرية ١٩٥٢ - ١٩٥٣ - ص ٨٤ وما بعدها . وفيما يتعلق بالصراع الدائر فى المغرب العربى بين المسلمين والمسيحيين فى القرن العاشر الميلادى ، أنظر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس - بيروت ١٩٦٣ - ص ٢٨٩ - ٢٩١ و ٣٣١ - ٣٣٢ . كما استعرض الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه : المغرب الكبير - الجزء الثانى : العصر الاسلامى - الاسكندرية ١٩٦٦ ، جهاد المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ضد الممالك =

وقد لعب المغرب في العصر الاسلامي الوسيط دوره في الجهاد ضد الصليبيين . فبالاضافة الى اسهامه في الجهاد في الاندلس ضد الممالك المسيحية في شمال البرتغال في عصر المرابطين والموحدين ، وفيما بعد في عصر بني نصر ، وهو جهاد لم ينقطع خلال القرون السادس والسابع والثامن للهجرة (القرون ١٢ - ١٤ م) ، وذلك على الرغم من مؤامرات سلاطين غرناطة واتفاقهم مع القشتاليين ضد بني مرين - بالاضافة الى ما تقدم فان المغرب العربي ساهم ايضا في مدافعة الصليبيين الغربيين في مصر والشام ، وبخاصة ابان لتكفل العربي في منطقة الشرق الادنى الذي يتضح في عصر صلاح الدين الايوبي (١) .

فكل هذا يعبر في الواقع عن وحدة متينة ، ربط فيها الجهاد ضد العدو المشترك بين العرب جميعا من المحيط الى الخليج .

= النصرانية في اسبانيا . انظر صفحات ٧١٨ - ٧٣٨ و ٧٩٨ - ٨٠١ و ٨٠٥ - ٨١٥ و ٨١٩ - ٨٢٨ من الكتاب المذكور . راجع ايضا ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس - ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي - القاهرة ١٩٥٦ - ص ١٢٠ وما بعدها وص ٢٤٥ ؛ وكذلك محمد العروسي المطوي : الحرب الصليبية في المشرق والمغرب - تونس ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م ص ١٣٥ وما بعدها .

انظر ايضا Painter, op. cit., 191 ff.

(١) انظر الخطابات المرسلة من صلاح الدين الى ملك المغرب يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن ، والى رسوله لدى الملك المذكور سيف الدولة ابن منقذ ، في كتاب ابن واصل : مفرج الكروب - نشر الدكتور جمال الدين الشيال - ج ٢ - ص ٤٩٦ - ٥١٧ . راجع ايضا مقال الدكتور السيد عبد العزيز سالم وعنوانه « الصلات التاريخية بين مصر والشام في العصر الاسلامي » - مجلة العلوم - بيروت - مارس ١٩٦٢ . يرجع ايضا الى ارجح الواردة بالهامشية السابقة .

عاشرا : تقودنا الآراء والنقاط السابقة الى نتيجة اخيرة تتعلق بفكرة الوحدة العربية المتكاملة ، وعما اذا كانت مثل هذه الهزات العنيفة التي كان العالم العربي في العصر الاسلامي يتعرض لها بين وقت وآخر هي السبب في خلقها ، أم أنها كانت أعمق من ذلك بكثير ، وأن تلك الهزات كانت مجرد عامل ساعد على ايقاظها وبعثها من مرقدتها ، أو بكلمة أخرى أيهما أسبق الوحدة أم اليقظة ؟

تعرض لهذا الموضوع بعض الكتاب الحديثين ، نذكر منهم جوستاف فون جروننباوم G. Von Grunebaum ، وكلود كاهن C. Cahen (١) . وخلاصة رأيهما ان الخطر الصليبي لم يكن الدافع الاساسي لحركة الوحدة العربية ، التي يمكن ارجاع أصولها الى ما قبل قيام الحركة الصليبية نفسها بفترة غير قصيرة . كما ذكرا ان الاستعمار الغربي لم يهدد اطلاقا قلب العالم العربي ولم يستطع بالرغم من كل شيء ان ينفذ الى صميمه . وهذه حقيقة واضحة . فلم يستطع الصليبيون في أقصى تقدم لهم ، بل لم يستطيعوا على الاطلاق التوغل في قلب العالم العربي ، ولم يصلوا بالمرّة الى مدن مثل القاهرة او دمشق او بغداد أو حلب أو الموصل . وكل ما أمكنهم الاستحواذ عليه ، شريط ضيق مستطيل على امتداد الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كان ينكمش ويمتد تبعا للظروف والاحوال في كلا العالمين الغربي والعربي . فضلا عن بعض الجزر البحرية التي كان اللاتين يتحصنون بها ، ويشنون منها عدوانهم على بلدان الشرق الأدنى . وكان يهيم الفرنج الاستحواذ على المناطق الساحلية بصفة خاصة حتى يكونوا على مقربة من ديارهم بالغرب اذا دعا داعي الهرب .

(١) أنظر جروننباوم (جوستاف فون) : حضارة الاسلام - ترجمة عبد العزيز جاويد - القاهرة ١٩٥٦ - ص ٥٠ و ٥٢ ، وكذلك C. Cahen, La Syrie du Nord a l'époque des croisades, Paris, 1940, 374 — 377.

وكيفما كان الامر ، فان جرونيباوم وكاهن ، وان لم يبقا برأى نهائى فى هذا الموضوع ، الا أن أحدث البحوث التاريخية والاثريّة اثبتت وجود الوحدة العربية منذ ان وجد العرب ، وذلك فى ناحية هامة من نواحي الحضارة العربية ، ونعنى بها الفنون التى تعتبر مرآة صادقة تنعكس عليها آمال الشعوب ومثلهم ومبادئهم وأفكارهم ومنهاجهم فى الحياة (١) . واذا تتبعنا هذه النظرية فى شتى مناحي الحضارة والحياة عند العرب من المحيط الى الخليج ، نجد أنها نظرية أصيلة يؤيدها الواقع ، وتعتبر عن وحدة عضوية شاملة لها أصولها وجذورها وعناصرها منذ قرون عديدة مضت . وحدة فى اللغة ، وفى الاصل ، وفى الجنس ، وفى الارض ، وفى التاريخ . فضلا عن وحدة فى التقاليد والعادات والثقافة والنظم الاجتماعية (٢) . وحدة كانت تبعثها وتوقظها من غفوتها أحداث الزمان للوقوف أمام العدوان الاجنبى فى شتى صوره ومظاهره ، وفى مختلف عصوره ، وأيا كان مصدره (٣) . ومن حسن حظ المكتبة العربية أنها أصبحت الآن عامرة بالكتب والبحوث العلمية القيمة التى تتناول مقومات الوحدة العربية واسسها فى دراسة جادة واعية (٤) .

(١) أنظر عن ذلك أحدث فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) - القاهرة ١٩٦١ ص ٤٣ - ٤٩ .

(٢) Cf. B. Lewis, The Arabs in History, London, 1958, 6 - 13.

(٣) أنظر جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية - ص ٣ .

(٤) تناول الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى فى كتابه « الكيان العربى بين المقومات والامكانيات - بيروت ١٩٦٥ » ، بالدراسة والبحث والتعريف ، الكيان القومى العربى وأسس ومقوماته . أنظر أيضا المراجع المتعلقة بالقومية والوحدة العربية فى كتابى : العرب والروم واللاتين - ص ٢٤٦ ح ١ .

وعلى هذا يجب أن نفرق بين فكرة الوحدة العربية كحقيقة تاريخية لها أصولها وجذورها ومقوماتها ، وبين حركات اليقظة والافاقة التي كانت تنبعث عندما يستشعر العرب الخطر ، ويفيقون من سباتهم . فكان هذا ، بطبيعة الحال ، مما يذكر تلك الوحدة ويؤكد أصالتها ووجودها .

والعروبة تاريخ طويل مع الاستعمار حافل بالوان التضحية والجهاد والاستشهاد في سبيلها عن عقيدة وايمان . ولقد استمرت هذه الرابطة العربية المقدسة تؤدي دورها بنجاح تام ، وتدفع عن العروبة غائلة المعتدين ، وبخاصة عندما تشتد الازمات ويدق ناقوس الخطر . وكثيرا ما اثار هذا دعر الغزاة ، وأوقع الخبل والاضطراب في صفوفهم . فكانوا يتحينون الفرص للنيل منها والتشكيك فيها . كما كانوا يستخدمون سلاحهم المعروف ، سلاح الفرقة والايقاع وبذر بذور الخلاف بين ابناء الوطن العربي الواحد تحقيقا لاطماعهم واتجاهاتهم الاستعمارية . وكانت جهودهم في هذا السبيل تذهب في عصور القوة والتكتل العربي هباء منثورا (١) .

واخيرا ، وليس بآخر ، فان الآراء والاستنتاجات التي توصلنا اليها في هذه الدراسة التحليلية للعدوان الصليبي على الشرق الادنى العربي ليست مجرد صدفة . انما هي ظواهر طبيعية منطقية تنير السبيل امام الشعوب العربية في حاضرها ، وهي تستجمع قواها وتكتل جهودها من أجل مستقبل أفضل . وهي ايضا احكام وقواعد صحيحة ، أشبه بالقوانين العلمية التي لا تخطئ . فضلا عما فيها من عظات وعبر ودروس .

(١) تعرضنا بايجاز للاستنتاجات الثلاثة الاخيرة في كتاب العرب والروم واللاتين - ص ٢٤٢ وما بعدها .

ثم إن هذه الافكار يمكن ان تنبثق عنها آراء ونظريات أخرى جديدة .
تد تغير الكثير من الشائع المعروف عن الحركة الصليبية . وبعضها
لا يزال ينتظر دراسات دقيقة مستفيضة تسد نقصا في زاوية من زوايا
العدوان الصليبي لا يزال الغموض يكتنفها ، أو تعدل وجهة نظر في حاجة
إلى التصحيح والتصويب .

من هذه الافكار نذكر ، على سبيل التمثيل ، فكرة انتقال العدوان
الصليبي من الشام في الشمال الى الديار المصرية في الجنوب مبكرا في
القرن السادس الهجري وخلال القرن السابع الهجري (ق ١٢ - ١٣ م) ،
وفكرة الجهاد في الاسلام والحرب المقدسة عند المسيحيين الغربيين وأثر
الجهاد المقدس بالنسبة للعرب كقرض واجب الاداء في دفع العدوان
الصليبي عن اراضيهم ومقدساتهم ، وترابط مصالح الغربيين والمغول
في فترة من فترات العدوان الصليبي ضد العرب في الشرق الأدنى ،
وفكرة تغير توازن القوى في الصراع بين اللاتين والعرب ، مع بيان الاسباب
والمسببات المؤدية اليه والنتائج والآثار المترتبة عليه ، وفكرة مركز
الثقل بين شقى العالم وقتذاك وفلسفتها ، وما يتصل بها من التزام
سياسة معينة دفاعية كانت أم هجومية ، والفوارق الحقيقة بين الوحدة
واليقظة والتجمع العربى العادى ، وما يعنيه كل مصطلح من هذه
المصطلحات الثلاثة وايديولوجيته ، ثم دور الحركة الصليبية كحركة
توسعية استعمارية اتسمت بالبربرية والتعصب والعنف في انماء
الروح القومية عند العرب ضد الغزاة ، وموقف جزيرة قبرص عندما كانت
مصدر متاعب مصر وبقية دول الشرق العربى بسبب قربها منها من ناحية
وقربها من مراكز امداداتها بالغرب الاوروبى من ناحية اخرى . وكذلك
الصلة بين العدوان الصليبي الغربى وبين وجود قوة عربية ضاربة تحمى
مصر والشرق العربى وتضمن للعروبة الامن والسلامة ، ولماذا وجب أن
تكون القوات البرية في الاراضى العربية والقوات البحرية في المياه
العربية في حالة يقظة دائمة وتفوق واضح ، ثم دور الشعوب العربية

في المغرب الاسلامي في المساهمة في مدافعة العدوان الصليبي عن دول الشرق الأدنى . واخيرا دور القاهرة باعتبارها قلعة النضال والدرع الواقى للعالم العربى ضد أى عدوان خارجى يقع عليه .

كل فكرة من هذه الافكار يصح ان تكون نواة لدراسات تحليلية مستقلة تثمر بحوثا طيبة تضيف جديدا الى العلم والتاريخ والتراث الانسانى بوجه عام ، والى العرب والعروبة والمكتبة العربية بوجه خاص .

مصادر البحث ومراجعته

أولاً - المصادر الأصلية :

(١) المصادر العربية

ابن الاثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) أبو الحسن على بن
أبى الكرم الملقب عز الدين :

١ - منتخبات من كتاب « الكامل فى التاريخ » ، أنظر :
R.H.C. - H.Or., t. I, Paris, 1872 & t. II, le partie, Paris, 1887.

٢ - « تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل » ، أنظر :

R.H.C. - H.Or., t. II, 2e. partie, Paris, 1876, 5 - 375.

ابن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) أبو الفضل محمد :

الدار المنتخب فى تاريخ مملكة حلب - بيروت ١٩٠٩ .

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع
ابن تميم :

سيرة صلاح الدين « السيرة اليوسفية » المسماة بالنوادر
السلطانية والمحاسن اليوسفية - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين
السيال - القاهرة ١٩٦٤ .

ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) أبو للفلاح عبد الحى بن على
ابن محمد :

شخرات الذهب فى اخبار من ذهب - ٨ ج - القاهرة ١٣٥٠-١٣٥١ هـ .

ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد

على بن محمد :

ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ .

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو الفدا

اسماعيل بن عمر :

البداية والنهاية فى التاريخ - ١٤ ج - القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

ابن ممتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد :

كتاب قوانين الدواوين - القاهرة ١٩٤٣ م .

ابن منكلى (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ - ١٣٧٧ م) محمد بن منكلى :

كتاب الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى

البحر - نسخة بالتصوير الشمسى بمكتبة آداب الاسكندرية .

ابن واصل (٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن

سليم :

١ - مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب - ٢ ج - نسخة بالتصوير

الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥١٩ تاريخ .

٢ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - ٣ ج - (حتى سنة

٦١٥ هـ) - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة

١٩٥٣ - ١٩٦٠ .

ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر بن

مظفر بن عمر بن محمد :

تتمة المختصر فى أخبار البشر - ٢ ج - القاهرة ١٢٨٥ هـ .

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل :

تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على

الروضتين - القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

أبو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك عماد الدين أبو الفدا اسماعيل .

المختصر فى أخبار البشر - ٤ ج - استقانة ١٢٨٦ هـ .

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف

ابن تغرى بردى :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ج٦ - القاهرة ١٣٥٥هـ /
١٩٣٦م .

أبو الفرج (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) غريغوريوس أبو الفرج الملقب :
تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠ .
السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال
الدين :

حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة - ج٢ - القاهرة ١٣٢٧هـ .
عماد الدين الاصفهانى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) أبو عبد الله محمد
ابن صفى الدين :

الفتح القسى فى الفتح القدسى - القاهرة ١٣٢١هـ .
القلقشندى (٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله :
صبح الاعشى فى صناعة الانشا - ج١٤ - القاهرة ١٩١٣ -
١٩٢٠ .

الكتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاکر :
عيون التواريخ - نسخة بالتصوير الشمسى لمجد مكتوب عليه
انه الجزء العشرون ، وهو يبتدىء من سنة ٦٤٥هـ وينتهى الى سنة ٦٧٠هـ
- محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ .

المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد :
١ - المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - القاهرة ١٢٧٠هـ .
٢ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزءان الاول والثانى ،
كل فى ثلاثة أقسام (حتى سنة ٧٥٥هـ) - نشر وتحقيق الدكتور
محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .

٣ - كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة - نشر وتحقيق الدكتور جمال
الدين الشيبال والدكتور محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٤٠ .

- ٤ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - نشر وتحقيق
الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ •
النويرى (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد :
نهاية الارب فى فنون الادب - ٥٥ مجلدا - نسخة بالتصوير
الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة •

(ب) المصادر الأجنبية

- Albert d'Aix, Historia Hierosolimitana. Ed. R.H.C. - H.Occ., IV.
Paris, 1879. (pp. 265 - 713).
- Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart, trans. from the
Old French by M. J. Hubert. New York, 1941.
- Anna Comnena, The Alexiad. English Trans. by Elizabeth A. S.
Dawes. London, 1928.
- Baudri de Bourgueil, Historia Jerosolimitana. Ed. R.H.C. - H.Occ.,
IV. Paris, 1879. (pp. - 111).
- Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre
d'Outremer. Ed. R.H.C. - H.Occ., t. II. Paris, 1859. (pp. 1 -
181).
- Foucher de Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium.
Ed. R.H.C. - H.Occ., III. Paris, 1866. (pp. 311 - 485).
- Grégoire le Prêtre, Chronique. Ed. R.H.C. - Doc. Arm., I. Paris,
1869 (pp. 151 - 201).
- Guibert de Nogent, Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos.
Ed. R.H.C. - H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 113 - 263).
- Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum.
Ed. R.H.C. - H.Occ., t. I, 2e. partie. Paris, 1844. (pp. 1 -
1134).

Hagenmeyer, H. (ed.), *Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes*, 1901.

Jean de Joinville, *Histoire de Saint Louis*. Ed. M. N. de Wailly. Paris, 1874.

Matthieu d'Edesse, *Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse*. Ed. R.H.C. - Doc. Arm., t. I. Paris, 1869. (pp. 1 - 180).

Raimond d'Agiles, *Historia Francorum que ceperunt Iherusalem*. Ed. R.H.C. - H.Occ., III. Paris, 1866. (pp. 231 - 307).

Robert le Moine, *Historia Iherosolimitana*. Ed. R.H.C. - H.Occ., III, Paris, 1866. (pp. 717 - 882).

Rothelin, *Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229 - 1261)*. Ed. R.H.C. - H.Occ., II. Paris, 1859. (pp. 489 - 639).

Vartan le Grand, *Extrait de l'histoire universelle*. Ed. R.H.C. - Doc. Arm., I. Paris, 1869. (pp. 431 - 443).

ثانياً - المراجع الحديثة :

(أ) المراجع العربية والمعرّبة

أحمد فكرى (دكتور) : مساجد القاهرة ومدارسها (المجلد ١) - القاهرة ١٩٦١ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

١ - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة - بيروت - ١٩٦٣ .

٢ - المغرب الكبير - الجزء الثانى : العصر الاسلامى - الاسكندرية ١٩٦٦ .

٣ - الصلات التاريخية بين مصر والشام فى العصر الاسلامى - مقال بمجلة العلوم ببيروت - عدد مارس ١٩٦٢ .

باركر (ارنست) : الحروب الصليبية - ترجمة الدكتور السيد
الباز الغرينى - القاهرة ١٩٦٠ •

بروفنسال (ليفى) . الاسلام فى المغرب والاندلس - ترجمة
الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى -
القاهرة ١٩٥٦ •

جرونيباوم (جوستاف فون) : حضارة الاسلام - ترجمة عبد
العزيز توفيق جاويد - القاهرة ١٩٥٦ •

جمال الدين الشيال (دكتور) :

١ - مصر والشام بين دولتين - القاهرة ١٩٤٧ •

٢ - مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا - الاسكندرية ١٩٤٩ •

٣ - الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى
الوقت الحاضر - القاهرة ١٩٥٢ •

٤ - وحدة مصر وسورية فى العصر الاسلامى - المحاضرة الثانية من
المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية فى العام الجامعى ٥٧ /
١٩٥٨ - الاسكندرية ١٩٥٨ •

٥ - مجموعة الوثائق الفاطمية - الجزء الاول : وثائق الخلافة والوزارة -
الطبعة الثانية - الاسكندرية ١٩٦٥ •

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ - العنوان الصليبي على بلاد الشام - ط • خامسة - الاسكندرية
١٩٨٤ •

٢ - هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل - القاهرة ١٩٦٠ •

٣ - العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى - ط • رابعة -
الاسكندرية ١٩٨٣ •

٤ - الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية - مقال بمجلة كلية
الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - السنة ١٩٦٣/٦٢ -
الاسكندرية ١٩٦٣ - (ص ١٨٣ - ٢١١) •

حسن حبشنى (دكتور) :

- ١ - الحرب الصليبية الاولى - القاهرة ١٩٤٧ •
- ٢ - نور الدين والصليبيون - القاهرة ١٩٤٨ •
- ٣ - الشرق العربى بين شقى الرعى « حملة القديس لويى على مصر والشام » - القاهرة ١٩٤٩ •

ديفز (هـ و •) : أوروبا فى العصور الوسطى - ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود - الاسكندرية ١٩٥٨ •

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور يوسف بن عبد المؤمن الموحدى - مقال بمجلة كنية الآداب بجامعة الاسكندرية - المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ - ١٩٥٣) - الاسكندرية ١٩٥٣ • (ص ٨٤ - ١٠٠) •

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

- ١ - قبرس والحروب الصليبية - القاهرة ١٩٥٧ •
- ٢ - الحركة الصليبية - صفحة مشرفة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى - جزاءن - القاهرة ١٩٦٣ •
- عارف باشا العارف : تاريخ للقدس - القاهرة ١٩٥١ •
- عبد الفتاح عباده : سفن الاسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتھا فى الاسلام - القاهرة ١٩١٣ •

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

- ١ - للناصر صلاح الدين الايوبى - القاهرة ١٩٥٨ •
- ٢ - العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى - بيروت ١٩٦٦ •

عمر كمال توفيق (دكتور)

- ١ - مملكة بيت المقدس الصليبية - الاسكندرية ١٩٥٨ •
- ٢ - الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة (٩٦٣ - ٩٦٩ م) - الاسكندرية ١٩٥٩ •

كلارى (ر) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين - ترجمة
وتقديم الدكتور حسن حبشى - القاهرة ١٩٦٤ •

كوبلاند (ج*و) (وفينوجرادوف (ب) : الاقطاع والعصور
الوسطى فى غرب أوروبا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زياده -
القاهرة ١٩٥٨ •

كولتوف (ج*ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة -
ترجمة وتعليق د • جوزيف نسيم يوسف - ط • رابعة - الاسكندرية
١٩٨٣ •

لطفى عبد الوهاب يحيى (دكتور) : الكيان العربى بين المقومات
والامكانيات - بيروت ١٩٦٥ •

محمد مصطفى زياده (دكتور) : حملة لويس التاسع على مصر
وهزيمته فى المنصورة - القاهرة ١٩٦١ •

ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام - بغداد ١٩٤٨م •

هارتمان (ل*م) (وباراكلاف) (ج) : الدولة والامبراطورية فى
العصور الوسطى - ترجمة وتعليق د • جوزيف نسيم يوسف - ط •
رابعة - الاسكندرية ١٩٨٤ •

(ب) المراجع الأجنبية

Atiya, A. S.,

1 — The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

2 — Crusade, Commerce and Culture. Bloomington. 1962.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Bréhier, L., L'Eglise et l'Orient au moyen âge. Paris, 1928.

Cahen, C.,

1 — La Syrie du Nord a l'époque des Croisades. Paris, 1940.

2 — Un traité d'armurerie composé pour Saladin, Bulletin
d'Etudes Orientales, t. XII, 1947 - 1948.

Calmette, J., *Le Monde Féodal*. Paris, 1937.

Cantor, N. F. (ed.), *The Medieval World: 300 - 1300*. New York, 1963.

Gabrieli, F., *Les Arabes (Gli Arabi)*. Traduit de l'italien par Marie de Wasmer. Paris. 1963.

Grousset, R.,

1 — *Histoire des Croisades*. 3 vols. Paris, 1948.

2 — *The Sum of History*. Oxford, 1951.

Hamdy, A. H.,

1 — «The Western Attitude to Islam as Viewed by Arnold of Lübeck,» *Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University*, Vol. X, Dec. 1956, Alexandria, 1956 (pp. 77 - 84).

2 — «Philippe de Mézières and the New Order of the Passion,» *Bulletin of the Faculty of Arts. Alexandria University*. Part I, Vol. XVII - 1963, Alexandria, 1964, (pp. 45 - 56); Part II, Vol. XVIII - 1964, Alexandria, 1964, (pp. 1 - 41).

Hitti, P. K., *History of the Arabs from the Earliest Times to the Present*. London, 1964.

Katz, S., *The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe*. New York, 1960.

LaMonte, J. L., *The World of the Middle Ages*. New York, 1949.

Lane - Poole, St.,

1 — *The Story of Cairo*. London, 1924.

2 — *A History of Egypt in the Middle Ages*. London, 1936.

Lewis, B., *The Arabs in History*. London. 1958.

Lot, F., *Les Invasions Barbares*. Paris, 1942.

Masson, G., *Medieval France*. London, 1888.

Oman, Ch., *A History of the Art of War in the Middle Ages*.
2. Vols. London, 1924.

Painter, S., *A History of the Middle Ages: 284 - 1500*. London,
1966.

Pirenne, H.,

1 — *Medieval Cities*. Trans. from the French by F. D. Halsey.
Princeton, 1948.

2 — *Economic and Social History of Medieval Europe*.
London, 1961.

Pirenne, J., *Les Grands Courants de l'Histoire Universelle*. T. II:
de l'Expansion Musulmane aux Traités de Westphalie.
Neuchatel, 1947.

Riant, P., *Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades*. Ed. A. O. L., I. Paris, 1881 (pp. 1 - 224).

Runciman, S., *A History of the Crusades*. 3 vols. Cambridge, 1954 -
5.

Setton, K. M. (ed.), *A History of the Crusades*. Vol. I : *The First
Hundred Years*, ed. by M. W. Baldwin. Philadelphia, 1958.

Stevenson, W., *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.

Sullivan, R. E., *Heirs of the Roman Empire*. New York, 1960.

Trevelyan, G., *A Shortened History of England*. Aylesbury, 1960.

Wiet, G., *Histoire de la Nation Egyptienne*. t. IV: *l'Egypte Arabe
de la conquête Arabe a la conquête Ottoman*. Paris. 1937.

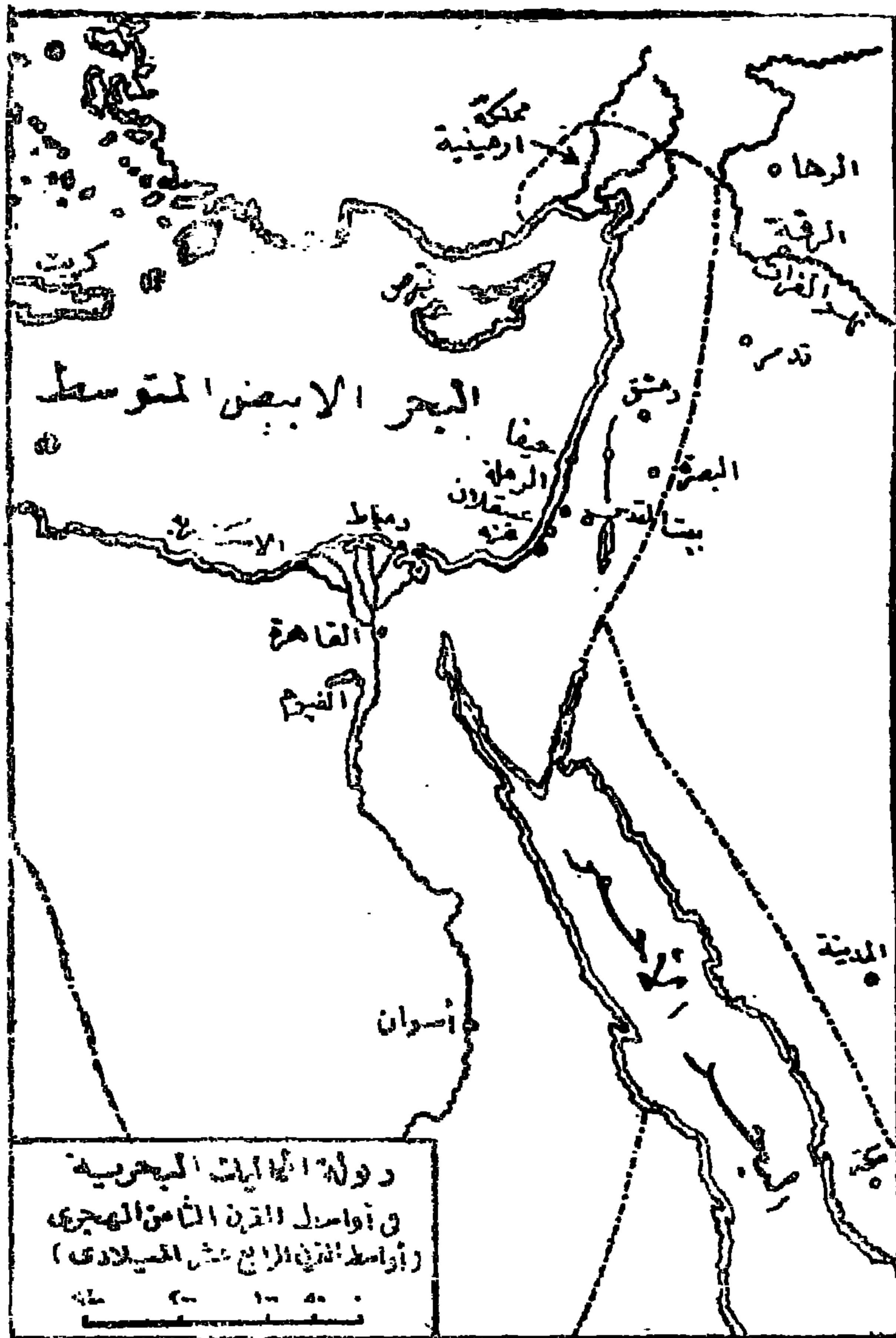
بيان بالمختصرات

- A.O.L. — Les Archives de l'Orient Latin.
- R.H.C. - Doc. Arm. — Recueil des Historiens des Croisades.
Documents Armeniens.
- R.H.C. - H.Occ. — Recueil des Historiens des Croisades.
Historiens Occidentaux.
- R.H.C. — H.Or. — Recueil des Historiens des Croisades.
Historiens Orientaux.

الخرائط

- خريطة رقم ١ دولة المماليك البحرية في أواسط القرن الثامن الهجري
(أواسط ق ١٤م)
- خريطة رقم ٢ المستعمرات اللاتينية في الشرق الأدنى العربي أبان
العدوان الصليبي

خريطة رقم ١



فهرس أبجدی عام

(١)

- ابن العماد الكاتب ٢١٥
 ابن القلانسي ١٤٩ ، ٢١٣ ، ٢١٥
 ابن كثير ٢١٥
 ابن منقذ ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٤٩
 ابن هشام ١٤ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥
 ابن واصل ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 ابن الوردى ١٤٩ ، ٢١٥
 ابني (موقع) ٧٣ ح ٧٩ - أنظر يبنى
 ابو الأعور ٣٤
 ابو بكر الصديق ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧١ ح ٦٧
 ٧٤ ح ٨٦
 ابو الزهراء القشيري ٣٤
 ابو سفيان ١٧ - ١٨ ، ٢٥
 ابو شامة ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 ابو عبيدة بن الجراح ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٤
 ابو الفدا ١٢٥ ، ١٣٣ ، ٢١٥
 ابو يحيى البطريق ١٢٣
 اجنادين (موقع) ٣١ - وقعة ٣١
 - ٣٢ ، ٤٣ ، ٧٦ ح ١٠٠
 احمد فكري (مكتور) ١٠٩
 الاخشيديون ١٦٩
 الادريسي ١٣٣ ، ١٣٤
 أخرح (موقع) ٢٣ ، ٧٢ ح ٧٣
- الله ١١ ، ٥٣ ، ٦٤ ح ٢٦ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ح ٢٤٦ ، ٢
 ابن الأثير ١٤٩
 ابن اسحاق ٢٥
 ابن أم مكتوم ٢٣
 ابن أبيك ١٤٩
 ابن بطوطة ١٣٣
 ابن تغرى بردى ١٤٩
 ابن جبير ١٣٣
 ابن الجوزي ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 ابن خرداذبة ١٣٣ ، ١٣٤
 ابن خلدون ١٤٩
 ابن الجوزي ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 ابن خياط ١٤
 ابن دقماق ١٤٩
 ابن رسته ١٣٤
 ابن رشد (تلامذة) ١٢٥
 ابن سعد ١٤ ، ١٥٠
 ابن شاهين ١٣٣
 ابن شداد ١٤٩
 ابن عبد البر ١٤

- أذريعات أو أفرعات ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٨٣ ح ٨٢
 لراجون (مملكة) ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٥٩ ، ١٧٩
 الأراضي المقدسة ٥٦ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ح ٢٥١ ، ٢٤٣ ، ٢٤١ ، ١
 أربان الثاني (البابا) ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٦ ح ١
 الأردن ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ — نهر ٣٧ ، ١٧٣
 أرزق (موقع) ٣٩
 إرسطو ١١٩ ، ١٢٤
 أرم (جبل) ٦٣ ح ٢٤
 الأرمن ٣٦
 أرمنية ٥٧ ، ١٨٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ح ١
 أرنولد (المؤرخ توماس) ٩٨
 أرنولد أوف ليبك (داعية لاتيني) ٢١٠ ح ١
 الأريوسية (الهوطقة) ١٦١ ، ١٧٦ — أنظر أريوس
- أزمير ١٨٣
 أساطير (في العصر الوسيط) ١١٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٨٧
 أسامة بن زيد بن حارثة ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٧٣ ح ٧٩ — حملته إلى البلقاء وأفرعات والداروم ومؤته في ١١ هـ ٢٧ — ٢٩
 إسبانيا ٨ ، ٥٥ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١٣١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ح ١
 الإسبانية (اللغة) ١٣١
 الإسبتارية (جماعة الفرسان) ٢٢٣
 استروجورسكي (المؤرخ جورج) ٩
 الاستعمار ٩٥ ، ٩٨ ، ٢٥٧ — أنظر الحروب الصليبية
 أسد الدين شيركوه ٢٤٥ ح ١
 الأسراء والمعراج ١٣١
 أسيرة جستنيان ٧ — ٨
 أسيرة دوكاس ١٨٢ ، ١٨٥
 أسيرة كومنين ١٨٣ — ١٨٥
 الأسيرة المقدونية ٥٥ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٥٦ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٥
 أسكندر الثاني (البابا) ١٧٩
 أسكندر المقدوني ٩ ، ٤٦ ، ٨٠ ح ١٢١ ، ٩٣
 أسكندرية ٩٨ ، ١٦١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥

٢١٤ ، ٢١١	الاسلام ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ،
الأشرف خليل (السلطان) ١٠٠	١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ،
٢٢٨ ، ١٠٦	٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٥٠ ،
الأصطخرى ١٣٣	٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ،
الأصفهاني ١٤٩	٦٥ ح ٣٣ ، ٧٣ ح ٨٤ ، ٧٤ ح
الإصلاح الديني (في الغرب) ١١٤	٨٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
اعزاز ٤٤ ، ٣٨	١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ،
الإغريق القدماء ٩٤ ، ٩٣ ، ٤٦	١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،
١٨٢ ، ١٣٣ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢١	١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ،
الآفار ٥٠ ، ٩ ، ٨	١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
الافاقية العربية (في العصر الاسلامي	١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٠٣ ،
الوسيط) - أنظر اليقظة العربية	٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،
أفريقياسا ٩٥ ، ١٣٣ ، ١٥٣ ،	٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ح ١ ، ٢٥٠ ،
٢٠٣	- الجهاد في ٢٨ - ٢٩ ، ٥٣ ،
أفلاطون ١٢٤	١٠٧ - ١٠٨ ، ١١٢ - ١١٣ ،
آق سنقر البرسقي ١٠٥	١٧٤ - ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٢١٩ ،
الاقطاع (في المجتمع الغربي الوسيط)	٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ،
٩٧ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،	٢٤٥ - ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ،
١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ،	٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ - الحج في
١٨٦ ، ٢٣٧ - أمراء ١٦٨ ،	١٦٣ - ١٦٤ - وأهل الذمة ١٢٢
١٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٨٩ -	وسياسة التسامح الديني
حروب ١٨٢ ، ٢١٢ - فروسية	١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٦٦ ،
٩٧ ، ١٢٧ ، ١٥٨	آسيا ٩٥ ، ١٣٣ ، ٢١٣ ،
الاقطاع الصليبي (في الأراضي	آسيا الصغرى ٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
المقدسة) ٢٢٠ و ح ١	١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
أقليدس ١١٩	١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
أكيدر بن عبد الملك الكندي ١٤ ،	١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،

الامبراطورية الكارولنجية ١٦٨ -	١٥ ، ١٧ ، ٢٣ - ٢٤ ، ٧٢ ح ٧٧
النهضة في ١١٨ - انظر	الألب (جبال) ١٢٤
شارلمان	الب ارسلان (السلطان) ١٨٣
آمد ٣٩	البرت حكس (المؤرخ) ٩٧ ، ١٤٦ ،
امريكا ١٣٤	٢١٤
امورى الأول (الملك) ٢٤٥ ح ١	الفريد الأنجلوسكسونى (الملك)
الانجيل ١٢٥	١١٨
الاندلس ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٤ ،	الف ليلة وليلة (قصص) ١٣١
١٣٠ ، ٢٥٣	الكسيس الأول كومنين (الامبراطور)
انطاكية ٢٠ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٤ ،	١٨٣ - ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ح ١
٥٦ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،	٢١٤ ح ١
٢١٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ - لمارة	المناخيا ١٧١ ، ١٧٢
اللاتين في ٢١١ ، ٢٢٢	الليانة والاوليسية - انظر هوميروس
انطرسوس ٣٦	الامبراطورية البيزنطية - انظر الدولة
آن كومنين (الأميرة) ١٨٣ ، ٢١٠ ح	البيزنطية
١ ، ٢١٤ ح ١	الامبراطورية الرومانية الشرقية -
انوسنت الرابع (البابا) ٢٢٩	انظر الدولة البيزنطية
اوتو الكبير (الامبراطور) ١٦٨	الامبراطورية الرومانية الغربية
اورشليم - انظر بيت المقدس	المقدسة ١٦٧ ، ١٦٨ - انظر
اوروبا ٥٤ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ٩٧ ،	اوتو الكبير
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٦٠ ، ١٠٧ ،	الامبراطورية الرومانية القديمة ٧ ،
١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،	٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٩٧ ، ١٠٢ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٣ ،	١١٤ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،	١٧٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ - حضارة
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،	١٦١ - والسلم الرومانى ١٦٤ -
١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ،	وعبادة الامبراطور ١٦٤ ، ١٧٥ ،
١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،	١٧٦ - والمسيحية ١٦٤ - ١٦٥

٢٣١ - والحرب المسيحية الغربية	١٨١ ، ١٨٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
المقدسة ١٧٤ - ١٨٠ ، ٢٥٧	٢٠٨ ، ٢١٠ و ح ١ ، ٢١١ ،
- أنظر الكنيسة اللاتينية	٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
باركر (المؤرخ ارنست) ٩٩ ، ٢١٦	٢٤١
بارى ١٨٢ ، ١٨٣	اوغسطين (القديس) ١٧٦ ومدينة
مباريس ١٣٥	الله ١٧٦
بازيل الأول (الامبراطور) ١٥٦ ،	اومان (المؤرخ شارل) ١٢ ، ٢١١ ،
١٨١	ايبيريا (شبه جزيرة) ١٧٨ ، ١٨٠ ،
بازيل الثاني (الامبراطور) ٥٥	ايطاليا (جنوب) ٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ،
بالتق (من بنى عمان بن لوط) ٧٣	١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٧ ، ١٢٤ ،
ح ٨١	١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
بانياس ٣٦	١٥٨ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ،
باهان الأرمني ٣٦	٢٠٤ ، ٢٠٥
بتلر (المؤرخ الفرد) ٨	الايطالية القديمة (اللغة) ١٣٤ ،
البحر الادرياتي ١١٠ ، ١٨٢	١٤٧
البحر التيرانى ١١٠	أيلة ٢٣ ، ٣٠ ، ٧١ ح ٧٢ ،
البحر المتوسط ١١ ، ٥٤ ، ١٠٣ ،	٧٢ ح ٧٤
١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٥٥	أيلة بنت مدين بن ابراهيم ٧١
١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٠٢ ،	ح ٧٢
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ١٨ ،	
٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤ ،	
٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٢ ،	
٢٥٤	
بدليس (موقع) ٣٩	بابل ١٣٢
البرانس (جبال) ١٠٣ ، ٢٠	البابوية ١٤٣ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ،
البرتغال ٢٥٣	١٧٨ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ،
البرتغالية (اللغة) ١٣١	١٨٩ ، ٢٣٧ - عيوبها ١٨٦ ،
	١٨٧ ، ٢٤٢ ح ٢ - والامبراطورية

(ب)

البنادقة ١٢٦	برقة ٢٢٥
البندية ٢١١ ، ٢٢٣	بروفانس ١٣٠
بنو آيل ٢٨	بريه (المؤرخ لويس) ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٧
بنو الحرث بن الخزرج ٢١	البسفور ٤٩
بنو عدي بن كعب ٢١	بصرى ٢٠ ، ٣١
بنو عفرة ١٥ ، ٢٠ ، ٢١	بطرس الأول لوسنيان (الملك) ٩٨
بنو غنم بن ملك بن النجار ٢١	بطرس توما (داعية لاتيني) ٢٣٢
بنو مازن بن النجار ٢١	بطرس دييوا (داعية لاتيني) ٢٣٢
بنو مالك بن اقصى ٢١	بطليموس ١١٩
بنو مالك بن حشل ٢١	بعلبك ٣٦
بنو مرين (فى المغرب) ٢٥٣	بغداد ١٣٥ ، ١٦٨ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٤ ح ١
بنو نصر (فى المغرب) ٢٥٣	بلانرى ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٢
بنو هاشم ٢١	بلاط لاشهداء (معركة) — أنظر بواتييه (معركة)
بواتييه (معركة) ١٠٣	بلال ٦٤ ح ٢٦
بودرى دى بورجى (المؤرخ) ٢٠٦	بلدين (المؤرخ مارشال) ٢١٨
بوكاشيو ١٣١	البلقاء (موقع) ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣ ، ٧٢ ح ٧٣ ، ٧٣ ح ٨١ و ٨
بوكيه ١٤٤	بلقاء بن سويده (من بنى عسل بن لوى) ٧٣ ح ٨١
بونجارز ١٤٤	البلقار ٩ ، ٥٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥
بوهيموند النورماندى ٩٧ ، ١٨٤ ، ٢١٠	البلب (جزر) ١١٠
البيازنة ١٢٦	
بيت جبرين ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩	
بيت لحم ١٦٤ ، ١٧٣	
بيت المقدس ٧ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٧٩	
ح ١١٧ ، ٩٤ ، ١١٢ ، ١٣٢ .	

(ت)

نبوك (موقع) ١٩ ، ٢٢ ، ٣٠ ،
٧٠ ح ٦٤ ، ٧٢ ح ٧٥ و ٧٦ -
غزوة رجب ٩ هـ ٢٢ - ٢٣ ، ٧١
٧٠ ح

تصمر ٣٤

التدوين التاريخي (في الشرق في
في العصر الوسيط) ١٤٩ .
١٦٧ - في الغرب في العصر
الوسيط ١٤٦ ، ١٤٨

التركمان - أنظر سلاجقة الروم

تركيا ٢٣٣

التروبادور ٣٠ - ١٣١

تريفيليان (المؤرخ جورج) ١٩٠ ،
٢٠٨

تشوسر ١٣١

تماضر بنت الاصبغ ٦٤ ح ٢٦
توازن القوى بين العالمين الاسلامي
والمسيحي ١٠١ - ١٠٩ ، ٢٣٧
٢٥٧ ، ٢٣٩ -

تونسي ٩٨ ، ٢٢٧

تيماء ٢٩

التيوتون (جماعة الفرسان) ٢٢٣

(ث)

ثيوفانيس (المؤرخ البيزنطي) ١٢ ،
٥٩ ح ٧

١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١٤ ح ١ ، ٢١٧ ،

٢٢٦ ، ٢٢٧ ح ١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢

- مملكة اللاتين في ٢٥٠ ح ١

بيروت ٣٤ ، ٢٢٨

بيرين (المؤرخ هنري) ٥٤ ، ١٠٣ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١٣٤ ، ١٥٥ ،

١٥٨ ، ٢٠٤

بيزا ٢١١ ، ٢٢٣

بيزنطة - أنظر الدولة البيزنطية

البيزنطيون ٧ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ،

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ،

٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٠ ح ٦١ و

٦٣ ، ٧٣ ح ٨٤ ، ٩٥ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦

بيسان ٣٤

بينز (المؤرخ نورمان) ٨

بيوس الثاني (البابا) ٢٣٣

(ج)

١٤٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢٢١ ح ١ ،
٢٢٢ ، ٢٣٩ ح ١

جرونيباوم (المؤرخ جوستاف فون)
١٢١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

جريجوراس (نقفور) ٥٩ ح ٧
جريجورى الأول (البابا) ٨٠ ح
١٢٢

جريجورى السابع (البابا) ١٧٠ ،
١٧٩

الجزيرة (بلاد) ١٥٠
الجزيرة الأيبيرية (شبه) ٥٤ ،
١٠٤

الجزيرة العربية (شبه) ١٠ ، ١١ ،
٢٢ ، ٢٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ،
٧٣ ح ٨٤ ، ٨٢ ح ١٣١ ، ٩٥ ،
١٥٣ ، ٢٠٣

جستتيان الأول (الامبراطور) ٧ ،
٨ ، ٥٠

جعفر بن ابى طالب ٢٠
الجلجثة (موقع) ١٦٥
الجليل ١٦٤

جمال الدين الشيال (مكتور) ٢٠٩ ،
٢٢٥ ح ١ ، ٢٣٣ ح ١ ، ٢٤٤ ح ١ ،
٢٤٥ ح ١ ، ٢٥٠ ح ١
جنوه ٢١١ ، ٢٢٣

الجنوية ١٢٦
جوانفيل (المؤرخ جان دى) ١٤٦ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢٤٤

الجابية ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ،
٤١

جالينوس ١١٩ ، ١٢٤
جامعة الأزهر ١٣٥ ، ١٧٥ ، ٢٤٥
جامعة بادوا ١٣٥
جامعة باريس ١٣٥
جامعة سالرنو ١٣٥

جان دى بريين (الملك) ٢٢٧ ح ١ ،
٢٤٦

جانوس (الملك القبرصى) ٢٣٦
جبله ٣٦

جبله بن الأيهم ملك غسان ١٧
جبل الزيتون ١٦٤ ، ١٧٣
جبيل ٣٤

جذام (قبيلة) ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ،
٢٩ ، ٣٦ ، ٦٣ ح ٢٤ ، ٧٠ ح
٥٩

الجرف (موقع) ٢٨
الجرمان البرابرة ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٩٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦١ ،

١٦٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ - غزوات
٥٥ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١١٨ ،
١٦١ ، ١٦٦ ، ١٧٦ - أنظر

الصليبيون ، والفرنج ، واللاتين
جروسيه (المؤرخ رينيه) ٨٠ ح ١٢١ ،
٨٣ ح ١٣٨ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،

الجلول ٣٢

جيبوتى دى نوجان (المؤرخ) ٢٠٦
جيبون (المؤرخ اوارد) ١١٥ .
٢٠٢ و ح ٢
جيفونى (المؤرخ الارمينى) ١٣ ،
٤١ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٤ ح ٧٦
جينتر ١٧١ - ١٧٢ ، ١٧٤

(ح)

الحارث بن عمر الأزدي ٢٠
الحج ١٥٢ ، ١٦٣ - ١٧٤
الحجاز ١٥ ، ٧١ ح ٧٢
الحديبية (صلح) ١٧
حران ٣٩
الحركة الصليبية - أنظر الحروب
الصليبية
الحروب الصليبية ٥٥ ، ٨٠ ح
١٢١ ، ٨٣ ح ١٣٨ ، ٩٥ ، ٩٦ -
١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ،
١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٤٣ - ١٩٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ،
٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ ،
٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ،
٢٥٤ ، ٢٥٧ - اتجاهاتها الاستعمارية
٢٠٧ - ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٤٣ ،
٢٥٧ - آثارها ١٢٦ - ١٢٨
عوامل قيامها ١٥١ - ١٩٠ فكرتها

٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ ،
٢٤٢ و ح ٢ - مصداقها
١٤٤ - ١٥١ ، ٢٠١ - وسياسة
البابوية حيالها ١٧٩ ، ١٨٥ ،
١٨٩ - والمغول ٢٢٩ ، ٢٤١ -
٢٤٣ ، ٢٥٧ - ونشر الكتلة فى
العالم العربى ٢١٥ - ٢١٦ الحروب
البكرة ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٤٣
- الحملة الاولى ١٠٤ ، ١٤٤ ،
١٤٦ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢١٤ ح ١ ، ٢١٩ ، ٢٣٥ ح ١ ،
٢٤٣ - الحملة الثانية ٢٤٤ -
الحملة الثالثة ٢٢٦ و ح ١ -
الحملة الرابعة ١٤٦ ، ١٨٤ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ - الحملة الخامسة
١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٢٧ ح ١ ، ٢٤٦ -
الحملة السادسة ١٤٤ -
الحملة السابعة ١٤٤ ، ١٤٦ ،
١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ -
الحملة الثامنة ١٤٤ ، ١٤٦ -
الحملة التاسعة ٢٢٧ - الحروب
المتأخرة ٥٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٧ ،
١٤٣ ، ٢٣٩ ح ١ - حملة
الاسكندرية ٩٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣
ح ١ ، ٢٣٥ - حملة المهدي ٩٨ ،
٢٣٢ - حملة نيكوبوليس ٩٨ ،
٢٣٢

حسان بن ثابت ٢١

٧٢ ح ٧٧ ، ٧٣ ح ٧٨ ، ٧٥ ح ٩٨	حسمى (موقع) ٦٣ ح ٢٤ ، ٧٠ ح ٦٤ - سرية فى ٦ هـ ١٦
خزاعة ١٧	حسن حبشى (مكتور) ٢٠٩ ، ٢١٩ ح ١
خسرو (ملك الفرس) ٤٧ ، ٩٤	الحضارة الأوروبية (فى العصور المظلمة) ١١٣ - ١١٩
خلاط ٣٩	الحضارة الرومانية ١١٥ - ١١٦
الخلافة الأموية ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٥٤	الحضارة العربية الإسلامية ٩١ ، ١١٣ ، ١١٩ - ١٣٦ ، ٢٠٤
الخلافة العباسية ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠	الحضارة الهلينية ٩٣
٢٣٥ ح ١	حطين (موقعة) ٢٢٦ - أنظر صلاح الدين
الخلافة الفاطمية ١٠٤ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٨٢ ، ٢١٢ وح ٢	حطب ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ١٥٦ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤
٢١٤ وح ١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٤	حمام ٣٦
الخلفاء الراشدون ١٣ ، ١٤ ، ١٥٤	حمص ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٤ - معرة ٣٦
خلقيدونية ٩ - المجمع المسكونى فى ١٠	حنا الشميشق (الامبراطور) - أنظر يوحنا تزمسكيس
خيبر ١٧	حنين بن اسحق ١٢٣
(د)	حوران ٣٤ ، ٤٠
	حيفا ٢٢٨

(خ)

دارا ٣٩	خالد بن سعيد بن العاصى ٢٩
الداروم ٢٤ ، ٢٧ ، ٧٣ ح ٨٣	خالد بن الوليد ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٦٩ ح ٥٦
دانتي اليجيبرى ١٣١	
الدانوب (نهر) ٨ ، ٥٠ ، ١٧٦	
الداوية (جماعة الفرسان) ٢٢٣	

٢١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ - الثيمات	حياة بن خليفة الكلبى ١٦ ، ١٧ ، ٣٤
٨١ ح ١٢٣ - الجيش ٥٠ -	درب الروم ٣٩
٥١ ، ٨١ ح ١٢٣ ، ١٨٣ ، ١٨٥	درويش محفوظ للنخيلى (دكتور)
- الكنيسة ٢٦ ، ٥٢ ، ٥٣	٨٤ ح ١٤١
الدولة الرومانية الشرقية - أنظر	نقلديانوس (الامبراطور) ١٦٤
الدولة البيزنطية	دمشق ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٦١ ح ١١ ، ٧٣ ح ٨١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٥٤
الدولة العثمانية - أنظر العثمانيون	دمياط ٢١٥
الدولة العربية الاسلامية ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ -	دوزى ١٣١
الأسطول وقطعه ٢٤٧ ، ٢٤٨	الدولة الأيوبية ١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧
- ٢٤٩ ، ٢٥٧ - الجيش وأسلحته	الدولة البيزنطية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ - ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٨٢ ح ١٢٩ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٠ -
٢٤٧ - ٢٤٨ ، ٢٥٧ - أنظر	١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،
الحضارة العربية الاسلامية	
الدولة الفاطمية - أنظر الخلافة	
الفاطمية	
دولة الفرس ٩٣ ، ٩٤ ، ٢٢٩	

رامون لال (داعية لاتينية) ٢٣٢
 رانسيمان (المؤرخ ستيقن) ٨٣ ح
 ١٣٨ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٤٤ ، ١٨٣ ،
 ٢٢١ ح ١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٩ ح ١
 الراين (نهر) ١٧٦
 الردة (حركة) ٢٨
 الرسول (ﷺ) ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،
 ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
 ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
 ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٤٢ ، ٤٧ ،
 ٥٣ ، ٥٩ ح ٧ ، ٦٣ ح ٢٢ ،
 ٦٤ ح ٢٥ و ٢٦ ، ٦٥ ح ٣٣ و
 ٣٤ ، ٦٦ ح ٣٦ ، ٦٧ ح ٤٥ ،
 ٦٩ ح ٥٣ و ٥٦ ، ٧٠ ح ٦٤ ،
 ٧١ ح ٦٧ و ٧٠ ، ٧٢ ح ٧٣ -
 ٧٦ ، ٧٣ ح ٧٩ ، ٧٤ ح ٨٦ ،
 ٨٢ ح ١٣١
 الرملة ٣١ ، ٣٩ ، ٤٤
 الرها ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٦ - اماره
 اللاتين في ٢١١ ، ٢٢٢
 الرهبنة والديرية (في الشرق) ١٦١ ،
 ١٦٢ - في الغرب ١٧٠ ، ١٨٦
 روبرت الأول (أمير الأراضي للواطئة)
 ٢١٠ ح ١
 روبرت جيسكار ١٨٢ ، ١٨٤
 روبرت الراهب (المؤرخ) ٩٧ ،
 ١٨٨ ، ٢٠٧

دولة الممالك الأولى ١٠٦ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣٩
 دولة الممالك الثانية ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩
 دومة الجندل (موقع) ١٧ ، ٦١ ح
 ١١ ، ٦٣ ح ٢٢ - غزوة ربيع
 الأول ١٤ هـ - ١٦ ، ٢٥ - سرية
 شعبان ٦ هـ ١٦ - سرية رجب
 ٢٣ هـ - ٢٤
 الدوناتية (الهوطة) ١٧٦
 الديار المصرية - أنظر مصر
 ديفز (المؤرخ هنري وليم كارلس)
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ح ١
 ديورانت (المؤرخ ول) ١٣٦

(ذ)

ذات أطلاق أو ذات أباطح (موقع)
 ١٩ - سرية ربيع الأول ٨ هـ ١٩
 ذات السلاسل (موقع) ٢١ ، ٧٠ ح
 ٥٩ - سرية جمادى الآخرة ٨ هـ
 ٢١ - ٢٢
 ذو الكلاع الحميري ٣٣
 ذي المروة (موقع) ٢٩

(ر)

رأس العين ٣٩
 رافع بن عميرة الطائي ٣١

سباع بن عرفة الغفاري الكنانى ٢٣ ، ١٥	رودس ٥٧ ، ١٥٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦
سبسطية ٣٨ ، ٣٩	الروم - أنظر البيزنطيون
سببوس (المؤرخ الأرمنى) ١٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ٦٠ ح ٨	روما ٤٦ ، ٤٩ ، ٨٠ ح ١٢٢ ، ٩٤ ، ١١٤ ، ١٤٣ ، ١٤٣ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٢
ستيفنسون (المؤرخ وليم) ١٠٨ ، ٢٥٠	الرومان القدماء ٤٦ ، ٤٨ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٥
سحوس ١٩	رومانوس الثانى (الامبراطور) ١٨١
سردينيا ١٠٣ ، ١١٠	رومانوس الرابع (الامبراطور) ١٧١ ، ١٨٣ - أنظر ملاذكرد
السريانية (اللغة) ١٣٠	ريان (المؤرخ بول) ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ريمون داجيل (المؤرخ) ٩٧ ، ١٤٦ ، ٢١٤
سعيد عاشور (دكتور) ١٢٠ ، ١٣٢	(ز)
سلاجقة الروم ١٠٤ ، ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ح ١ ، ٢٣٤	الزبير بن العوام ٣٤
السلاف ٨ ، ٩ ، ٥٠	الزراشتية ٤٧ ، ٩٤
سليمان الأول (السلطان) ٢٣٦	زيد بن حارثة الكلبى ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٦٧ ح ٤٥ ، ٦٩ ح ٥٣
سليمان بن عبد الملك (ال خليفة) ١٠٣ ، ١٥٤	(س)
سميساط ٣٩	ساليقان (المؤرخ ريتشارد) ٢٦ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٨١ ح ١٢٣ ، ٨٢ ح ١٢٩
سورية ١٢٥ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ح	
١ - أنظر الشام	
سيف الدولة بن منقذ ٢٥٣ ح ١	
(ش)	
شارلمان (الامبراطور) ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ - أنظر الامبراطورية	

فتوح ١٣ ، ١٤ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ح ٧ ،
٧٤ ح ٨٦ - فضائل ١١٢ -
مستعربة ٥٧ - أنظر سورية ،
والعرب (متفصرة).

شجاع بن دهب الأسدي ١٧
الشرقة (موقع) ٧٢ ح ٧٣
شرحبيل بن حسنة ٣٠ ، ٣١ ،
٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥
شرحبيل بن عمرو الغساني ٢٠
الشرق الأدنى ١٣ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٧ ،
٢٢٠

الشرق الأدنى الاسلامي ٥٦ ، ٩٩ ،
١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٨ ،
١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ،
٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،
٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ،
٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ح
٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ،
٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
الشرق الأقصى ٢٣٠
شروى (جبل) ٧٠ ح ٦٤ ،

الكارولنجية

شارل المطرقة - أنظر مارتل
شالندون (المؤرخ قرييناند) ١٧٨
الشام (بلاد) ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ،
١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ،
٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ح ٧٠ ، ٦٤ ح ٧٣ ،
٧٢ ح ٧٣ ، ٧٣ ح ٧٣ ،
٧٣ ح ٨١ ، ٨٢ ، ٨٢ ح ١٢٩ ،
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ،
١٥٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١١ ،
٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ،
٢٢٥ ح ١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ،
٢٤٤ ، ٢٤٥ ح ١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
٢٥٧ ، - افرنج ٥٦ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ - أهالي ٩ ، ٢٦ ، ٥٢ ،
٥٣ ، ١٠٩ - تخوم ١٦ ، ١٧ ،
١٨ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ،
٢٩ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٧٥ ح ٩٨ -

٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ح ١ ،
٢٣٩ وح ١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ح ١ ،
٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
٢٥٣ ، ٢٥٤ - أعمال القسوة
في الأراضي المقدسة - ٢١٤ -
٢١٥ ، ٢٤٣ - أنظر الجرماني ،
والفرنجة ، واللاتين

صور ٢٢٨

صيدا ٣٤ ، ٢٢٨

الصين ١٢١

(ض)

الضريح المقدس - أنظر القبر المقدس
ضميرة (مولى على بن أبى طالب)
٦٩ ح ٥٣

(ط)

الطائف (غزوة) ٢٢
الطبرى ١٤ ، ١٨
طبرية ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٦
طرابلس الشام ٥٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩
- امارة اللاتين في ٢٢٢
طرواده (حروب) ٤٦
طليطلة ١٥٩ ، ٢٠٥

(ظ)

الظاهر بيبرس (الملك) ١٠٦ ، ٢٢٨

الشعوب العربية - أنظر العرب ،
والمسلمون
شلومبرجيه (المؤرخ جوستاف)
٢٤٥ ح ١
شيزر ٣٦

(ص)

الصالح نجم الدين ايوب (الملك)
١٢٥ ، ١٥٠ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ح ١
الصحوة العربية (في العصر الاسلامي
الوسيطة) - أنظر اليقظة العربية
الصفدى ١٤٩
صفورية ١٦٤
صقلية ٥٥ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١١٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ،
١٨١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
صلاح الدين الأيوبي ٧٣ ح ٨٣ ،
١٠٦ ، ١٠٨ ، ٢١٧ و ح ١ ،
٢٢٤ ، ٢٢٥ وح ١ ، ٢٢٦ ح ١ ،
٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ وح ١ ، ٢٥٣
و ح ١ - أنظر اليقظة العربية
الصليبيون ٥٦ ، ٨٣ ح ١٣٨ ،
١٠١ ، ١١٩ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
١٧٤ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ،
٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ح ١ ،
٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١

(ع)

العادل الأيوبي (الملك) ٢٤٤ ح ١
العالم الأوروبي المسيحي - أنظر
أوروبا ، والغرب

العالم العربي الاسلامي - أنظر الدولة
العربية الاسلامية

عاملة (قبيلة) ٢١ ، ٢٢

عباية بن مالك أو عبادة بن مالك ٢٠
عبد الله بن رواحة الأنصاري ٢٠
عبد الحميد حمدي محمود (دكتور)
٢١٦

عبد الرحمن بن عوف ١٦ ، ٢٤ ،
٦٤ ح ٢٦

عبد العزيز سالم (دكتور) ٢٥٢ ح
٢

عبيدة بن الجراح ٢١

عثمان بن طلحة ٦٩ ح ٥٦

عثمان بن عفان ٢٨ ، ٤١

العثمانيون (الأتراك) ١٠٧ ، ١١٤ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،

٢٣٦ ، ٢٣٩

العراق ٣١ ، ٧٥ ح ٩٨ ، ١٠٥ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ٢٤٠ ،

العرب ٨٢ ح ١٢٩ ، ٩٤ ، ١١١ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ،

١٨٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،

٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،

٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

٢٣٢ ، ٢٣٥ ح ١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،

و ح ١ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٥٧ - متنصرة (المستعربة)

٧ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،

٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،

٣٦ ، ٤٢ ، ٧٣ ح ٨٤ - وسلوكهم

الحضاري في عصر الحروب

الصليبية ٢١٧ ح ١ - ٢

العربة (موقع) ٣٠ ، ٣١

العربية (اللغة) ١١٩ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ - ١٣٢ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٧

عركة (فتح) ٣٤

عزيز سوريا عطية (دكتور) ٨٣

ح ١٣٩ ، ٩٩ ، ٢٣٣ ح ١

عسقلان ٣٨ ، ٣٩

عكا ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٠٠ ،

١٤٨ ، ٢٢٧ ح ١ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ،

٢٣٩

علقمة بن كليم ٣٣

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
 ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ،
 ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ —
 أنظر أوروبا ، والجرمان ،
 والصليبيون ، والفرنـج ،
 واللاتـين

غرناطة ١٠٠ — سلاطين ٢٥٣

غزة ٣٩ ، ٤٤ ، ٧٣ ح ٨٣

غسان (قبيلة) أو غساسنة الشام

١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٩ ،

٣٦

(ف)

فارسي — أنظر دولة الفرس

الفتوحات الإسلامية ١٠ — ٤٢ ،

١١١ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٣٤ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

علقمة بن مجزر ٣٩

على بن ابي طالب ٢٣ ، ٢٨ ،

٣٢ ، ٤٠ ، ٤١

عماد الدين زنكي ٢٢٤ ، ٢٢٥ ح ١،

٢٣٩

عمان ٧٣ ح ٨١ و ٨٢

عمر بن الخطاب ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ،

٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ،

٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٤ ح ٨٦ ،

٧٩ ح ١١٧

عمرو بن العاص ٢١ ، ٣٠ ، ٣٣ ،

٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ،

٦٩ ح ٥٦ ، ٧٠ ح ٥٩

العمرى ١٣٣

عمواس ٣٨ ، ٣٩

عين جالوت (موقعة) ٢٣١

العيني ١٢٥ ، ١٤٩

(غ)

غالة ١١٧

الغرب الاسلامي (المغرب والأنطلس)

١٠٦

الغرب الأوروبي ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٥٥ ، ٥٦ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٢ ، ٢٤ ، ١٢٥ ،

فلسطين ١٦ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ،
 ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤١ ،
 ٥٦ ، ٨٢ ح ١٢٩ ، ١٠٠ ،
 ١٠٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ،
 ١٧٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٥ —
 أنظر الأراضي المقدسة
 فوشيه دي شارتر (المؤرخ) ٩٧ ،
 ١٤٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٦
 فيتري (المؤرخ جاك دي) ١٤٦
 فيكتور الثالث (البابا) ١٧٩
 فيلهاردوان (المؤرخ) ١٤٦
 فيليب حتى ٢١٠
 فيليب دي مزيير (داعية لاتيني)
 ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ح ١ ، ٢٣٦

(ق)

القاهرة ١٣٥ ، ١٤٨ ، ٢٢٥ ، ٢٤٤ ،
 ٢٥٤ ، ٢٥٨
 قبة الصخرة ١١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥
 قبرص ٥٧ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٨١ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٧ ح ١ ، ٢٥٧
 القبر المقدس ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٨ ،
 ٢٠٧ ، ٢٠٨
 القدس — أنظر بيت المقدس

١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٧٧ ، ١٨١ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٤
 فحل (موقع) ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٤ ،
 فتح فحل في ١٣ هـ ٣٢
 الفرات ٢١١ ، ٢٢٥
 الفرس ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ،
 ٢٦ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 ٤٨ ، ٥٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢١ —
 أنظر دولة الفرس
 قرسان القديس يوحنا (هيئة) ٢٣٦
 الفرنج أو الافرنج أو الفرنجة ٥٧ ،
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٧٥ ، ٢١٤ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٦ ح ١ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ح ١ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ —
 أنظر الشام — افرنج، والصلبيون،
 واللاتين
 فرنسا ٥٥ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ،
 ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٧ ح ١
 الفرنسية (اللغة) ١٣٤ ، ١٤٧ ،
 ٢٤٢ ح ٢
 فريدريك الثاني (الامبراطور) ١٢٤ ،
 ١٩٠ ، ٢٤٦
 القسطنطين ٧١ ح ٧٢

قيسارية ٢٢٠ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٧٩ ح ١١٦ ،
قيس بن المسحر ٢١

(ك)

الكامل محمد (الملك) ١٢٥ ، ٢١٥ ،
٢٢٧ ح ١
كاهن (المؤرخ كلود) ١٤٤ ، ٢٥٤ ،
٢٥٥
الكتبي ١٤٩
كريت ١٠٣ ، ١١٠ ، ١٥٥ ، ١٨١ ،
٢٠٣

كعب بن عمير الغفاري ١٩ ، ٦٦ ح
٣٧ ، ٦٧ ح ٤٢
كعب بن مالك ٢١
كفو توثا ٣٩
كلاري (المؤرخ روبرت) ١٤٦ ،
٢٠٩

كلب (قبيلة) ١٢
كلوني (جماعة) ١٧٠ ، ١٧٨ ،
١٧٩

كليرمون (مدينة) ١٨٧ - مؤتمر
١٠٩٥ م ، ٩٧٠ ، ١٠٠٠ ، ١٨٧ ،
١٩٠ ، ٢٠٦

كنانة (قبيلة) ١٧
كنيسة القيامة - أنظر القبر المقدس
الكنيسة اللاتينية (في العصر الوسيط)

القرآن الكريم ٢٣ ، ٥٣ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١٢٥ ، ١٦٣ ، ١٧٤ ،
١٧٥ ، ٢٤٦ - آيات قرآنية
٦٥ ح ٢٧ ، ١١٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٦

قريش (قبيلة) ٢١
القرويني ١٣٣
قسطنطين الكبير (الامبراطور) ٤٦ ،
٥٠ ، ٩٤ ، ١٦٥ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ،
قسطنطين الثالث (الامبراطور) ٤١
قسطنطين الرابع (الامبراطور) ١٥٤
قسطنطين السابع (الامبراطور)
١٨١ ، ١٥٦

القسطنطينية ٨ ، ٩ ، ٢٥ ، ٣٨ ،
٤٩ ، ٨٢ ح ١٢٩ ، ١٠٣ ، ١١٤ ،
١٥٤ ، ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ،
٢٠٢ ، ٢٣٤

قشتالة (مملكة) ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٥٩ ،
١٧٩

القشتاليون ٢٥٣
قضاة (قبيلة) ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ،
٢١ ، ٢٨

قطبة بن قتاده ٢٠
قلاوون (الملك المنصور سيف الدين)
١٠٦ ، ٢٢٨

القلزم (بحر) ٧١ ح ٧٢
قنبرين ٣٥ ، ٣٨
القوط الغربيون ٨ - أنظر الجرمان

اللافتية ٣٦	٤٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
لامونت (المؤرخ جون) ١٥٥	١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٥٧ ،
لخم (قبيلة) ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ،	١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ،
٢٩ ، ٣٦	١٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ - أسلحتها
اللذ ٣٨ ، ٣٩	١١٧ ، ١٢٥ - وسلم الله ١٧٧ -
لطفى عبد الوهاب يحيى (دكتور)	ومعدة الله ١٧٧ - أنظر البابوية
٢٥٥ ح ٤	كورسيكا ١٠٣ ، ١١٠
اللمبارديون ٨	الكوفة ٣٩
لوزنيان (آل) ٢٣٦ - أنظر قبرص	كولتون (المؤرخ جورج جوردون)
لويس (المؤرخ ارشيبالد) ١١١	١٣١ ، ١٣٢
لويس (المؤرخ برنارد) ١٩٠ ، ٢٠٨	كولبس (كريستوفر) ١٣٤
لويس التاسع (ملك فرنسا) ١٤٦ ،	الكوميديا الالهية - أنظر دانتي
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢١٧ و ح	اليجييري
٢ ، ٢٢٧ و ح ١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،	كينراد الرابع (الامبراطور) ١٩٠
٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ - أنظر الحروب	كير (المؤرخ و ب) ١١٥
الصليبية	كيف (حصن) ١٥٠
لويس الثاني (دوق بوربون) ٩٨	(ل)
- أنظر الحروب الصليبية	اللاتين ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ،
ليبانتو (واقعة) ٨٠ ح ١٢١	١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ،
ليو الثالث الأيسوري (الامبراطور)	٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ح ١ ، ٢١٨ ،
١٥٤	٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،
ليو الثالث (البابا) ١٦٧	٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
ليو الرابع (البابا) ١٧٨	٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،
ليون (مملكة) ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٥٩ ،	٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،
١٧٩	٢٥٧ - أنظر الجرمان ، والصليبيون،
ليون (مجلس كنسي عام ١٢٤٥م)	والفرنج
٢٢٩	اللاتينية (اللغة) ١٢٤ ، ١٢٨ ،
	١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ،

(م)

مارتل (شارل) ١٠٣

مارفين ٣٩

ماسون ١٧٠

المأمون (الخليفة) ١٠٣

متى اوف وستمنستر (المؤرخ) ١٤٦

متى الباريسي (المؤرخ) ١٤٦ ،

١٤٧

محمد الثاني (السلطان) ٢٣٦

المجامع المسكونية ١٦١

المجر ١٧٢

محمد (ﷺ) - أنظر الرسول (ﷺ)

محمد بن سلامة الانصارى ٢٣

محمد عبد العزيز عزيز ١٤٤

محمد مصطفى زياده (دكتور) ٢٠٩

الدائن ٩٣ ، ٤٦

الدارس النظامية (فى العراق) ١٣٥

المدرسة المستنصرية (فى بغداد)

١٣٥

مدين (موقع) ٥٣ ح ٦٩

المدينة المنورة ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ،

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ،

٣٠ ، ٤٠ ، ٦١ ح ١١ ، ٦٣ ح ٢٢ ،

٦٧ ح ٤٥

مذكور هاد خريت ١٥ ، ٦٣ ح ٢١

الرابطون ٢٥٣

مرج الصفر (موقع) ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٤

- وقعة جمادى الاولى ١٣ هـ ٢٩ -

٣٠ ، ٣٣

مرج عيون ٣٨ ، ٣٩

مرسوم ميلان ٩٤ - أنظر قسطنطين

الكبير

مرمرة (بحر) ٩ ، ٤٩

مروة بن عمرو بن النافرة الجذامى

٢٥

المستنصر (محمد بن يحيى) ٢٢٧

ح ١

المسجد الأقصى ١١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥

المسعودى ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،

٢٠ ، ١٣٤

المسلمون ٧ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ،

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،

٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ،

٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٧٣ ح ٨٤ ، ٨٣ ح ١٣٨ ، ٩٥ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

- ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ،
١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٩ ح ١ - انظر
الصلبيين ، والفرنجة ، واللاتين
مصر ٧٣ ح ٨٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
١٥٣ ، ١٧١ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ،
٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،
٢٢٤ ، ٢٢٥ ح ١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ،
٢٤٦ ، ٢٤٨ ح ٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ح ١ ،
٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ - وفكرة
اتجاه الحملات الصليبية نحوها
٢٤٣ - ٢٤٦
المصريون القدماء ١٢١
معان (موقع) ٢٥
معاوية بن ابي سفيان ٣٠ ، ٣٩ ،
٤٢ ، ١٠٣ ، ١٥٤
معبد سليمان ٢١٥ - انظر المسجد
الأقصى
معبد السيد ٢١٥ - انظر قبلة
الصخرة
المعتصم (الخليفة) ١٠٣
المعظم توران شاه (الملك)
١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢١٧ ح ٢
- ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٨ ،
١٨٩ ، ٢٠٩ ح ١ ، ٢١٠ ح ١ ،
٢١٦ ، ٢٢٨ - انظر العرب
المسيح (السيد) ٨ ، ٢٧ ، ٤٧ ،
٥٢ ، ٥٣ ، ٩٤ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ،
١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ،
١٨٧
المسيحية ١٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٤ ،
١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ،
١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٦١ ،
١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٤ ،
١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ،
١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٨ ،
٢٤١ - الحج في ١٦٣ - ١٧٤
الحرب المقدسة في ٥٢ ، ١٥٢ ،
١٦٠ ، ١٧٤ - ١٨٠ حركة
الإيضاحات ١٦٤ - فلسفة ٤٩
١١٦ - ١١٧
المسيحيون الشرقيون ٢١٦ - انظر
العرب - متتصرة
المسيحيون الغربيون ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ،
٥٧ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٥٧ ،
١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٩

- المغاربة ١٠٩ ، ١٣١ ، ٢٥٢
المغرب الاسلامى ١٢٣ ، ١٤٣ ،
١٥٢ ، ٢٥٢ و ح ٢ ، ٢٥٣ -
أنظر الغرب الاسلامى
المغول ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٣٥ ح ١ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٤٦ ، ٢٥٧ - والشرق الاسلامى
١١٢ - أنظر الحروب الصليبية
المقتضى ١٣٣
المقريزى ١٤٩ ، ٢١٥
مكة ١٠ - ١١ ، ١٨ ، ٧١
ح ٧٢
ملاذكرد (موقعة) ١٧١ ، ١٨٣
الماكانيون (فى الشام) ٨ ، ٥٢
ملكشاه (السلطان) ١٨٤
الماليك ١٠٧ ، ١٤٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ،
٢٤٣ ، ٢٤٧ - أنظر دولة للماليك
الأولى ، ودولة للماليك الثانية
منبج ٣٩
المنذر بن الحارث بن ابي شمر
الغسانى ١٧
المهدية (بتونس) ٩٨ ، ٢٣٢
المهلبى ١٣٣
مؤتة (موقع) ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ ،
٢٨ - سرية جمادى الأولى ٨ هـ
١٩ - ٢١ ، ٦٧ ح ٤٤ ، ٦٩ ح
- ٥٣ ، ٧٣ ح ٨٤
الموحدون ١٥٩ ، ٢٥٣
مودود ١٠٥
المؤرخ المجهول (مؤرخ بوهيموند
النورماندى) ١٤٦
موسى (المؤرخ هـ ب) ٨ ، ٨٢ ح
١٣١
الموصل ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤
موناخوس (المؤرخ جورج) ٥٩ ح ٧
موندفيل (الرحالة سير جون) ١٢٢
المونوفيسيون - أنظر اليعاقبة
ميافارقين ٣٩
ميتز (سير آدم) ١٣٤
ميخائيل السابع (الامبراطور) ١٨٥
ميشو (المؤرخ جوزيف فرنسوا)
١٤٤
- (ن)
نابلس ٣٨ ، ٣٩
الناصره ١٦٤
ناقار (مملكة) ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٥٩ ،
١٧٩
النسطورية (الهرطقة) ١٦١ ، ١٧٦
النصرانية - أنظر العرب - متبصرة ،
الشام - متبصرة ، والمسيحية ،

هالفن (المؤرخ اويس) ١١٨ ، ١٨٢ ، ١٩٠
 الهرطقة (فى المسيحية) ١٢٥
 الهرطقة ١٧٦ ، ٢١٦ - أنظر
 الأريوسية ، والدوناتية ،
 والنسطورية
 هرقل (الامبراطور) ٨ ، ٩ ، ١٤ ،
 ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٤١ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٥
 ح ٣٣ - ٣٤ ، ٧٢ ح ٧٦ ، ٩٤ ،
 ٩٨ - ومذهب التوفيق ١٠ ، ٢٧
 همرتولوس (جورج) - أنظر موناخوس
 الهند ١٢١
 هولكو (خان التتر) ٢٣٥ ح ١
 هوميروس ٤٦ ، ٩٣
 هونشتاوفن الألمان (آل) ١٨٩
 هيتوم الأول (الملك) ٢٣٥ ح ١
 هيلينا ٦٥

(و)

وادي القرى (موقع) ١٦ ، ١٩ ،
 ٢١ ، ٢٩ ، ٦٣ ح ٢٤ ، ٧٠ ح
 ٦٤ ، ٧٣ ح ٨١
 الواقدي ١٣ ، ٢١ ، ٢٢
 الوثنية ٤٨ ، ٥٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

والمسيحيون الشرقيون ، واليعاقبة
 نصيبين ٣٩
 نقفور (البطريارك) ١٢
 نقفور الثانى فوكاس (الامبراطور)
 ٥٥ ، ٩٩ ، ١٥٦ ، ١٨١
 النهضة الأوروبية - النهضة الايرلندية
 ١١٨ - نهضة القرن الحادى عشر
 ١٥٧ - نهضة القرن الثانى عشر
 ١٢٨ ، ١٢٩ - عصر النهضة ٩٥ ،
 ١٠٦ ، ١٢٩
 النوبة ٢٢٥
 نور الدين محمود ١٠٨ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٥ ح ١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ح ١ ،
 ٢٥٠ - أنظر اليقظة العربية
 النورمان ١٥٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٥
 نورمانديا ١٥٨
 النويرى السكندرى ٢٣٣ ح ١
 النويرى الكندى ١٥ ، ١٧ ، ١٤٩ ،
 ١٥٠

نيرون ١٦٤
 نيقية ١٨٣
 النيل (نهر) ١٣٤ ، ٢٤٠

(ه)

هارون الرشيد ١٦٧ ، ١٦٨
 هاسكنز (المؤرخ شارل هومر) ٩٩

٩٨ ، ١٠٠ ح ٧٦ ، ٥١	١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٧٥
يزيد بن ابي سفيان ٣٠ ، ٣٤ .	الوحدة العربية (فى العصر الاسلامى
٣٥	الوسيط) ١٠٩ ، ٢٤٩ - ٢٥٦ ،
اليعاقبة (فى الشام) ٨ ، ١٠ ، ٢٧ ،	٢٥٧ - أنظر اليقظة العربية
٥٢	الوطن العربى - أنظر الدولة العربية
يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن	الاسلامية
٢٥٣ ح ١	وليم التاسع (دوق اقطانيا) ١٣٠
اليعقوبى ١٤ ، ١٣٣	وليم رتبوف (الشاعر الفرنسى) ٢٤٢
اليقظة العربية (فى العصر الاسلامى	ح ٢
الوسيط) ١٠٧ ، ٢٢٥ - ٢٢٨ .	وليم الصورى (المؤرخ) ٩٨ ، ٢٢٥
٢٣٢ - ٢٣٧ ، ٢٣٩ - ٢٤١ .	ويجلر (المؤرخ) ١٤٦
٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧	
اليمن ٢٩ ، ٢٢٥	(ى)
اليهود ١٨ ، ١٦٥	
يوحنا الأول تزمسكىس (الامبراطور)	يافا ٣٨ ، ١٩
٥٥ ، ٩٩ ، ١٥٦ ، ١٨١	ياقوت الحموى ١٣٣
يوحنا الثامن (البابا) ١٧٨	يبنى وأزود (موقعان) ٢٤ - سرية
اليونان ١٢١	١٠ هـ ٢٤ ، ٢٥
اليونانية القديمة (اللغة) ١٣٠	يحنه بن روبة (أسقف أيلة) ٢٣
اليونانيون القدماء - أنظر الاغريق	اليرموك (موقعة رجب ١٥ هـ) ٧ ،
القدماء	٢٦ ، ٣٦ - ٣٨ ، ٤١ ، ٤٥ ،

 Bibliotheca Alexandrina



0338031